
القافلة
مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مارس - أبريل 2007
ملف العدد
الشاحنة!
الجامعات الخاصة في
الوطن العربي
أدب الراشدين الصغار
العدد 2
المجلد 56

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم.
والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتابها.

صورة الغلاف

أثناء سحب برج الحفر إلى موقع جديد في صحراء عين دار..أحمد المازني يقود (الكنوورث) في محاولة لإخراجها من الرمال التي غرزت فيها، مستخدماً إمكانات الدفع السداسي ونظام التحكم في ضغط هواء الإطارات.

Saudi Aramco

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

مارس - أبريل 2007
صفر - ربيع الأول 1428

قضايا 10-23

طاقة واقتصاد 24-29

بيئة وعلوم 30-48

الحياة اليومية 55-65

الثقافة والأدب 66-86

الملــف 87-102



توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

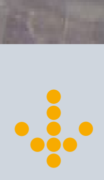
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

في مثل هذه الأيام من كل عام، يوجه طلاب السنة الثانوية الأخيرة أنظارهم إلى جامعة من الجامعات يأملون بالالتحاق بها. ومن بين هذه الجامعات التي تستقطب المزيد من الأنظار الجامعات الأجنبية الخاصة في البلدان العربية.

مكانة هذه الجامعات أكاديمياً وما لها وما يؤخذ عليها هو موضوع قضية العدد التي تستهل بها القافلة رحلتها لهذا العدد.



ويبقى باب «قول في مقال» في مناخ التعليم فيعرض لرأي يحذِّر من الإفراط في الاتكال على التعليم الإلكتروني، الذي يبقى مكملاً «لدور التعليم التقليدي، ويمكن أن يزيده غنى، ولكن من دون أن يكون بديلاً له.

2 طاقة واقتصاد

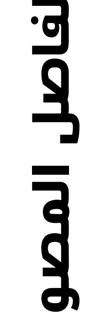
وينفرد موضوع صناعة الترفيه والتسلية بمناخ الاقتصاد، نظراً للحجم الذي بلغته هذه الصناعة، بعدما تجاوزت مبيعات أفلام الـ دي.في.دي. إيرادات صناعة السينما في العالم. كما أن ما يصرفه العرب على استهلاك منتجات التسلية والترفيه بات يتجاوز عشرة مليارات دولار سنوياً. الأمر الذي يطرح أسئلة تتجاوز ما إذا كنَّا قد أصبحنا أسرى لهذه المنتجات، لتصل إلى تأثيرها وحضورها الثقافي في حياتنا.



3 علوم وبيئة

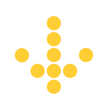
أما مناخ العلوم فيتقاسمه موضوعان: واحد يعرِّفنا بعلم جديد استفاد من الاكتشافات التي حصلت في دراسة مخ الإنسان، ليطور فن التسويق إلى ما صار يعرف بالتسويق العصبي.

والموضوع الآخر هو حول رحلة الدواء في جسم الإنسان، والمسار الذي تسلكه حبة الدواء ومحطاته، وصولاً إلى تأثيرها الشافي من المرض.





وفي الفاصل المصور لهذا العدد يستريح القارئ مع أعمال المصور السعودي هاني محمد الغيهب المميزة في توزيعها على موضوعين أساسين: الطبيعة والصور الشخصية التي تشترك بإيلاء أهمية قصوى للعبة الضوء والظل اللذين بتقاطعهما وتنافرهما يصوغان شخصية الموضوع.



4 الحياة اليومية

ويسعى مناخ الحياة اليومية إلى تسليط الضوء على جانب حي في بيت كل منًا: آنية المطبخ.. هذه الآنية التي تشغلنا لبعض الوقت في كل يوم، من دون أن نتوقف أمام التحولات التي طرأت عليها وعلى وظائفها في بيوتنا وحياتنا.



5 الثقافة والأدب

ويتقرب المناخ الثقافي في هذا العدد من نوع جديد من الأدب ظهر في الغرب في منتصف القرن العشرين، وعرفنا في البلاد العربية بعض الانطلاقات فيه.
إنه «أدب الشباب»، الموجه إلى الذين تجاوزوا مرحلة الطفولة، ولم يبلغوا سن النضوج والرشد بعد.



وإضافة إلى ما تقدَّم، تتناول «القافلة» في هذا الباب رواية الدكتور منذر القباني «حكومة الظل» التي تتناول موضوع الصراعات بين المنظمات السرية في إطار بوليسي مشوِّق، ويربط الكثيرون بينها وبين أعمال الأمريكي دان براون الذي حظي بشهرة عالمية في هذا المجال.



6 ملف العدد

أما ختام رحلة هذا العدد، فعلى متن الشاحنة ومعها.. الشاحنة التي صارت جزءاً لا ينفصل عن محيطنا في المدن وعلى الطرقات ما بين المدن، فكان من الطبيعي أن تحضر لا في الميكانيكا والصناعة فقط، بل أيضاً في الفن والأدب و.. المشاعر.



الرحلة معاً

أثقال المعرفة.. المعاصرة

تتعرض الثقافة بأشكالها التقليدية لهجمة شرسة من منابرها القديمة لحساب الثقافة الجديدة أو (المودرن)، حيث لم يعد الناس يتعاطون القصيدة والنص السردي، أياً كان منبته وهويته، بشغف كما كان يحدث في السابق. الشاعر يتوارى خلف نصوصه (المحدودبة) والقاص يتمنى لو يباع من مجموعته ألف نسخة في الغرب وعشر نسخ في بلاد العرب. الرواية فقط، فيما يبدو، بقيت صامدة لأنها أحدث الأجناس الأدبية وأكثرها مواءمة لأنفاس الإنسان الجديد، الذي ربما وجد فيها باباً واسعاً للخروج من حقيقة عصره إلى مجموعة حقائق متخيلة أو مغيبة. أيضاً الرواية بالذات، وأنا هنا قارئ ولست ناقداً، استطاعت أن تصمد في وجه العاصفة لأنها تقتات على يوميات الناس وفضائحهم ومفارقاتهم السياسية والاجتماعية. ولذلك يمكن اعتبارها أذكى الأجناس الأدبية على مر التاريخ البشري. كما أنها، أي الرواية، متجددة، تغسل نفسها كل يوم بالمستجدات، بينما وقع النص الشعري المعاصر في غباء الطلاسم والرموز. ولذلك قال شاعر عربي مرموق ذات يوم إنه يطبع دواوينة الشعرية ويهديها لأصدقائه، أصدقاء الطلاسم.

الكتاب الثقافي التقليدي بدوره ترك مكانه لكتب حديثة ليس مجالها الأدب أو الثقافة بشكلها التقليدي، بل هي مهتمة بالإدارة والأعمال والاقتصاد والسلوك البشري المرتبط بالأداء والإنتاجية على طريقة الواحد زائد واحد. هذه الكتب الحديثة تبيع الآن، حتى بالعربية، مئات الآلاف من النسخ، ويشتريها الرجال والنساء والكبار والشباب لأنها تتعامل مع الهم اليومي الذي أصبح يشغل الإنسان الواقع في ورطة الفردانية والمنكفئ على التطوير الذاتي لمهاراته العملية البحتة والحياتية العامة. بات الإنسان مع النمو الهائل لرأس المال الصناعي والخدمي يبحث عن مخارج أدبية مختلفة يبني على أساسها مكتسباته الذهنية ليكون دائماً أفضل إذا ما قورن بالآخرين على أساس المغنم المادي وليس المغنم الفكري الثقافي.



ولذلك وجد التلفزيون حضوره الطاغي والهائل في عالم اليوم بعد أن تحوَّل إلى طاحونة (ثقافية) بمفهوم معاصر. وإذ سقطت بعض التلفزيونات في مطبات الاستسهال والفراغ الفكري مستجيبة لنوازع الماديات ومداعبة الأخيلة والغرائز والبطون، أفرغت تلفزيونات أخرى شحناتها الإيديولوجية والفكرية في رؤوس المشاهدين عبر برامج تنقل الصورة الحية مع الصوت ليشكلا (الصورة والصوت) رسالة لا يمكن أن تخطئها العين، حتى وإن لم يقبلها عقل المشاهد في بداية الأمر. فالتلفزيونات المؤدلجة تمارس، مع سبق الإصرار والتحكم، أسلوب الإلحاح البصري لتخلق انطباعات متغيِّرة تؤدي، بدورها، إلى تشكيل أفكار متغيِّرة. وقد نجح بعضها في ذلك إلى الدرجة التي أصبح فيها المشاهد يعلن دون أدنى تردد أن قناعته تجاه أمر ما، الممتدة لأكثر من عشرين سنة على سبيل المثال، غيَّرتها بشكل كامل مشاهدته لهذا البرنامج الحواري أو ذاك المسلسل الذي تمتع بحبكة درامية جاذبة ومؤثرة.

ولذلك انتقل بعض المفكرين والساسة من الكتاب بصورته التقليدية إلى شاشات التلفزيون مع قناعة منهم بأن الصورة التلفزيونية بمليون كلمة، وليس بألف كما هي الصورة المطبوعة. وإذا كانت صورة تلفزيونية واحدة بمليون كلمة فلكم أن تتخيلوا كم عدد الكلمات التي يختزنها المشاهد ويرتب على أساسها أفكاره التي تنتج بطبيعتها ثقافته الشخصية. إن الأمر صعب التخيل حيث يمكن أن يصل مجموع الكلمات التي يختزنها من مشاهدة ساعة واحدة فقط إلى مليارات الكلمات. وبالتالي لا بد أن يصاب بغثاء فكري يصعب معه فرز الغث من السمين، لتولد، تبعاً لمعطى التلفزيون الثقافي، أجيال من الحائرين المشتتين بين أخيلتهم وغرائزهم.

أما ما قد يصيب الناس بالدوار فهو سيل الكلمات عبر شبكة الإنترنت بكل اللغات، فإذا صب هذا السيل في وادي التلفزيون المعاصر فإن ما يحدث بالضرورة هو (تسونامي) معرفي يزلزل القناعات والأفكار، بل ربما يزلزل السلامة النفسية لمن يضع قدمه في مجرى هذا الوادي. ولذلك تنادت أمم الأرض حين ظهرت نوايا الإنترنت، لتحمي مكتسباتها المعرفية وأفكارها الخاصة التي تراكمت عبر قرون من الزمن. خاف الناس في كل مكان من هزَّات المعرفة غير المحسوبة وغير المسؤولة ضمن ما تعارفوا عليه من قيم هذه المعرفة، التي تقوم على ركائز البناء والاحترام والعطف والمسؤولية الوطنية الاجتماعية.

الآن وقد أصبحت زلازل المعرفة تهزنا كل ساعة، بل كل دقيقة صار لزاماً أن تبنى قواعد جديدة لتلقي المعرفة (المسؤولة) وهضمها بشكل صحيح بحيث يصبح من الممكن المحافظة على الركائز التقليدية، من غير أن نفقد نعمة تزايد المعرفة أو نكفر بهذه النعمة. ما يفترض أن نسعى إليه هو الحضور الكامل في أودية هذه المعرفة مع خلق مساربنا الخاصة ضمن هذه الأودية، بحيث يمكننا الامتناع أو الانسحاب أو المشاركة أو التفاعل وقت نشاء. وأعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يجابه أثقال المعرفة التي ننوء بحملها الآن أكثر من التربويين، الذين ربما يحملون نفس الأثقال، لكن لا بأس من إلقاء هذا الثقل التربوي عليهم لينقذوا الأجيال القادمة من مغبة الوقوع في طاحونة المعرفة الهائلة التي تعرِّضهم لمضاعفات خطيرة من جرَّاء زيادة جرعاتها.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

حالة الترجمة

أنا من قرَّاء القافلة الحريصين على متابعة ما ينشر فيها، ولقد لفت انتباهي في العدد السادس لعام 2006م موضوع الافتتاحية «حال الترجمة» وذهلت من حقيقة الأرقام حول حال الترجمة في عالمنا العربي.. لا سيما أني مهتم بشأن الترجمة بحكم وظيفتي كمترجم في شركة تنمية نفط عُمان أولاً، ثم محاولاتي المتواضعة لترجمة بعض النصوص الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، وآخرها كان رواية «مزرعة الحيوان» لجورج أورويل والتي صدرت مؤخراً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت.

محمد عبد العريمي
سلطنة عُمان

البحث عن الملل

إلى الأستاذ الفاضل الباحث عن الملل..
لم أكن أعلم بوجود هذا النموذج الإيجابي من الباحثين عن الملل في عالمنا العربي.. وأعتقد يا أستاذي أن من يملك هذه الروح المتفانية في العمل والإنتاج وتهيئة الذات، فيمكنه تهيئة ذاته للاستمتاع بالنشاطات التي يقوم بها دون الخضوع لسيطرة أفكار فرضتها علينا فلسفة العصر الحديث.

أقول وبصراحة إنني تعجبت – استحساناً- وأنا أقرأ ما كتبت، وتذكرت نماذج كثيرة من حولي -ولست أبريء نفسي- قتلهم الملل سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا. فما إن تنتهي ساعات العمل حتى تتوقف العقول عن العمل أيضاً. وكل نشاط يمارس بعده ما هو إلا محاولة للحصول على فسحة من الملل، ونسيان الساعات المرهقة التي ضاعت في العمل والإنتاج.. أما العاطلون فتتوالى أيامهم وهم مسترخون ذلك الاسترخاء القاتل للروح والعقل والتفكير والإبداع.

هنيئاً لك يا سيدي ولكل من تدفعهم ضمائرهم الحية إلى تهيئة الذات المتعدي النفع ليشمل -ليس الذات فقط- وإنما المجتمع والوطن أيضاً.

ابتسام محمد
تعقيباً على مقالة «فسحة من الملل» المنشورة في عدد يناير-فبراير 2007م

لغة الإشارة

قبل كل شيء أحب أن أؤكد على تزايد إعجابي وتمسكي بمجلتكم/مجلتنا الرائعة «القافلة». بينما كنت أقرأ موضوعكم الرائع عن «سلطانة علي رضا في صورة شخصية» الصادر في العدد يناير-فبراير 2007م، كنت أظن أني سأقرأ عن لغة الإشارة، ولكن الموضوع لم يكن مخصصاً لذلك. وعليه أتمنى عليكم، مشكورين، أن تفردوا ملفاً كاملاً عن لغة الإشارة للصم والبكم، محتوياً على صور توضيحية لأشكال الأحرف وطرق التواصل معهم.

خالد صالح العامر
مركز طب جراحة الأسنان، القصيم-بريدة

المادة الإبداعية

يسعدني أن اكتب إليكم ولمجلتنا القافلة التي كنت أحد كتَّابها، ثم لظروف ما قصَّرت. ويسعدني أن أكتب إليكم والعدد الأخير من القافلة بين يدي وقد وصلني للتو.. فالقافلة من المجلات الأثيرة على النفس، ولا أخفي اللمسات التي أضفتها يا أخي محمد على المجلة منذ تسلَّمت رئاسة تحريرها.. خير خلف لخير سلف أخوة أعزاء. مع إبداء رغبة أخوية بزيادة المادة الإبداعية في المجلة، واعتماد محاور فكرية إبداعية تكون رديفاً للمادة العلمية الرائعة. كما أقترح جمع القافلة في مجلد على غرار ما تفعل المجلات الأخرى.

محمد رضا حامد
دمشق

القافلة: شكراً لك على هذه العاطفة. أما المادة الإبداعية فهي حاضرة كما ترى، وبالقدر الذي تسمح به صفحات المجلة، ومنها الملف المصوَّر، وديوان اليوم، وباب الرواية، على سبيل المثال.



تصويب رقم طوارئ حرس الحدود

بداية يطيب لنا أن نبعث لكم شكرنا وتقديرنا على إهدائكم مجلة القافلة لحرس الحدود. ونشيد بالجهود التي تبذلونها للخروج بهذه الصورة المشرفة والتي بها ارتقت المجلة إلى تلك المكانة العالية، ومن حسن اختيار الموضوعات المطروحة فيها.
أود أن أشير إلى ما ورد بالعدد 4 من المجلد 54 لمجلتكم العريقة والتي جاء بين طياتها موضوع مهم جداً بعنوان «للسباحة شروط.. لا تغفلوها». إلا أن بين سطور هذا الموضوع وتحديداً في الفقرة (5) التي وردت تحت عنوان (خلال السباحة) ذكرتم أن رقم الطوارئ الخارجي لمباشرة حوادث الغرق (977) وهذا ليس رقم طوارئ حرس الحدود فإن الرقم الصحيح هو (994) وكما تعلموا أن حرس الحدود هو الجهة المسؤولة عن السلامة البحرية ومباشرة عمليات البحث والإنقاذ على الشواطئ وفي البحر.

قائد حرس الحدود بمنطقة مكة المكرمة
اللواء البحري الركن
عبدالحميد بن حمدان المورعي

القافلة.. قديماً أفضل

بداية كل عام وسعادتكم بخير بمناسبة انبثاق فجر العام الهجري الجديد 1428هـ، والقافلة إلى مزيد من العودة إلى أصالتها وديناميتها الحضارية واستيعابها الموضوعي المعهود، بعيداً عن شكلها الجديد، أو بالأحرى بعد التخلص من تداعيات هذا التجديد الناقص، إذا شئنا الدقة، وآمل ألا تغضبوا من صراحتي الموضوعية هذه، وإليكم الدليل الحضاري الدامغ على مدى مصداقية ما ذهبت إليه.. فبين يدي نسخة من العدد (11 ذو القعدة 1422هـ، يناير-فبراير 2002م - المجلد 50)، وهو بالمناسبة آخر عدد نُشر به نتاج فكري خاص بي، وهذا يعني أن ثمة (خمس سنوات)، قد انصرمت من عمر المجلة الغرَّاء دون أن يُنشر لي بها أي نتاج فكري آخر، وذلك على الرغم من النتاج الفكري الثري الذي أرسلته إلى المجلة عبر هذه السنوات الخمس. وقبالة هذا العدد بين يدي أيضاً العدد (6 - نوفمبر-ديسمبر 2006م - المجلد 55) وهو آخر عدد وصل لي من المجلة.

إن نظرة طائر على محتوى العددين، كفيلة أن تبلور لنا مدى البون الحضاري بين العددين. فأين التنوع الفكري والحضاري (الشامل)، الذي كان سمة أساسية من سمات القافلة في عهدها السابق للتجديد الأخير..؟ إن القافلة قبل هذا التجديد الأخير، كانت منبراً ثقافياً بحق، وكانت مجلة ذات توجه حضاري (شمولي)، أما الآن فهي مجرد مجلة استطلاعات، وأعتقد جازماً بأن مجلة القافلة ذات الرصيد الحضاري الرصين والأصيل معاً لا يليق بها هكذا تجديد، إن تجديد القافلة -حسب قناعتي- ينبغي أن يشمل التوسع في نشر الأبحاث العلمية الجادة في كل فروع المعرفة، كما كان العهد بها سابقاً، إنني لا أريد أن أطيل عليكم وإذا أردتم الإسهام الحيوي في هذا الإطار التجديدي فإنني على أتم استعداد للمساعدة.

وثمة أخيراً وليس آخراً، لقد كانت القافلة وعاءً حيوياً متدفقاً بالجرعات الثقافية والحضارية (الشاملة) المنشطة للعقل العربي والمسلم المعاصر. أما الآن ورغم كبر حجمها، إلا أن المواد المنشورة بها جعلتها أقرب إلى النشرة الإعلامية، منها إلى كونها مجلة ثقافية تصدر (كل شهرين)، إن معنى ذلك -أي صدورها كل شهرين- هو أن تكون أبحاثها أبحاثاً علمية رصينة وموثقة ومتنوعة ولا مانع من وجود استطلاع واحد في كل عدد.

إنها صرخة ما قبل الرحيل، فالثقافة هي في الحقيقة بمثابة كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق، والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانات والعادات، التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع الحضاري الذي ينتمي إليه، وكذا فإن الثقافة -في أرقى مفهوم لها- هي نظرية في السلوك وليست نظرية في المعرفة ولا سلوك حضاري حق إلا بتكوين عقل حضاري راشد.

آمل أن تعود القافلة الغرَّاء إلى سابق عهدها من التألق والتفرد.

دكتور مصطفى محمد طه
بيروت

القافلة: أن لا يكون قد نُشر أي من إنتاجكم الفكري خلال السنوات الخمس الماضية، فهذا لا يعني تقييماً من قبلنا لهذا الإنتاج، بل إلى خروجه عن أبواب المجلة المحددة بدقة كما هو واضح للجميع. بدليل أن القافلة تجمع اليوم عدداً من كتَّابها القدامى إلى أصحاب المواهب الشابة.
كنا نتمنى لو أنكم حددتم بوضوح مآخذكم على القافلة كي نتمكن من إجراء حوار بنَّاء حولها. ولكن اقتصار ما ورد في رسالتكم في التعبير عن موقفكم على العموميات غير المدعومة بأي مثل محدد، تبقى رسالتكم في إطار الموقف الشخصي المنفرد الذي لا يتوازن مع مواقف آلاف القرَّاء الذين ذهبوا في رسائلهم نقيض ما تذهبون إليه، آملين في أن تخطو القافلة المزيد إلى الأمام، لا أن تعود إلى الوراء.

صناعة الإعلان

طالعت في العدد الأخير من القافلة جملة مواضيع جعلتني أشعر أنني فعلاً أمام عدد مميز من مجلتنا الغالية.

فقد أحببت بشكل خاص فكرة ديوان الأمس وديوان اليوم حيث كتب الأستاذ عماد بوخمسين عن «هجاء الناس» وقدَّم لنا كل هذه المختارات الظريفة.

كما أحببت أيضاً موضوع الطوافة، خاصة وأني لا أزال أحتفظ بصداقتي الشخصية للمطوِّف الذي استقبلني في مكة المكرمة قبل ست سنوات.

ولكن إلى جانب المواضيع الشيقة الكثيرة، كنت أتمنى لو أن كاتب موضوع «صناعة الإعلان في دول الخليج» تناول موضوعه من جوانب تتجاوز الأرقام وتطوراتها، ليقدِّم لنا قراءة ثقافية لهذه الصناعة، ولمحتواها الفني والحضاري، ودورها في الحياة اليومية وما تعكسه من تحولات اجتماعية هي، بالمناسبة، واحدة في كل البلدان العربية، وليست حكراً على دول الخليج العربي. خاصة وأن الدور التي تصمم هذه الإعلانات وتوزعها ما بين اللوحات على جوانب الطرقات وشاشات التلفزيون في غرف نومنا، هي واحدة بكل سلبياتها وإيجابياتها التي تستحق التوقف أمامها، وفصلها عن بعضها البعض.

صلاح عبدالحي ياسين
القاهرة

المشتركون الجدد

بدر عبدالله السلامة، الرياض - محمود محمد سليمان، مصر - عبدالله سلمان الصفار، الأحساء - يوسف سمهان السريحي، مكة المكرمة - سعادنة يزيد، الجزائر - عبدالله إبراهيم مهنا، الرياض - هالة أحمد إبراهيم الخولي، مصر - بلقاضي محمد، الجزائر - طاهر عبدالملك الطيب، الطائف - رحموني ياسين بن مسعود، الجزائر - حسين عبدالمحسن الشهابي، البحرين - حمد محمد البكري، الأفلاج - هليل بن سفر الحربي، المدينة المنورة - مثقال محمد الصالح، دومة الجندل - السعيد بن الطيب رمضاني، الجزائر - مسعودة بو قرفة، الجزائر - الزاوي عادل، الجزائر - يوسف بن تركي عيسى الحيمود، الأحساء.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديلات، ونرحِّب بكم أصدقاء للقافلة التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



فوضى الترجمة العربية حسب تقرير التنمية البشرية

يدل تقرير «التنمية الإنسانية العربية 2005م» على أن حركة الترجمة في البلدان العربية لا تزال تتسم بالركود والفوضى. حيث كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون من السكان في العالم العربي في السنوات الأولى من الثمانينيات 4.4 كتب (أي أقل من كتاب واحد في السنة لكل مليون نسمة)، بينما بلغ 519 كتاباً في المجر و920 كتاباً في إسبانيا لكل مليون نسمة.

إن تجربة البلدان العربية في نقل الثقافة والمعرفة وتوطينهما، لم تحقق النهضة التقنية المرجوة، كما أنها لم تحقق عائداً استثمارياً مجزياً. فاستيراد الثقافة لم يؤد إلى توطينها، ناهيك عن تطويرها أو توليدها. ورغم أن البلدان العربية استثمرت أكثر من 2200 مليار دولار ما بين عامي 1980 و1997م في البنية التحتية بشكل أساس، فإن معدل الناتج المحلي الإجمالي للفرد قد انخفض بالفعل خلال تلك الفترة. فهذه الاستثمارات لم تؤد إلى انتقال حقيقي للثقافة، لأن ما جرى نقله هو وسائل الإنتاج لا الثقافة ذاتها.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذا، عدم وجود نُظم فعّالة لابتكار وإنتاج المعرفة في البلدان العربية، وغياب سياسات رشيدة تضمن تأهيل القيم والأطر المؤسسية الداعمة لمجتمع المعرفة.

مشكلات الترجمة إلى اللغة العربية

قبل التحدث عن قضية الترجمة ومشكلاتها من الضروري التعريف بماهيتها، وبالمترجم من هو؟ لأن كثيراً ممن تعلموا لغات أجنبية يحسبون أن بوسعهم أن ينقلوا من لغة إلى أخرى بصورة مقبولة مُستساغة.

الواقع أن الترجمة الصحيحة هى التي تلتزم بنقل النص كاملاً دون زيادة أو نقصان، بأسلوب يتناسب مع النص الأصلي، وإن كان مثلاً بلغة فصحى وجبت مراعاة الفصاحة فى اللغة المنقول إليها، وإن كانت بالعامية وجب النقل إلى عامية مماثلة. ويحسن بالمترجم أن يقوم بشرح الغامض والغريب في هوامش الصفحات، وأن يقدّم لترجمته بما يبين قيمة الكتاب وما يعود به من النفع على ثقافة أهل اللغة التي ينقل إليها.

ولما كانت أمانة النقل ومضاهاة أسلوب الترجمة بأسلوب الأصل أمراً عسيراً، فقديماً قيل «كل ترجمة خيانة» لأن التعبير بلغة ما يختلف عن التعبير بلغة أخرى، ومن ثم فإن المترجم ينسب إلى المؤلف ما لم يصدر عنه. وهذا العمل يعتبره البعض ضرورة لا مفر منها، وعلى المترجم أن يلتزم بالمضمون وليس عليه، بل ولا يمكن له، أن ينقل الشكل أو التعبير باللغات الأخرى.

وإذا نحن لم نسلّم بهذه الحقائق فكأننا بمثابة من يقول لمن ينشر الثقافة العالمية «تعلّم جميع لغات العالم -قديمها وحديثها- لكي تستطيع أن تقرأ كل ما يهمك مما كتب بها» ولا جدال في أن هذا تكليف بما ليس في المستطاع.

بل إنه ليجوز عند البعض تلخيص المضمون ونقله في عبارة موجزة على أن يشار إلى ذلك في مقدمة الترجمة، أي أن يفعل فى الأصل مثل ما فعله تشارلز لام في مسرحيات شيكسبير عندما لخصها في كتابه (حكايات من شيكسبير).

كما يجوز كذلك إدخال شيء من التعديل على ما جاء في الأصل -كالتبسيط- مثلاً لأغراض تربوية، أو لتهيئة النص المترجم للعرض بالوسائل الإعلامية، مرئية كانت أم مسموعة، ويعد هذا العمل تكييفاً (Adaptation) للأصل مقبولاً، ولكنه ليس ترجمة بالمعنى الذي أشرت إليه في صدر هذا الحديث.

وليس من الخيانة أن يحذف المترجم من الأصل عبارات يرى أنها لا تتفق وثقافة أو ذوق أهل اللغة التي ينقل إليها المترجم، كأن يكون في العبارة ما يخدش حياء القارئ أو يمس عقيدته الدينية.

وفي رأيي أن الترجمة عن ترجمة أمر جائز خلافاً لما يقول به الكثيرون من المشتغلين بالترجمة، لأن كل ما نقلناه إلى العربية من الأدب الروسي منقول عن الترجمة الإنجليزية أو الفرنسية لهذا الأدب، ولولا النقل عن هاتين اللغتين إلى العربية لما عرفنا شيئاً عن كبار كتّاب الروس.

أما ما يسمونه بالترجمة الحرفية (literal translation) فأمر لا يجوز قبوله، فلا يمكن مثلاً أن نترجم I am on an ox بقولنا «أنا أكون على واحد ثور».

وقبل أن أنتهي من تعريف الترجمة، أود أن أنبه إلى أنه لا ينبغي لنا أن نخلط بين الترجمة والتعريب، فالترجمة هي ما ذكرت في صدر هذا المقال، وأما التعريب فهو نقل اللفظ الأجنبي كما هو مع تحريف يسير بحيث يسهل على الناطقين باللغة المنقول إليها التفوه به، مثل قولنا «تكنولوجيا» بدلاً من Technology أو «راديو» بدل «ريديو» وغير ذلك كثير مما أجازه المجمع اللغوي وأدخله في «المعجم الوسيط». والتعريب أو (Arabisation) له ما يماثله في جميع اللغات ويعرف بقولهم (Translteration).

وأنتقل الآن إلى الشروط التي ينبغي أن تتوافر في المترجم، وهي معروفة للباحثين قديماً وقد عبَّر عنها الجاحظ بقوله «ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن لمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية». ويعني ذلك أن المترجم يجب أن يتقن اللغة التي ينقل عنها كما يتقن اللغة التي ينقل إليها، وأن يكون على علم بموضوع النص الذي ينقل عنه.

معوقات الترجمة

1 - إن أول ما يجابه المترجم مشكلة الاختيار، ماذا يترجم؟ والمحصول العالمي بمختلف اللغات ضخم جداً، ولا بد له من معرفة ما ترجم منه إلى العربية وما لم يترجم -ويستحيل على أي فرد أن يلم بهذا كله لكي يحسن الاختيار منه- وإذا توافر في البلاد العربية من يلم باللغتين الإنجليزية والفرنسية- فلا بد أن نذكر أن باللغات الأخرى روائع لا بد من نقلها إلى اللغة العربية نقلاً أميناً، لكي تتسع بذلك آفاق الثقافة العربية وليس لدينا إلا

القليل ممن يتقنون لغات مثل الروسية والإسبانية والصينية واليابانية وغيرها ممن يمكن لهم أن يتصدوا لهذا العمل.

2 - ومن تراث الإنسانية الذي قيمته الأدبية الكبرى (الشعر) ويدور حول ترجمته جدل كثير. فمن المفكرين من يرى أنه لا يمكن أن يترجم لأنه كلام موزون، ونقل الوزن عسير، ومنهم من يرى أنه يمكن أن يترجم شعراً، وأنا شخصياً ممن يرون أنه إن تعذر نقله شعراً بلغة الترجمة فإنه يجوز ترجمته نثراً. فالوزن ليس كل ما في الشعر من قيمة، فهناك الصور التي يرسمها الشاعر، وما يستخدمه من تشبيه واستعارة وغير ذلك من ضروب البيان.

3 - وثمة مشكلة أخرى في الترجمة وهي مشكلة المصطلحات، ولا تختص العلوم وحدها بها، فلكل فرع من فروع المعرفة مصطلحاته، وتقوم لجان المجمع اللغوي بترجمة مجموعة كبرى من مصطلحات العلوم، ولا بد من جمعها وترتيبها أبجدياً، لكي تكون اللغة العربية واحدة في كل مكان.

4 - ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى المعاجم والموسوعات العامة والمتخصصة التي لا غنى عنها للمترجم والتي نفتقر إليها إلى حد كبير. وفي خطتنا الاتجاه لترجمة قدر من الموسوعات التي يمكن أن تعود بالنفع في هذا المضمار.

5 - ومن الصعوبات التي يقابلها المترجم إلى اللغة العربية أن يجد في النص الأجنبي ترجمة لنص عربي أو آيه قرآنية. وعندئذ على المترجم ألا يجتهد، وإنما عليه أن يبحث عن النص العربي ليورده على أصله، وقد يقتضي ذلك منه وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً.

6 - ويسوقني هذا إلى الحديث عن ترجمة القرآن الكريم، وهي عملية مستحيلة نظراً لما فيه من إعجاز. ولذلك يرى مجمع البحوث الإسلامية الاكتفاء بترجمة المعنى دون النص لتعريف الشعوب التي لا تتكلم العربية من مسلمين وغير مسلمين بمبادئ الإسلام.

د. عفاف عبدالمعطي
مصر

تعقيباً على موضوع الرحلة معاً «حال الترجمة»، القافلة عدد نوفمبر-ديسمبر 2006

وردنا

• «ماذا يقرأ عرب اليوم؟»



عن «مركز الراية للتنمية الفكرية» في دمشق، صدر مؤخراً كتاب للكاتب المصري أشرف بكر، يتناول موضوع القراءة في الوطن العربي، الذي يشغل الكثيرين من المثقفين والتربويين والإعلاميين في الوقت الراهن.
يتضمن هذا الكتاب رغم صغر حجمه (207 صفحات من القطع الصغير) ثمانية فصول هي: لمحات تعريفية بالقراءة وبتاريخيتها، القراءة وأثرها في التشكيل الفكري والسلوكي للإنسان، مكونات عقل القارئ العربي، ماذا يقرأ العرب بالوثائق، كيف تشتري كتاباً، مصادمات ومصارحات، الكتب الأكثر تأثيراً في العقل العربي، وختاماً يلخّص المؤلف أهم الأفكار الواردة في الكتاب في فصل خاص.

• «الدراسة في الخارج»



يهدف هذا الكتاب الشامل إلى إرشاد الطلاب والطالبات الراغبين بالدراسة في الخارج، سواء أكان ذلك لدراسة اللغة، أم للدراسة الجامعية في أية مرحلة من مراحل التعليم العالي، وتقديم المعلومات الدقيقة المتعلقة بالإعداد للبعثة، أو بالدراسة في بلد الابتعاث والعيش فيه.
أعد هذا الكتاب الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله بن طالب، وضمَّنه 14 فصلاً أبرزها: فوائد واعتراضات، تجارب دولية، متطلبات القبول، مراسلة الجامعات، الاستعداد للسفر، الدراسة، الحياة الجامعية، دول الابتعاث.. إضافة إلى ملحقين مهمين يكمّلان الكتاب، أحدهما «دليل أفضل الجامعات»، والثاني «هواتف وعناوين مهمة».

• «حادثة سنة الطبعة»



كتاب يؤرِّخ للإعصار الذي ضرب منطقة الخليج العربي وخاصة البحرين، والساحل الشرقي للملكة العربية السعودية وقطر، عام 1344هـ - 1925م، وأدى إلى هلاك الآلاف، كما أغرق 80% من السفن التي كانت موجودة في مياه المنطقة بكل من كان على متنها.
الكتاب من تأليف سعد بن عبدالعزيز السيف، الذي يروي مجريات هذه الكارثة، ويجمع إليها شهادات من كتبت لهم النجاة، وذكريات المعمِّرين، وصولاً إلى ما قيل من شعر في هذه المناسبة التي ضربت أحزانها بيوت آلاف الخليجيين. كما يضمِّن المؤلف كتابه الواقع في 88 صفحة ملحقاً من الصور الفوتوغرافية لبعض الناجين من هذه الكارثة وغيرها.

• «اللغات السرية في الطبيعة»



كتاب علمي جديد أصدرته دار الفارابي في بيروت، وهو من تأليف جان ماري بيلت بالتعاون مع فرانك ستيفان، نقله إلى العربية فارس غصوب.
ومما جاء في المقدمة التي تعرِّف بهذا الكتاب أنه في الوقت الذي أصبح فيه «الاتصال» الكلمة السائدة في المجتمعات الحديثة، بات من المغري استكشاف استراتيجيات الاتصال القائم في الطبيعة، تلك التي تربط ما بين النباتات والحيوانات. ويضيف التقديم أن «معظم المعلومات الواردة والمجتمعة في هذا الكتاب لا يتعدى عمرها العقود الثلاثة، فهي تمثّل أحدث إسهامات العلم المعاصر في علم البيئة الطبيعي».

الجامعات الخاصة في الوطن العربي

الطفرة عددية.. أمّا الأداء فمسألة أخرى





تشهد معظم الدول العربية طفرة غير مسبوقة على صعيد إنشاء جامعات خاصة غالباً ما تكون فروعاً لجامعات أجنبية. ولا شيء يوحي اليوم بأن هذه الطفرة المستمرة منذ سنوات عشر تقريباً قد بلغت الذروة، الأمر الذي يرسم أكثر من علامة استفهام، لا حول دورها بإيجابياته وسلبياته فقط، بل أيضاً حول مستقبل التعليم العالي ككل في البلاد العربية بأسرها. القافلة تتناول هذه القضية من خلال خمسة إسهامات مختلفة.

المساهمة الأولى يقدمها إلياس سحاب الذي يسلِّط الضوء على السمات الرئيسة للجامعات الخاصة، من خلال تلخيصه فصلاً خاصاً بهذا الشأن من دراسة بالغة الأهمية في هذا المجال.

ولأن هذه الطفرة وصلت بزخم إلى عدد من الدول الخليجية، لتشكِّل نقاط جذب جديدة للطلبة فيها، بمن فيهم الطلبة السعوديون، يحدثنا إبراهيم الشاخوري في مساهمته عن تجربة مملكة البحرين مع الجامعات الخاصة، وحسَّان الزين عن تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة.

وبعد أن تتناول أمينة خيري من القاهرة دور الجامعات الأجنبية في مصر العريقة بجامعاتها الإسلامية والوطنية، تحاول دارين صالح من بيروت تلخيص هذه القضية في حوار شامل مع وكيل الشؤون الأكاديمية في الجامعة الأمريكية ببيروت الدكتور وضَّاح نصر.



1

الجامعات الخاصة في مواجهة الحكومية

ظهرت لحل مشكلة فتسببت بإشكاليات أكبر




مـع التطورات التي طرأت على بنيـة التعليم في الوطن العربي في العقدين الأخيريـن، تأثراً بالتحولات العالمية الجارفة، لم يعد يجدي الاكتفاء بأرقام المنتسبين إلى المدارس والجامعات ومؤسســات التعليـم العالي، لرسـم صـورة دقيقة عـن أحوال التعليـم في الوطن العربي، بل أصـبحنا بحاجة إلى التعمق في دراسة التغيير الذي فرضته التحولات في أنماط التنمية وثقافة السوق على أعماق البنية التعليمية في بلادنا، خاصة على مستوى التعليم الجامعي، لتحديد بوصلة دقيقة نقيس بها بدقة نسبة الإيجابيات والسـلبيات في هذا التغيير، قبل أن يسـتفحل أمر السلبيات إلى درجة غير قابلة للإصلاح.

ارتفع عدد الجامعات الخاصة في البلاد العربية من 4 عام 1950م إلى 26 عام 1996م، وصولاً إلى 77 عام 2003م

لقد أصدر مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، في العام 2005م، كتاباً وافياً عن هذا الموضــوع، للدكتورة محيا زيتون، بعنوان «التعليم في الوطن العربــي / في ظل العولمة وثقافة الســوق»، ورأينا من المفيد أن نعرض تلخيصـاً للفصل التاسع والأخير من هذا الكتاب، الــذي يعالج ظاهــرة تكاثر الجامعات الخاصــة ومؤسســات التعليم العالي الخاصة في جميع البلدان العربية.

نموها يتحول إلى طفرة

يبدأ الحديث عن هذه الظاهرة بتحديد الحاجة التي أوجدتها. فمـع أن التعليــم الجامعي الحكومــي، يعود فــي بعض البلاد العربيــة إلى مطلع القرن العشــرين، فإن بنية هذه الجامعات الحكوميــة كانت تؤســس في الغالب على نســق أنماط التعليم الجامعي الكلاسيكي في أوروبا، مع قدرة أقل على التكيف مع التحولات التي بدأت تعصــف بالقرن العشرين منذ منتصفه. لذلــك، وعندمــا اكتســحت موجة اقتصــاد الســوق وظاهرة العولمة ســائر أنحــاء العالم مع اقتراب القرن العشــرين من نهايتــه، كانت الجامعات الحكومية العربية عاجزة عن إجراء التحولات المطلوبة، بالســرعة المطلوبة، للتكيف مع اقتصاد الســوق. ولما بدأت الاســتثمارات الخاصــة تتدخل لسد هذه الثغرة، كان طبيعياً أن تركز على الجامعات الخاصة، هرباً من البنية البيروقراطية المسيطرة على الجامعات الحكومية.

إن جردة إحصــائية بنمو خريطة التعليم الجامعي الخاص في الوطن العربي في القرن العشــرين، تؤكد لنا أن الطفرة الكبــرى لهــذه الظاهرة، التي بــدأت منذ عقــود طويلة، لم تنفجــر إلا فــي العقــد الأخيــر من القــرن العشــرين. ففي النصــف الأول من القرن المنصرم (أي قبل 1950م)، لم يكن عدد الجامعات الخاصة في جميع أرجاء الوطن العربي يتجــاوز الأربــع. وارتفع في العــام 1973م إلــى 8 جامعات خاصــة، ثم إلى 26 في العــام 1996م. لكن ما إن حل العام 2003م، حتى أصــبح عــدد الجامعات الخاصــة في الوطن العربي 77 جامعة.

ولعل لبنان، كان البلد العربي الوحيد الذي شــهد تطوراً في أعداد الجامعات الخاصــة فيما قبل عقد التسعينات. لكن التحــولات العالمية التي أشــرنا إليها في مطلــع المقال، ما لبثــت أن دفعت عــدداً كبيراً من الــدول العربية في الاتجاه نفســه، مثــل: مصــر، الأردن، تونــس، اليمــن، الإمــارات، الكويــت، ســلطنة عمــان، ســورية، الصــومال، وانضــمت إليهــا مؤخراً بقية الــدول العربية مثل الســعودية والجزائر والبحرين وقطر وموريتانيا وجيبوتي.

وعند إجراء هذا الإحصاء قبل عامين، كان عدد الجامعات الحكوميــة فــي الوطن العربي قــد ارتفع إلــى 156 جامعة، بينما بقيت الجامعات الخاصة عند نصف هذا العدد.

أعداد لا تعكس الصورة كاملة

ومع ذلك فإن هذه النسبة العددية لا تعكس أبداً صورة دقيقة عــن كل من نمطيــة التعليم الجامعــي: الحكومي والخاص. فمع أن عدد الجامعات الخاصة قد وصل بسرعة إلى نصف عدد الجامعات الحكومية، إلا أن معظم الجامعات الخاصة هي جامعات صغيرة الحجم (وبعضها صغير جداً).

ففــي لبنــان مثلاً، تســتوعب الجامعــة الحكوميــة الوحيدة (الجامعــة اللبنانية) 60% من مجموع الطلاب الجامعيين اللبنانييــن، بينمــا تســتوعب الجامعــات الخاصــة الخمس الكبرى 25% من الطلاب، أما الجامعات الخاصــة الأخرى (27 جامعة) فلا تستوعب أكثر من 15% من الطلاب.

أما في مصــر، فالثغرة أشد اتساعاً، إذ إن جامعة القاهرة وحدهــا، من بين الجامعات الحكومية، كانت تضم في العام 2002م سبعة أضــعاف عدد طلاب الجامعات الخاصة، بل إن عــدد طلاب كليــة واحدة في جامعة القاهــرة تجاوز في ذلــك العام عــدد الطلاب فــي كل الجامعات الخاصــة في مصر.

فتِّش عن الاستثمار

إن مواجهة التحولات المتســارعة في أنماط التنمية وثقافة الســوق، تمت فــي بلادنــا بالاتجاه المتســرع نحــو التعليم

الجامعي الخاص، أما في الغرب فما زال هذا الاتجاه يمارس بكثير من التحفظ والحذر. لأن الجامعات الخاصة، التي يمولها المستثمرون عادة، يحركها حافز الربح السريع، وليس حافز التطور العلمي والأكاديمي. حتى أن الجامعات ذات المستوى الأكاديمي المحترم في الولايات المتحدة ما زالت محصورة في الجامعات الحكومية، أو الجامعات الخاصة الممولة من جمعيات أهلية لا تتوخى الربح، وليس من شركات استثمارية. أما في الوطن العربي فنرى أن عنصر الاستثمار المالي، هو الذي يقف وراء معظم، بل جميع الجامعات الخاصة الجديدة، حتى أن بعض رخص هذه الجامعات مُنِح لشركات تجارية، ليس لها من أغراض معلنة سوى السعي إلى استثمار أقل وأرباح أكثر.

ضياع المقاييس بين معاهد التعليم العالي والجامعات

ويزيد من تدني المستوى الأكاديمي للتعليم العالي الخاص المتكاثر في جميع أرجاء الوطن العربي، ذلك الخلط بين معاهد التعليم العالي والجامعات، حيث لا نجد رقابة صارمة على السهولة التي يتم بها تحويل عدد من المعاهد ذات المواصفات غير الجامعية بالمعايير الأكاديمية، إلى جامعات، من غير أي استحقاق مبرر يرفع المستوى الأكاديمي لتلك المعاهد. وبما أن هذه المعاهد تغري الطلاب بأقساط مخفضة، مقارنة بأقساط الجامعات، وتتساهل كثيراً في معدل درجات الشهادة الثانوية التي تتيح للطالب دخول الجامعة أو المعهد، فإن أعداداً وفيرة من الطلبة أصبحت تتحول إلى هذه المعاهد، مع اتجاه واضح لمزيد من التدهور في المستوى الأكاديمي لآلاف الطلاب المتخرجين فيها.

بل إن الظاهرة السائدة في هذا المجال، أن كثيراً من الجامعات الخاصة تبدأ عملها من دون ترخيص رسمي، وكذلك تفعل بعض معاهد التعليم العالي، التي يقرر بعضها التحول إلى «جامعة» بلا ترخيص أيضاً. لكن عدداً وافراً من جامعات الأمر الواقع هذه، ما تلبث أن تمنح الترخيص، بحكم الاستمرار، أو بفعل الأمر الواقع، أو بأساليب أخرى.

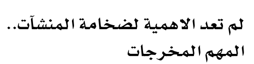
ولو تجاوزنا كل هذه السلبيات، وحاولنا التركيز على الحصيلة العلمية لهذه الظاهرة، فإننا نجد أن المبرر الأساس المعلن للتوجه نحو إنشاء الجامعات الخاصة، هو أنها قادرة (كما أسلفنا) على تجاوز بيروقراطية التعليم الجامعي الحكومي، والتطور باتجاه تخصصات جديدة، غير موجودة في مناهج الجامعات الحكومية.

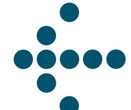
ولكن الذي يتم عملياً هو أن الجامعات الخاصة تختار تخصصات فروعها، وفقاً لمعايير الربح والخسارة، فلا تنشئ كليات لدراسة التخصصات الناقصة في الجامعات الحكومية، بل تلك الأقل كلفة استثمارية، والأعلى ربحية. وهذه كلها، تخصصات موجودة عادة في كليات الجامعات الحكومية، كالعلوم الإنسانية.

كذلك، فإننا نرى الجامعات الخاصة، لا تحقِّق في المدى الطويل تقدماً في تطور مستوى الأساتذة الجامعيين، لأنها لا تنفق على إرسال بعثات إلى الخارج، لرفع مستوى طاقم التدريس. بل تعمد، عكس ذلك، إلى خطف الممتازين من أساتذة الجامعات الحكومية، بإغراءات مادية، فتضرب المستوى العام للأساتذة الجامعيين بدلاً من تحسينه.



Corbis


لم تعد الاهمية لضخامة المنشآت.. المهم المخرجات





2 الجامعات الخاصة في البحرين
قطارٌ يجر مقطورات الأسئلة.. وركابٌ بلا تذاكر!

لأن «العشب يبدو دائماً أخضر في جانبه الآخر»، بدت كل مؤسسات التعليم العالي الأجنبية خضراء مزدهرة بورود المعرفة، وابتدأت معها حركات استيراد لفروع تلك الجامعات، ما شكَّل فيما بعد ظاهرة عرفت بالجامعات الخاصة. وبدأ فصل جديد للنقاش حول ما إذا كان التعليم العالي حقاً اجتماعياً أم سلعة ثقافية استهلاكية؟

يقول جون واتربوري، رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت، في مقالة نشرتها جريدة «النهار» في 8 فبراير 2003م: «هناك احترام رفيع في الشرق الأوسط لمؤسسات التعليم العالي الأمريكي التي زُرع عدد منها بنجاح في المنطقة. هذه المؤسسات الأمريكية أنتجت زعماء شرق أوسطيين يستطيع الأمريكيون معهم تحديد المسائل بلغة وعبارات يفهمونها ويحترمونها سواء بسواء». ويضيف «هذه الحماسة للمدارس «الأمريكية» تقف بصلابة أمام الإحباط الذي يحوم حول أنظمة التعليم المحلية البديلة. في الشرق الأوسط اليوم، تشهد مؤسسات التعليم العالي اكتظاظاً وانعدام إنتاجية. إنها مغرقة بالنمو السريع لعدد تلامذة المدارس ومقوضة بالنمو الاقتصادي البطيء».

هل تكفي تكاليف إنشاء جامعة لتبرير ارتفاع أقساطها؟



Magnum

هكذا بدا المشهد عشية دخول الجامعات الأمريكية والغربية للمنطقة، وهو ما شكَّل أرضية خصبة لتزايد عدد الجامعات اطراداً. وبتعبير آخر للأستاذة الجامعية البحرينية منيرة فخرو فقد «تأسس في السنوات الخمس الماضية عدد من الجامعات والمعاهد الخاصة في ظاهرة غير مسبوقة ليس في البحرين وحدها، ولكن في منطقة الخليج كافة، وقد بلغ عددها 25 جامعة ومعهداً. كما وصل عدد الطلبة في قطاع التعليم العالي الخاص إلى حوالي 4500 طالب».

ولكن ظهور هذا الكم من الجامعات طرح مشكلة جودة التعليم والأسعار الباهظة. فالبعض يرى أن بعض الفروع التي افتتحت في الخليج قدَّمت التعليم العالي كسلعة استهلاكية غالية الثمن شأنها شأن العديد من المنتجات الغربية الراقية. ولكن حين يتعلق الأمر بجودة هذا المنتج، فإنه كغيره ساحة يختلط فيها الحابل بالنابل، حتى أن الدكتور عبدالله الحواج، رئيس الجامعة الأهلية وهي أول جامعة خاصة افتتحت في البحرين ولها اتفاقية مع جامعة برونيل البريطانية، يشير إلى «وجود جامعات تجارية تبيع الشهادة لمن يدفع لأجل ذلك». وهي ظاهرة استدعت البحث وأثارت جدلاً واسعاً لدى الشارع البحريني.

بين الجودة والربحية

وكانت جمعية الجامعيين البحرينية قدَّمت في العام المنصرم حلقة حوارية بعنوان «الجامعات الخاصة.. بين الجودة والربحية» تحدث فيها كل من رئيس الشؤون الثقافية والملحقيات بوزارة التربية والتعليم البحرينية د. عبدالمجيد مفيز ورئيس الجامعة الأهلية د. عبدالله الحواج. وقد أشار الدكتور عبدالمجيد إلى أن «من أهم المعايير المعتمدة من قبل الوزارة لمنح التراخيص للجامعات الخاصة ارتباطها أكاديمياً بجامعات خارجية عريقة» و «أن الرقابة المتبعة على هذه الجامعات تتمثل في مراقبة جودة هيئات التدريس، والبرامج والساعات المعتمدة بالإضافة إلى شروط قبول الطلبة». في حين انتقد الدكتور عبدالله الحواج «عدم وضوح الآليات والنظم والقوانين التي تعمل في ظلها مؤسسات التعليم العالي في البحرين» وقال معترفاً «نعم، لدينا مصيبة في مجال التعليم العالي، لأن الشروط والمعايير غائبة كما أن القانون صدر متأخراً، ما أدى إلى

استغلال الوضع من قبل بعض الناس ممن لا يؤمنون بأن التعليم الخاص مشروع وطني قبل أن يكون ربحياً» مشيراً إلى أنه و «إن كان هذا التعليم ذاتي التمويل ولكن من الضرورة ألا يكون الربح هاجسه الأول».

الرقابة المتَّبعة على الجامعات الخاصة في البحرين تشمل جودة هيئة التدريس والبرامج والساعات المعتمدة وشروط قبول الطلبة

إذاً هي لعبة شد الحبل بين الجودة والربحية والتي على طالب الجامعات الأجنبية أن يكتب إجابتها في تحصيله العلمي وفي مستقبله المهني.

يبقى القول، إن المستقبل بات يرسم حاجة ملحة إلى تدخل أكثر جدية من المؤسسات المعنية كالأمانات العامة للتعليم العالي وغيرها، يحدد المحطة الأخيرة لقطار الجامعات في وطننا العربي، الذي يجر وراءه قاطرات من الأسئلة الصعبة، وركاباً لا يهتم بعضهم بمعرفة تفاصيل الرحلة. وبينما لا يملك البعض الآخر تذاكر تؤهله لركوب القطار، فإن ركاباً آخرين يسعون إلى الحصول على تذكرة من دون السؤال عن أي تفاصيل أخرى.


Google
الطلاب.. يحصلون على ما يوازي ما يدفعونه

3 الإمارات.. جامعة الغرب لطلاب المنطقة

شكَّل إعلانُ إنشاء «موقع» لجامعة السوربون الفرنسية العريقة في أبوظبي مفاجأة، وسلَّط الضوء على التعليم العالي في الإمارات العربية، الخاص منه تحديداً، علماً بأن المؤسسة الباريسية التربوية هذه ليست الأولى التي تقصد الإمارات وتستثمر فيها. فنسبة التعليم في الإمارات مرتفعة نسبياً. وقد قُيد في مؤسسات التعليم العالي الخاص 37358 طالباً وطالبة، في العام 2005م. نحو ثلثهم (12959) من المواطنين الإماراتيين، وما يعادلهم تقريباً (10132) من دول الخليج. أما الطلاب الباقون (9582) فمن الدول الأخرى، عرباً وأجانب.

تستند هذه الإحصاءات إلى الملفات الرسمية لمؤسسات التعليم العالي التي تراقبها الوزارة، بينما لا يتوقف الحديث، لاسيما في المناسبات التربوية والاجتماعية، عن الأعداد الهائلة من الإماراتيين والإماراتيات خريجي وخريجات المدارس الثانوية الذين ينتظرون أن يُفتح أمامهم «باب الفرج» وينتسبوا إلى هذه الجامعة أو تلك.

سياحة تعليمية، من يقدر عليها؟

تضم الإمارات وافدين من جنسيات مختلفة، ومع الوقت، منذ بدايات الطفرة النفطية، في سبعينيات القرن الماضي، تغيرت الأدوار والحياة عموماً. فالدولة تسعى اليوم إلى استقطاب فئات إضافية (غير اليد العاملة) من الخارج للوفود إليها والإقامة فيها، كالطلاب مثلاً، وتعمل لتشكِّل مكاناً وسطياً بين العالم المتقدم والمنطقة. وهذا ما يسميه الدكتور علي قاسم الشعيبي (اختصاصي في علم الاجتماع) «السياحة التعليمية». ونظريتها «تحويل الإمارات إلى حاضنة حقيقية للجامعات العريقة عالمياً.

ولكن ارتفاع كلفة المعيشة يغدو عبئاً معيقاً للاستراتيجية الجديدة التي تهدف، من ضمن ما تهدف، إلى تحويل الإمارات إلى جامعة العرب، كما هي بيروت مصرف العرب أو مستشفاهم.

فهناك أُسر محدودة الدخل تقيم في الإمارات وافدةً من دول المنطقة تعجز عن تغطية نفقات انتساب ابن أو أكثر إلى إحدى مؤسسات التعليم العالي في الدولة، وقد بات عددها أربعين بعد الترخيص لثمانٍ في العام 2006م وحده. «فالجامعات هي نفسها من يحدد الرسوم، والأمر خاضع للعرض والطلب»، بحسب مدير إدارة البرامج التعليمية ومعادلة الشهادات في وزارة التعليم العالي، سيف راشد المزروعي. وإذ لا ينفي المزروعي أن تلك المؤسسات ربحية يجزم أن «الربحية لا تطغى عليها. فهي تضع في خططها أنها في السنوات الأولى من عملها لن تكسب. وهناك مؤسسات تعمل منذ ثماني سنوات ولم تغطِ تكاليفها».



المسوغ نفسه تكرره دانية بزي، مديرة العلاقات الخارجية في الجامعة الأمريكية في دبي، التي تؤكد أن «التكلفة والخدمة هما المعياران الرئيسان في عملية تحديد الرسوم». ولا تخفي بزي أن كون الجامعة أمريكية ومعترفاً بها من الولايات الأمريكية الجنوبية ودولة الإمارات، يشكِّل امتيازاً. وتستدرك: «هذا إذا كنا أغلى من غيرنا. فالأمر ليس مؤكداً».

60 ألف درهم كلفة تدريس الطالب في سوربون أبوظبي، أما أقساط التلامذة فأقل نظراً لكون الجامعة مدعومة

إذاً، الرسوم ليست أمراً عابراً بسيطاً، بالنسبة إلى استراتيجية الإمارات وإلى المؤسسات والطالب وأسرته أيضاً. إنها معطى سوقي، في بلد تسهِّل فيه المصارفُ الحصولَ على قروض، وتتعامل فيه مؤسسات التعليم عبر «ماستر كارد» و «فيزا كارد».

جسر بين الحضارات: السوربون مثالاً

إن ما تقدم يفسِّر اختلاف الرسوم بين مؤسسة وأخرى، حتى في الاختصاص الواحد. فبينما تبلغ كلفة السنة الدراسية (وأجور السكن) في كلية الإعلام بأمريكية دبي 30 ألف درهم (نحو 8 آلاف دولار أمريكي)، تشير الدراسات التمهيدية التي سبقت إنشاء جامعة السوربون في أبوظبي إلى أن كلفة الطالب في الأقسام الاعتيادية (الأدب الفرنسي، لغات وحضارات وآداب أجنبية، تاريخ الفن وعلم الآثار، الفلسفة وعلم الاجتماع، إلخ...) هي 60 ألف درهم (نحو 16 ألف دولار). لكنها لم تعتمد هذا الرقم كرسم على الطالب تسديده، وإنما تعتمد على مساعدات الدولة لتسديد العجز الناتج من كون «الرسوم أدنى من الكلفة»، بحسب المدير العام لموقعها في أبوظبي، دانيال أوليفييه.

ولعل اللبيب من الإشارة يفهم. فالسوربون أبوظبي المملوكة بالكامل لمجلس أبوظبي للتعليم والتي ترفع شعار «جسرٌ بين الحضارات» تقدِّم الأبعاد الثقافية والتعليمية والإنسانية على البعد المادي الربحي. يتضح ذلك أكثر إذا عُرِفَ أن هذا الصرح الذي رُصد له 367 مليون درهم ويُتوقع أن يستقبل 1500 طالب، بلغ عدد الطلاب المنتسبين إليه في عامه الافتتاحي 169 طالباً من بينهم 66 إماراتياً. وهناك من أُعفي من الرسوم، نظراً لظروفه الاجتماعية، بشكل جزئي أو كلي، ودائماً مع شرط تحصيل درجات عالية.

وإذا كانت السوربون، باختصاصاتها الأدبية والفنية والإنسانية، «إضافة نوعية»، بحسب تعبير ولي عهد أبوظبي الشيخ محمد بن زايد، نظراً إلى تاريخها وعراقتها، ما يجعل الطلاب ينتسبون إليها «بدافع سمعتها العالية وبهدف تلقي تدريس رفيع المستوى ونيل شهادة محترمة»، كما يفصح طلابها، فإن المؤسسات الأخرى، الأقل شهرة، مضطرة إلى تلبية حاجات السوق في الاختصاصات التي توفرها. فالسوق تميل إلى الهندسة على أنواعها، وإلى الإعلام والاتصال وتقنيات المعلومات والتسويق وإدارة الأعمال.. واللغة الإنجليزية. وإن دلَّ ذلك فإنما يدل على أن المزاج الذي يحكم هذه السوق هو «العمل». فالوافدون الذين يشكِّلون نحو ثلث سوق التعليم العالي تراهم بكثافة في اختصاصات «لها حاضر ومستقبل»، كما يعبِّرون.

الخريجات = الخريجون × 2

يعتقد كثيرون بألاَّ حياة جامعية في مؤسسات التعليم العالي بالإمارات، كون الطلاب من هنا وهناك (طلاب أمريكية دبي الـ 2650 من ثمانين جنسية، أما طلاب السوربون الـ 169 فمن 28 جنسية، وهكذا). هذا ما لا ينفيه الطلاب



الجامعة الأمريكية في الشارقة

أنفسهم. فهؤلاء أبناء بيئاتهم الوطنية والأسرية في الدرجة الأولى، والجامعة في الإمارات بالنسبة إليهم وإلى أهلهم امتداد للمدرسة وتحصيل العلم. لذا، يفضِّل الكثيرُ من الشباب (الذكور) السفر لمتابعة الدراسة في بلد أوروبي أو أمريكي، وهذا ما يؤثر في نسبة الذكور المنتسبين إلى الجامعات. ففي العام الدراسي 2002/2003م بلغ عدد الخريجات (7826) ضعفي الخريجين (3099)، بحسب مشروع «تعداد» ووزارة الاقتصاد.

الحياة الجامعية تعتمد على الخارج

يسهم ذلك في صوغ الحياة الجامعية التي نادراً ما تجد «مكاناً». فالمؤسسات التعليمية الخاصة لا تملك كلها مباني جامعية متعددة المرافق وكاملة المواصفات، وغالبيتها تشغل أبنية سكنية أو تجارية بلا مساحات مشتركة وما إلى ذلك.

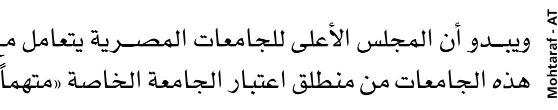
عليه، تتقلص المساحة الاجتماعية، حتى في جامعة مثل أمريكية دبي، حيث يبلغ عدد الطلاب 2650 (منهم 700 جديد وتخرج فيها العام الفائت 350)، النشاطات الطلابية فيها محدودة، على الرغم من وجود أكثر من نادٍ فيها (النادي الخليجي، الإسلامي، والطلاب الأمريكيون). وإذا كانت حفلة السيدة فيروز في مسرح الجامعة قد جمعت ألف مستمع، فإن معظمهم من خارج الجامعة، كما أنها من تنظيم جمعية إنسانية من خارج الجامعة أيضاً. أما أن تشهد إحدى الندوات داخل الجامعة وفي حضور إدارتها ومعظم طلابها حواراً سياسياً متعدد اللون، فالسبب يعود إلى كون ضيفها هو الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون الذي زارها بين عامي 2002 و2006م أربع مرات. فالمحاضر جذاب، وغالبية الحضور من العرب.

4 في مصر: مهام تعليمية ومقاربات ثقافية واقتصاديات سوق عالمية

حتى الأمس القريب كان التعليم العالي في مصر يعني حفنة من الجامعات الرسمية بالإضافة إلى الجامعة الأمريكية في القاهرة وهي الجامعة الأجنبية الوحيدة على أرض مصر، وإن كانت من أقدم الجامعات المقامة على الأرض المصرية، وتحديداً منذ العام 1908م حين تم افتتاحها كأول جامعة أهلية واسمها «الجامعة المصرية».

لا جامعات أجنبية في مصر!؟

ويتخوف البعض من وجود مثل هذه الجامعات التي تحمل أسماء دول أغلبها أوروبي، فهناك شكوك في أن تحدث هذه الجامعات فجوة ثقافية بين طلابها وطلاب الجامعات الرسمية والذين ما زالوا يشكِّلون الأغلبية العددية. يقول السيد فاروق محمد عبدالرحمن وكيل وزارة التعليم العالي ورئيس الإدارة المركزية للجامعات الخاصة إنه لا توجد في مصر جامعات أجنبية -باستثناء الجامعة الأمريكية- وإن الجامعات التي تحمل أسماء دول أوروبية جاءت نتيجة اتفاقات تعاون بين دول أو هيئات تعليمية وجامعات أجنبية وبين جامعات مصرية، وحسبما تكون الدولة الموقعة للاتفاق تكون التسمية. ويشير عبدالرحمن إلى أن هذه الجامعات تعرض لوائحها على المجلس الأعلى للجامعات مؤكداً على وجود لجانٍ علمية متخصصة من أساتذة مصريين تقر المناهج التي تدرَّس فيها لتتوافق والقوانين المصرية.

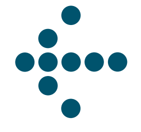


ويبدو أن المجلس الأعلى للجامعات المصرية يتعامل مع هذه الجامعات من منطلق اعتبار الجامعة الخاصة «متهماً» إلى أن يثبت عكس ذلك. فالمجلس يتدخل في تحديد أعداد الطلاب المقبولين في كليات هذه الجامعات كل عام والحد الأدنى للقبول، كما يقوم مسؤولو المجلس بجولات تفقدية تفتيشية للتأكد من جودة المباني والقاعات والمقومات البشرية من أعضاء هيئة تدريس وموظفين وغيرهم.

الجامعات أجنبية أما المدرسون فمصريون

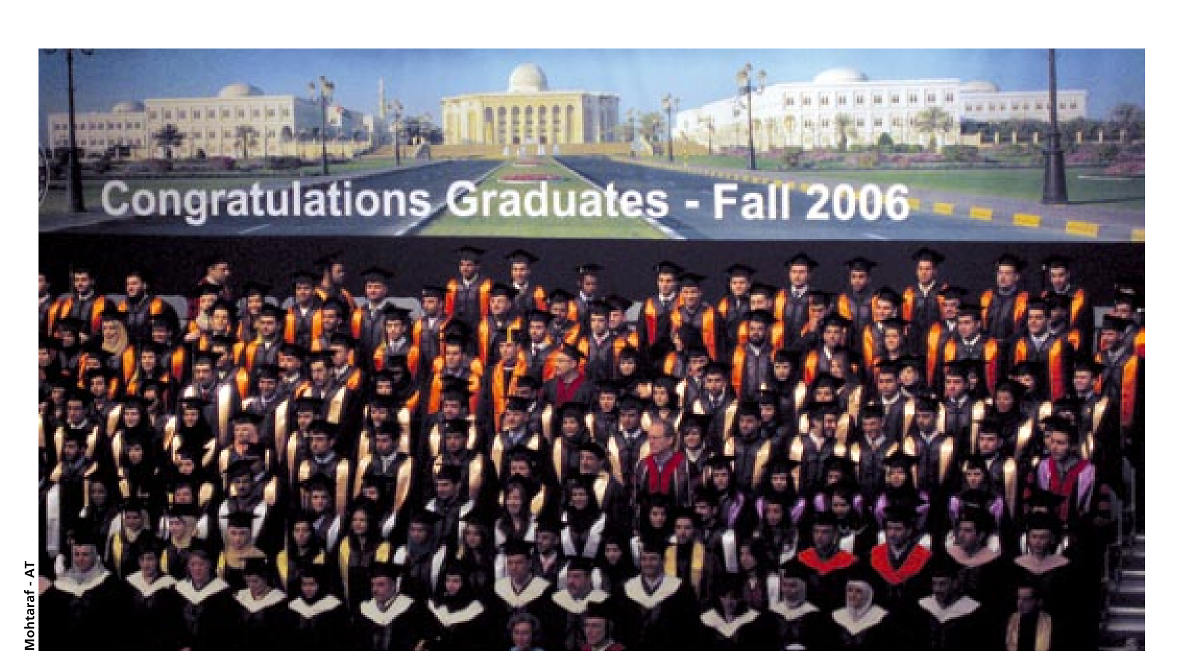
لكن ماذا عن أعضاء هيئة التدريس من الأجانب؟ نظرة سريعة إلى السير الذاتية لعدد من أساتذة تلك الجامعات في مصر مثل «البريطانية في مصر» و«الفرنسية» و«الألمانية» و«الكندية» تشير إلى أن الغالبية العظمى من أعضاء هيئات التدريس فيها هم من المصريين، بل إن بعضهم آتٍ من كليات الجامعات الرسمية إما للعمل الإضافي أو بعد تقديم استقالته من «عمله الحكومي». والغريب أن عدداً من تلك الجامعات يتباهى بأن نسبة أعضاء هيئة التدريس من الأجانب لديه مرتفعة، لكن كثيرين في واقع الأمر يعتبرون الأساتذة المصريين من حاملي الجنسيات الأجنبية أجانب وليسوا مصريين. حتى الأساتذة الأجانب من المواطنين الأصليين للدولة التي تحمل الجامعة الأجنبية اسمها، فإن نسبة كبيرة منهم ينتمون إلى جامعات مغمورة أو لم يسمع عنها أحد.

بين الإفادة والهيمنة الثقافية



يؤكد المهندس مجدي القاضي، رئيس الكلية الكندية، أن التعليم الكندي مختلف كل الاختلاف عن نظم التعليم

Mohtaraf - AT



Mohtaraf - AT

خريجو الجامعات الخاصة..
متفائلون أكثر من غيرهم أمام باب سوق العمل

الأخرى، إذ يهدف إلى بناء شخصية الطالب وتقديم المناهج ذات الصلة المباشرة بسوق العمل. وهو ينفي تماماً أية شبهة لمخاوف السيطرة الثقافية ويقول: «على كل إنسان أن يستفيد من الثقافات الأخرى ويفيد الآخرين، ولكل ثقافة إيجابياتها وسلبياتها، فنأخذ ما يناسبنا ونترك جانباً ما لا يصلح. ويبرهن على كلامه بما حدث في حرم الكلية الكندية إذ صمم مبانيها مهندس كندي وجعل صالة الرياضة (جيمنازيوم) مشتركة للجنسين، وهو ما رفضته إدارة الكلية وحددت أياماً للشباب وأخرى للشابات وذلك من دون تدخل كندي.

> «كل إنسان يستفيد من الثقافات الأخرى ويفيد الآخرين فنأخذ ما يناسبنا ونترك جانباً ما لا يصلح»

إلا أن أستاذ إدارة الأعمال في الكلية نفسها الدكتور أحمد عبدالعظيم لا ينفي مسألة السيطرة والهيمنة الثقافية ويقول: «الطالب الذي يتلقى تعليمه في جامعة أجنبية ثم يتخرج ويتقلد مناصب مهمة في بلده سيحمل حتماً في داخله قيماً ومبادئ تعلمها في الجامعة الأجنبية التي درس فيها ويحاول تطبيقها».

لأبناء الميسورين فقط

ورغم القانون 101 لسنة 1992م الخاص بتنظيم الجامعات الخاصة في مصر، الذي ينص على عدم استهدافها الربح، ورغم تأكيد الغالبية العظمى من مسؤولي تلك الجامعات على أنها لا تهدف إلى الربح، وأن هدفها الرئيس هو «بناء طالب بعقلية وإمكانات تواكب الألفية الثالثة»، أو «تمكين العقلية الليبرالية من الأخذ بزمام الأمور»، أو حتى مجرد «تخريج طلاب مناسبين لاحتياجات سوق العمل»، إلا أن مصروفات تلك الجامعات لا تتيح إلا لأبناء الطبقة بالغة الثراء الالتحاق بها.

وهنا يقول وكيل وزارة التعليم العالي ورئيس الإدارة المركزية للجامعات الخاصة: إن الوزارة لا تتدخل من قريب أو بعيد في مسألة المصروفات، «فهي خدمة تقدمها الجامعة للطالب وله أن يقبلها أو يرفضها، وإن كانت الوزارة تناشد دائماً هذه الجامعات عدم المغالاة في المصروفات».

جامعات عربية في الغرب؟

وماذا عن إمكانية إنشاء جامعة مصرية أو عربية في إحدى الدول الأوروبية أو تلك المهتمة بتأسيس جامعات تحمل اسمها في المنطقة؟ وزير التعليم العالي الدكتور هاني هلال يرى وجود جامعة مصرية في دولة غربية أمراً وارداً، إذا كانت الدولة الأجنبية ترغب في ذلك وترى أنها تفتقد مجالاً أو مجالات معينة في إمكان الجامعة المصرية أو العربية القيام بها.

ويشير هلال إلى وجود فروع عدة لجامعات مصرية في دول عربية «وهذا في حد ذاته أمر جيد». وهو رأي مشابه للدكتور علي عبدالرحمن رئيس جامعة القاهرة الذي يرى الفكرة ممكنةً، لا سيما في التخصصات الأدبية والنظرية والعلوم الإسلامية والإنسانية ويقول: «هذه نقاط قوتنا العلمية وفي إمكاننا استثمارها من خلال جامعة مصرية أو عربية في الخارج، لا سيما أنهم يفتقدون مثل هذه التخصصات. أما التخصصات العلمية فذلك ليس وارداً لأن الغرب متفوق علينا فيها».

وعلى النقيض من ذلك، يرى الدكتور أحمد عبدالعظيم أستاذ الكلية الكندية أن الأمر غير وارد. ويقول: «هذا يكلف مبالغ طائلة، ولا بد أن تكون هناك حاجة حقيقية لمثل هذه الجامعة. كما أن حكومات تلك الدول قد تقبل وقد لا تقبل ذلك».

5 تجربة الجامعة الأمريكية في بيروت تتحدث



استكمالاً لجوانب هذه القضية، وسعياً إلى رسم صورة بانورامية جامعة لأبرز فصولها، التقت القافلة بالدكتور وضاح نصر، أستاذ الفلسفة ووكيل الشؤون الأكاديمية المشارك في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان لنا معه الحوار الآتي:



• ما الدور الذي تلعبه وتحتله الجامعات الأجنبية في بلداننا العربية؟

○ د. نصر: يختلف وضع الجامعات الأجنبية المنتشرة في دولنا العربية من بلد إلى آخر ولعدة أسباب، أهمها تمتع بعض الجامعات الوطنية العربية بمنزلة علمية عالية لا تقل مستوى عن الجامعات الأجنبية الوافدة إلينا من دول مختلفة. لذلك ولتفادي إشكالية سيطرة مؤسسة تعليم عالٍ أجنبية على أخرى وطنية أو عربية، لا بد من توافر الاحترام والتعاون والتكامل والتنافس البنَّاء بينهما للحفاظ على مصلحة التعليم العالي في بلداننا.

وتطبيق مثل هذا المشروع مرتبط بالوضع التعليمي والسياسي والاجتماعي والتربوي السائد في البلدان العربية المختلفة السياسات، وبالالتزام بأداء سلطتها السياسية ومقدراتها المالية المخصصة لتقوية التعليم العالي فيها، ومدى انفتاحها على مختلف التيارات والاتجاهات العالمية.



Saudi Aramco World/BADIA Katerina Thomas

الحياة في الحرم الجامعي.. تجربة تضيف إلى شخصية الطالب وثقافته

• ما أسباب الوفرة من الجامعات الأجنبية في البلدان العربية التي نشهدها اليوم؟

○ هناك سببان أساسيان لذلك. السبب الأول هو بدافع تجاري أو استثماري. إذ يرى بعض الرأسماليين أو المستثمرين من الكادر التعليمي أو من خارجه أن هناك طلباً متزايداً على اختصاصات معينة في التعليم العالي فيتوجهون للاستثمار في هذا المجال..

أما السبب الثاني، فهو وجود دول أو حكومات أو هيئات رسمية عربية، تقدّر قيمة التعليم عموماً والتعليم العالي على وجه الخصوص، وتعتبر أن هناك مؤسسات تعليمية أجنبية باستطاعتها أن تقدِّم مواد علمية متطورة واختصاصات جديدة وفضلى لطلاب بلادها، تساعد في نمو اقتصادها. فتبحث عن مؤسسات تربوية أجنبية لجلبها إلى بلادها. وهذا السبب يشترط فيه توافر المال، نظراً للتكلفة العالية لبناء جامعات أجنبية لا تقل مستوى، من حيث البناء والتجهيزات الأولية والأساسية التعليمية والمختبرات وأدوات البحث العلمي العملية والنظرية عن الجامعة الأصل أو الأم الموجودة في بلد أجنبي، إضافة إلى توافر القناعة بضرورة تفعيل دور التعليم العالي فيها للوصول إلى مكانة أكاديمية رفيعة.

• ماذا عن تجربة الجامعة الأمريكية في بيروت وإسهاماتها في إنشاء الجامعة الأمريكية في الشارقة؟

○ إن دورنا كـ «جامعة أمريكية في بيروت» كان دوراً استشارياً طبعاً، إذ ساعدنا في وضع القانون الأساس للجامعة والبرامج التعليمية والتوزيع الإداري وخطة العمل وطرق التنفيذ وغيرها من الشؤون الإدارية والأكاديمية. و «الجامعة الأمريكية في الشارقة» هي مستقلة تماماً عن «الجامعة الأمريكية في بيروت» وإنما يطبقان نفس منهاج التعليم الأمريكي.

• ماذا يعني افتتاح جامعة أجنبية في دولة عربية في ظل اتساع الهوة الثقافية بين الشرق والغرب؟

○ ليس من السهل نقل فلسفة وروحية التعليم العالي الأجنبي إلى بلد عربي بمجرد توافر التمويل والإرادة لتحقيق هدف تربوي معين. فخطورة استيراد التعليم العالي، تكمن في أنه سلعة مختلفة كلياً عن كل المواد والبضائع الأجنبية التي نستوردها، لأنه يتعلق بالإنسان، أي بوحدة من

التقاليد والعادات والأفكار...، وهو يستهدف جيل الشباب الذين يشكِّلون نواة المجتمع والركيزة الأساس التي سيبنى عليها مستقبل البلاد، وبالتالي ليس من الضروري أن تنتقل الجامعة الأجنبية إلى بلادنا بكل روحيتها وتعاليمها وتقاليدها وخصوصيتها الاجتماعية وإنما يجب أن تلبس قالب وروحية البلد المضيف كي تتأقلم مع قيمه وتقاليده وعاداته..

هناك فجوة بين التعليم الحكومي والخاص، سببها الفروقات الاقتصادية والاجتماعية، وليس الأكاديمية

وما ثبت في أمريكا أن نجاح مؤسسة التعليم العالي مرتبط باستقلاليتها وحريتها الأكاديمية، خصوصاً أن مبدأ «منهاج التعليم العالي الأمريكي» يقوم على تخريج إنسان مثقف يتمتع بالمعرفة العامة لمعظم العلوم وليس متخصصين من أطباء ومهندسين ومحاسبين وغيرهم.

• هل يمكن أن تكون هناك فجوة بين طلاب الجامعات الوطنية والجامعات الأجنبية المنتشرة في بلداننا العربية؟

○ ليس بالضرورة أن تكون هذه الفجوة مبنية على سوية ونوعية التعليم فيهما، وإنما بسبب الفروقات الاقتصادية نتيجة ارتفاع بدل التعليم العالي في بعض الجامعات الأجنبية، مما يفرض وبشكل تلقائي اقتصار طلاب هذه الجامعات على ذوي مستوى اقتصادي واجتماعي معين. من هنا ضرورة دعم التعليم وتقديم المنح في الجامعات الأجنبية بناءً على مبدأ العلم للجميع.

• ما الفرق بين الجامعة الأجنبية في بلادها والجامعة الأجنبية في بلادنا، وهل هذا الانتقال يفقدها روحيتها؟

○ مما لا شك فيه، أن انتقال الجامعة الأجنبية من بلدها إلى بلداننا العربية يفقدها الروحية أو الخصوصية التي تتمتع بها، وإنما تختلف درجة افتقاد الروحية من جامعة إلى أخرى لعدة اعتبارات أهمها، سيطرة العقلية التجارية والكسب المادي على بعض الجامعات، ومن هنا ضرورة مراقبة المستورد لمؤسسات التعليم العالي المستوردة والتنبه لمعايير الجودة التعليمية ومستويات التعليم التي تقدمها تلك المؤسسات تجنباً للغش أو الوقوع في فخ الهوة الثقافية.

• ما الفرق بين الطالب الذي يدرس في الجامعة الأجنبية في دولة أجنبية وبين آخر يدرس في جامعة أجنبية في دولة عربية ؟

○ قد يكون من أبرز حسنات انتقال الطلاب العرب إلى جامعة أجنبية في دولة أجنبية بقصد التحصيل العلمي، هو أنهم يتعرفون على ثقافة جديدة ومختلفة عن ثقافة وطنهم مما يسمح لهم بتوسيع مداركهم الفكرية والثقافية عبر الاختلاط اجتماعياً وفكرياً بأناس من ثقافات مختلفة.

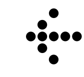


إنما ما يفتقده فعلياً العديد من الجامعات الأجنبية المنتشرة في كافة أنحاء العالم العربي، تلك النشاطات العلمية من أبحاث ودراسات وإحصاءات واختبارات


Saudi Aramco World/BADIA Doughty

مبنى الكوليدج هول في بيروت.. رمز قرن وربع من التعليم الأجنبي في البلاد العربية

ومؤتمرات وندوات وحلقات علم التي تقام باستمرار على هامش المنهاج الدراسي كجزء أساس منه. ومثل هذه الأمور يتعلمها الطالب تشرباً في الجامعة الأجنبية في البلد الأجنبي.



الجامعة الأمريكية في بيروت أول من استقدم فكرة الثقافة العامة إلى جامعات الوطن العربي

• هل هناك منافسة بين الجامعات الأجنبية المنتشرة في العالم العربي؟

○ إن المنافسة بين الجامعات الأجنبية المنتشرة في العالم العربي هي في ازدياد مستمر، خصوصاً مع ازدياد عددها بشكل ملحوظ، وإنما البقاء والاستمرارية لمؤسسات التعليم العالي الأفضل والتي تستطيع أن تثبت مكانتها وأهميتها من حيث نوعية التعليم التي تقدمه وبراعة وتمييز خريجيها في سوق العمل.

فمنذ سنوات، كانت «الجامعة الأمريكية في بيروت» الجامعة الأمريكية شبه الوحيدة في العالم العربي، ومقصد طلاب عرب وأجانب من جنسيات ودول مختلفة لتميزها ولتفردها بتطبيق منهج التعليم الأمريكي، وهو تخريج طالب مثقف ثلث منهاجه التعليمي معلومات عامة من خارج المنهاج التعليمي، قادر على احتلال المراكز المرموقة والتكيف مع المؤسسة التي ينتسب إليها والمجتمع الذي يحيط فيه.

• لِمَ هذا التوجه الأعمى نحو الجامعات الأجنبية من قبل الطلاب والعائلات العربية؟

○ إن نجاح مؤسسة التعليم العالي، هو الذي يزيد من حجم الإقبال عليها من الطلاب وزيادة الثقة فيها من الأهل، ثم هناك الصورة الذهنية للأهل والطلاب عن مؤسسات التعليم العالي الأجنبية. إذ يعتقدون أنهم سيتخرجون ممتلكين مهارات وقدرات علمية عالية تسهل عليهم إمكانية التوظيف والدخول إلى سوق العمل. ثم تأتي حاجة السوق المحلي العربي لمهارات واختصاصات علمية جديدة غير متوافرة في الجامعات الوطنية أو المحلية، تواكب التطور العلمي المتسارع في العالم عموماً، نتيجة ولادة اختصاصات ومهارات جديدة وحديثة خصوصاً في المجالات العلمية والتكنولوجية.

إلى ذلك، هناك صعوبة شروط قوانين الانتساب إلى بعض كليات الجامعات الوطنية ومنها المرتبطة بالحصول على معدلات علمية مرتفعة للانتساب إلى الكليات العلمية، كما هو الحال في المملكة الأردنية الهاشمية، الأمر الذي يشكِّل دافعاً قوياً للطلاب للتوجه نحو الجامعات الأجنبية.

• نشهد اليوم العديد من الجامعات التي تحمل صفة أمريكية، ما فلسفة التعليم الأمريكي؟

○ عندما نسأل ماذا تعني صفة أمريكية «للجامعة الأمريكية في بيروت» نقول وليس نفياً لتهمة، إننا لسنا جامعة أمريكية بالمعنى السياسي أو الأيديولوجي، بل العكس من ذلك تماماً فنحن جامعة كانت ولا تزال منذ تأسيسها قبل 150 عاماً ساحة لعملية نقد مستمر على صعيد الطلاب، إذ أنتجت طلاباً من أقصى اليمين وأقصى اليسار، لأنها تسمح بحرية واستقلالية التفكير والنقد شبه المطلق.

وقد كانت الجامعة الأمريكية في بيروت أول من استقدم فكرة الثقافة العامة إلى جامعات الوطن العربي وذلك انطلاقاً من أن مؤسسة التعليم العالي هي مختبر شامل لتكوين المعرفة وصقل الشخصية، وما يميز التعليم الأمريكي أن السنة الجامعية الأولى ليست سنة اختصاص، إنما سنة تعرف على المواد التعليمية ليستطيع الطالب في السنة التالية تحديد الاختصاص الذي يتناسب وميوله وطموحاته وموهبته أو حاجته.

إذ إن تنشئة المواطن المثقف تفترض إنشاء مواطن قادر على إصدار أحكام، واتخاذ قرارات ويتمتع بقدرة على التواصل وتقديم نفسه للآخر بشكل جيد. وله الجرأة على تكوين الرأي وإبداء الرأي إضافة إلى احترام وتقدير الآخر.



Mohtaraf - AT

قول في مقال

التعليم الإلكتروني.. مكمِّلٌ لا بديل

تعقيباً على قضية «التعلم ولو عن بعد» التي تناولتها «القافلة» في عددها لشهري مارس وأبريل 2006م، تؤكد هنا مرام عبدالرحمن مكاوي، وهي كاتبة سعودية وطالبة دراسات عليا في علوم الحاسبات - التعليم الإلكتروني أن هذا التعليم لا يشكِّل بديلاً يتم الاستغناء به كلياً عن الجامعة التقليدية، ومهما كان مناسباً للاستزادة من المعرفة، فلا ينبغي أن يُطلب لذاته.

لكل عصر صرعاته العلمية والثقافية، وإحدى أهم صرعات عصرنا بلا شك هي الشبكة العنكبوتية. التي نستخدمها عبر الاتصال بشبكة الإنترنت، بكل تطبيقاتها المختلفة في مجالات في الثقافة، والإعلام، والترفيه، والصحة، والخدمات الحكومية. ويأتي المجال التعليمي في قمة المجالات التي تحظى باهتمام كبير في الوقت الراهن، في الدول المتقدمة ودول العالم الثالث على حد سواء. بل ويبدو التنافس كبيراً بين ضفتي الأطلسي، بين دول الاتحاد الأوروبي، ودول أمريكا الشمالية في هذا المجال. فالأوروبيون يخشون من الهيمنة الأمريكية على مجال التعليم الإلكتروني، وسيطرة الشركات التجارية عليه، كما سيطرت على الإنترنت برأيهم، ويرغبون في أن تكون لهم كلمة في الأسس التي يقوم عليها هذا النوع من التعليم. ولذلك قاموا بإنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات والمجموعات البحثية التي تجري الأبحاث في مجال التعليم الإلكتروني، وأنفقوا عليها بسخاء.

ظهر التعليم الإلكتروني المتصل بشبكة الإنترنت بوجه خاص، استجابة للتغيرات الاجتماعية والثقافية في عصر العولمة. فالحواجز التي أزالتها شبكة الإنترنت، فتحت للمرء آفاقاً جديدة ومكنته من الوصول إلى مصادر مختلفة للمعرفة وهو جالس في بيته أو مكتبه. وأصبح بإمكانه إلى حد كبير التغلب على العوائق المحلية، مثل نقص المصادر العلمية، أو قلة المتاح منها للجمهور، أو صعوبة التنقل (كما هو الحال بالنسبة للمرأة مثلاً)، أو عدم وجود عدد كاف من المقاعد الجامعية. كما أنه بالنسبةً للعاملين بدوام كامل، أعطتهم فرصة لكي يواصلوا تطوير قدراتهم وهم على رأس العمل، وهو أمر ضروري في عصر التطورات المتلاحقة. إذ إن كثيراً مما تعلمناه في المدرسة والجامعة، سيصبح منتهي الصلاحية وبحاجة إلى تجديد في فترة قصيرة، خاصة في مجالات بعينها مثل تقنية المعلومات.

آفاقه كبيرة، ولكنه ليس حلاً سحرياً

والتعليم الإلكتروني نوعٌ من أنواع التعليم المختلفة التي عرفتها البشرية عبر تاريخها، ولكن يخطئ من يظن أنه الحل السحري لكل المشكلات التعليمية. بل إنه (من ناحية المنهج والمحتوى وطريقة التدريس) يعاني السلبيات ذاتها التي يعانيها التعليم التقليدي. فإذا كان المنهج الدراسي في أساسه متخلفاً عن الركب العلمي، أو مشوشاً وغير مكتمل، فإن نسخ هذه المعلومات ولصقها على الشبكة العنكبوتية لن يقدِّم لنا تعليماً أفضل.

وقد تنبه الباحثون في مجال التعليم الإلكتروني، إلى أن مجرد توفير المادة العلمية على الشبكة، بالطريقة ذاتها التي تعرض بها في كتاب مطبوع، لا يعد فتحاً علمياً، ولا يؤدي إلى استغلال أمثل للطاقات الهائلة الكامنة التي تتيحها الشبكة. ولذلك

أصبح التركيز على جعل هذا التعليم أكثر فائدة ومتعة في آنٍ، وذلك عن طريق التعليم باستخدام الوسائط المتعددة مثل الصوت والصورة والحركة (ملفات الفلاش)، والتعليم التفاعلي (Interactive Learning).

كما تدور الأبحاث في الوقت الراهن حول التعليم المتكيف (Adaptive Learning). وهو نوع من التعليم مصمم للتكيف مع قدرات الطالب الفرد (مثل كونه مبتدئاً، متوسطاً، أو متقدماً)، أو مجموعة بعينها من الطلاب، (مثل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة)، أو استجابة للصفات المميزة للطالبة، أو للطريقة التي يرغب في أن يتعلم بها الطالب. مثلاً هناك نوعية من الطلبة تستوعب أكثر عن طريق قراءة النصوص ورؤية الأمثلة، وآخرون يفضلون شرحاً مبنياً على الصور والصوت والعرض التفاعلي. ويتم ذلك عن طريق تجميع معلومات عن الطالب (بطرق مختلفة)، وحفظها في ملف خاص، ويتم عرض المادة العلمية وفقاً للمعلومات في هذا الملف الذي يجري تحديثه بشكل دوري. وهكذا يمكن أن يدرس المادة نفسها طالبان، لكن تقدم المعلومة لكل منهما بطريقة مختلفة. وهنا تبرز أهمية التعليم الإلكتروني، حين يقدِّم لنا شيئاً أفضل لا يستطيع التعليم التقليدي أن يجاريه، فالمعلم لا يستطيع أن يشرح الدرس بطريقتين مختلفتين كلياً في الوقت ذاته، بينما العكس صحيح بالنسبة لنظيره الإلكتروني. ولكن لا يزال هذا النوع من التعليم محدود الفائدة، بسبب الكلفة العالية لإنتاج محتوى بهذه الطريقة.

التعليم ليس مجرد معلومات

والآن هل التعليم الإلكتروني بديلٌ للتعليم التقليدي، وهل هو مناسبٌ للجميع؟

الجواب بالنسبة لي كباحثة في هذا المجال، هو: لا، إذا كنا نتحدث عن تعليم إلكتروني بالمطلق (وليس كوسيلة مكملة لشرح الأستاذ)، وإذا كنا نتحدث عن طلبة المدارس والجامعات.

فالتعليم ليس مجرد مادة علمية تسكب في عقول الطلبة، بل هي معايشة يومية، واحتكاك بالأتراب والمعلمين، وتكيف مع الجو التعليمي بشكل عام. وبالرغم من وجود تقنيات الدردشة، والمدونات، والمنتديات الإلكترونية، والتي يمكن أن تسهم بشكل جيد في عملية تبادل الخبرات والمعلومات، إلا أنها لا يمكن أن تكون بديلاً كاملاً عن الحضور لقاعات الدراسة. خاصة إذا كنا نتحدث عن التعليم الأساسي، ونسبة كبيرة من التعليم الجامعي لمرحلة البكالوريوس، بينما تبدو أكثر مناسبة لطلاب الدراسات العليا.

فالعامل الأهم في التعليم الذي لا يقوم على الحضور والانتظام في صف دراسي، هو أن نجاحه يعتمد بشكل أساس على الدافع الذاتي للتعلم، والخاص بكل طالب على حدة. فالطالب القادر على تنظيم وقته، والطالبة التي لديها رغبة داخلية هائلة للتعلم بأي ثمن، قد يجدان التعليم الإلكتروني مفيداً للغاية. وهذه غالباً صفات تتواجد في الطلبة الأكبر سناً، كطلبة الدراسات العليا، وكالمتدربين وهم على رأس العمل، وهذا الأخير يعرف بالتعليم المستمر مدى الحياة (Life Long Learning). بينما قد يصعب على طالب الثانوية العامة مثلاً أن يقاوم اللعب بالكرة، مقابل الجلوس وحيداً أمام الشاشة كل يوم ليفهم معضلة رياضية أو تجربة كيميائية وحده ودون وجود معلم، ومبدأ ثواب وعقاب، ومشاركة زملائه من حوله.

ويأتي السؤال من الجمهور، إذن هل نقدم على هذا النوع من التعليم أم لا؟ بالنسبة للطالب أو الطالبة، فقرار اللجوء إلى هذا النوع من التعليم بشكل كامل للحصول على درجة علمية وليس فقط دراسة دورات قصيرة، يجب أن يُبنى على عدم وجود بدائل أخرى تقليدية لدراسة هذا المنهج بعينه، أو للدراسة عموماً. ويفضَّل أن يكون لدى مقدم هذا النوع من التعليم، وجود فيزيائي على أرض الواقع، لأنه أكثر مصداقية. وإذا كانت الجامعة أو المؤسسة التعليمية توفر أيضاً مكاتب محلية، حتى لو اقتصر الحضور إليها مرة واحدة خلال فترة الدراسة لأداء الامتحانات مثلاً، فهذا يجعلها بلا شك أفضل بكثير من المنهج الآخر الذي هو بأكمله على الإنترنت، إذا كان مستوى المادة العلمية متقارباً.

ولذلك لا يجب على الحكومات أن تنظر إلى التعليم الإلكتروني على أنه بديلٌ عن إنشاء الجامعات، وتوفير المقاعد الدراسية للطلبة والطالبات. فالتعليم الإلكتروني الجيد، والذي تمت صياغة أدواته ومحتوياته بالتعاون بين التربويين ومختصي علوم الحاسبات جنباً إلى جنب، له فوائد كثيرة، ويفتح آفاقاً جديدة للمتعلم. إلا أنه يجب أن ينظر إليه كرافد من روافد المعرفة الحديثة، وعلى أنه مكملٌ لشرح الأستاذ، وللمصادر العلمية المتوافرة في المكتبات، لا كبديل كلي يتم الاستغناء به كلياً عن الجامعة التقليدية. وهو مناسب للاستزادة من المعرفة، خصوصاً للشخص البالغ، الذي أنهى تعليمه الجامعي، ولدراسة تخصصات بعينها يناسبها هذا التعليم، وله مستقبل واعدٌ في مجال التدريب، لكن لا ينبغي أن يطلب لذاته، بل للقيمة المعرفية الجديدة التي يمكن أن يقدِّمها.

صناعة الترفيه والتسلية

تسويقها ذكي وثقافة مواجهتها غائبة

شهد العامان الماضيان تحولاً تاريخياً في صناعة الترفيه عندما فاق حجم صناعة ألعاب الفيديو ولأول مرة حجم صناعة السينما. الأمر الذي لا يكشف فقط عن تضخم هائل في صناعة التسلية والترفيه التي باتت تقاس في الكثير من فروعها ومشتقاتها وشركاتها بعشرات بلايين الدولارات، بل أيضاً بتحول جذري في نوعيتها.

الدكتور المعز بن مسعود* يسلِّط الضوء على ما آل إليه اليوم عالم التسلية والترفيه بصناعته العالمية، معرِّجاً على ما تستهلكه البلدان العربية من منتجاته، وحقيقة الوضع الذي لا يؤرِّق بال الكثيرين من الذين يغمضون أعينهم عنه.

*أستاذ الإعلام والإعلان والاتصال التسويقي بالجامعة التونسية

لم يعد استخدام منتجات الترفيه والتسلية حكراً على البلدان الغنية أو المتقدمة، بل غزت تلك المنتجات كل البلدان بما فيها البلدان النامية التي اضطرت إلى إعادة تأطيرها الذهني والمعنوي لعالم أصبح يعرف بعالم التكنولوجيا والوسائط المتعددة، وينتج من وسائل الاتصال والتواصل ما يتجاوز قدرة العقل أحياناً على الاستيعاب. «فالوسائط المتعددة تنتج اليوم ما يمكن اعتباره شكلاً رقمياً للحواس الإنسانية بصرية كانت أو سمعية أو لغوية أو حركية، تجعل التواصل في الفضاء الافتراضي ممكناً وممتعاً لدرجة أنه في كثير من الأحيان يحل محل الحيز الواقعي، ما يعني أنه لا يؤثر على صورتنا عن العالم فحسب بل يؤثر على تصورنا عن ذواتنا وعن الآخرين».

ويعتبر الأوروبيون والأمريكيون -سادة الترفيه منذ أكثر من ثمانية عقود مضت- الأكثر إنفاقاً في هذا المجال. فالولايات المتحدة الأمريكية بمفردها تشغِّل أكثر من «ثلاثة ملايين شخص في صناعة الترفيه والتسلية وتنفق 60 بليون دولار في هذه الصناعة. بينما ينفق المواطن الأمريكي ما يقرب من الـ 7 بلايين دولار في ألعاب الكمبيوتر سنوياً وتباع من أجهزة الألعاب ما يفوق 225 مليون جهاز».

أما عربياً، فيقدر حجم سوق الترفيه والتسلية بأكثر من 10 مليارات دولار في السنة، وهو رقم مرشح للتصاعد بحسب تقرير نشرته «برايسواتر هاوس كوبرز، إل إل بي» لعام 2006م. وفي تحليل لنفس المصدر شمل منطقة أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا جاءت التوقعات بأن يصل حجم العوائد السنوية من الترفيه والتسلية بحلول عام 2009م إلى 4.2 مليار يورو في هذه المناطق.

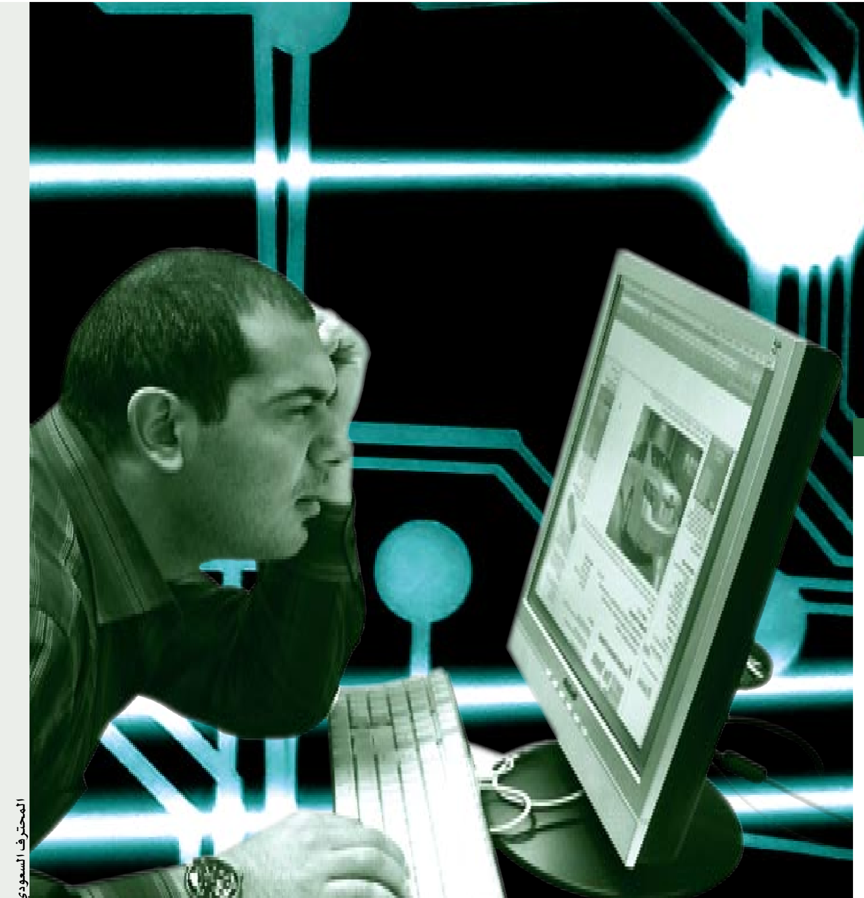
وإذا ما نظرنا إلى صناعة الترفيه والتسلية في معناها الواسع، فسيفاجئنا بالتأكيد عدد المنتجات التي تندرج ضمن هذه الصناعة تزامناً مع التطور اليومي لتكنولوجيات الاتصال: فمن السينما إلى التلفزيون إلى الفيديو إلى الموسيقى إلى الإنترنت..إلخ تتعدد الأشكال الاتصالية، تتطور وتتغير ولكن هدفها واحد: إثارة فضول المستهلك وإشباع رغبة الترفيه والتسلية لديه.

الإنترنت وتسويق «الإدمان»!

كشفت دراسة حديثة أن عدد مستخدمي الإنترنت في العالم بلغ عام 2006م أكثر من مليار شخص منهم 80% من الدول الصناعية. وتتصدر الولايات المتحدة قائمة البلدان الأكثر استخداماً للإنترنت وللحواسيب الشخصية في العالم بمعدل 459 حاسباً آلياً لكل ألف شخص مقابل 35 حاسباً لكل ألف شخص في أوروبا، في حين لا يزيد



المحترف السعودي



المحترف السعودي

أمام الشاشة حتى.. الإرهاق

العـدد علــى 10 حواسـيب لكل ألف شـخص فـي بقية دول العالـم. «عربياً هناك 1.4 جهـاز كمبيوتر لكل مائة مواطن كمعدل عام يشـمل المنطقة العربيـة ككل وهو ما يمثل نحو خمس المعدل العالمي البالغ 7.7».

ويقضـي مسـتخدم الإنترنت في بلدان الشـرق الأوسط 10 ساعات على الشبكة أسبوعياً. وتتمثل أهم الاستخدامات في حجرات الحوارات الحية أو «غرف الشات» (chat rooms)، أو ألعـاب الإنترنـت التـي تماثـل ألعـاب الفيديـو، أو نوادي النقاش أو المنتديات، أو عمليات البحث على الإنترنت... إلـخ. وأصبـح المواطـن في هذه البلـدان ينفق بسـخاء في مجالات متعددة لاسـتخدامات الإنترنـت بعد أن برز العديد من أساليب التسـويق لتلك الاستخدامات بلغت معها علاقة المستخدم بالإنترنت درجة الرغبة التي لا تقاوم.

فقد عمدت بعض المؤسسـات الكبرى في صـناعة الترفيه والتسـلية إلى طرح مجموعة من الألعـاب عبر الإنترنت قد توفر للبعض وسيلة للهروب من الواقع أو البحث عن طريقة لتحقيق احتياجات نفسية يصعب تحقيقها في الواقع.

لقد أوجدت هذه الألعاب وما شـابهها سلوكيات جديدة لدى «مسـتهلكيها»: «ففـي السـابق كان اللاعبون أمـام خيارين لا ثالث لهما، اللعب منفردين ضـد الذكاء الصناعي لجهاز الكمبيوتر، أو الذهاب إلى منزل أحد الأصـدقاء والحصول على مـكان على الأريكـة واللعب مـع أصـدقائهم. أما الآن وبفضل الاتصال بشـبكة الإنترنت وجهاز «بلاي ستيشن 2» أو غير ذلك من الوسـائل، يستطيع اللاعبون الحصول على متعـة الترويح عن أنفسـهم في أي وقت مـن النهار أو الليل وبدون أن يكلفوا أنفسهم عناء أي تنقل.

ومما يؤكد أن المسـتقبل سـيكون للشـبكة هـو توجه بعض المؤسسـات الرائـدة فـي صـناعة الترفيـه والتسـلية إلى استخدام أساليب تسويقية تركِّز على أهمية الجانب التعليمي للإنترنت، على الرغم من أن الدراسـات أكدت أن ما ينفقه مستخدم الإنترنت بهدف البحث عن معلومات تهم دراسته ضـئيل مقارنـة بالاسـتخدامات الأخـرى التي لا صـلة لها بدراسته كالثرثرة في حجرات الحوارات الحية، أو استخدام ألعـاب الإنترنت. كما أكدت دراسـة لمجلـة «USA Today» «عدم وجود علاقة مباشـرة بين معلومات الإنترنت ومناهج المدارسـ، وأن العديد من طلاب المدارس المسـتخدمين للإنترنـت اعترفوا بانخفاض مسـتوى درجاتهـم وغيابهم عن حصصـهم المقررة بالمدرسـة»، نتيجة اسـتخدامهم المفـرط لهذه الوسـيلة مما يطرح تسـاؤلات حـول «القيمة التعليمية للإنترنت».

ألعاب الفيديو: التسويق لتسلية عبر الترويج لشرعية أكاديمية

رغم حداثة عهد ألعاب الفيديو في سـوق التسلية إلا أنه من الواضـح أنهـا في طريقها إلـى احتلال المرتبـة الأولى في صـناعة الترفيه والتسلية كأكبر مصـدر للعائدات المالية. فالعالـم ينفق المليارات علـى ألعاب الفيديو سـنوياً وأكثر ممـا ينفقه أحيانـاً على بطاقات السـينما أو الأسـطوانات الموسـيقية. ويبقى السـوق الأمريكي أكثر الأسـواق إنفاقاً في مجال صـناعة الترفيه والتسـلية بصـافي أرباح متأتية فقـط من مبيعات ألعاب الفيديو بلغ 11 مليار دولار أمريكي عـام 2004م، بالتسـاوي مع سـوق أجهزة الهاتـف الخلوية والأجهزة الرقمية الشخصـية. وقد حققت صناعة السينما عائدات بلغت 9.27 مليار دولار، بينما جاءت الموسيقى والأغانـي فـي المرتبة الأولـى بعائدات وصـلت إلى 12 مليـار دولار سـنة 2004م، فـي حين شـهدت عائدات صـناعة ألعاب الفيديو تفوقاً على كل من السـينما والموسـيقى منـذ بداية عام 2005م، وأصـبحت بالتالـي المحـرك الأسـاس لصـناعة الترفيـه والتسـلية. وأن تتمكـن هذه الصـناعة التي لم

تزدهر إلا في السنوات العشر الأخيرة من التفوق على ما زاد عمره على المئة عام كالموسيقى والسينما، فإن ذلك يعتبر نصراً كبيراً لمجال لم يتوقع انتشاره بهذه السرعة.

ولم تعد ألعاب الفيديو مجرد هواية أو تسلية فحسب، بل باتت مصدراً لهوية اجتماعية ونمط حياة. وقد تطور هذا النمط بصورة غير مسبوقة مع التسابق الحاصل بين كبريات الشركات على تطوير ألعابها وابتكارها على أجهزة أكس بوكس لمايكروسوفت، «وسوني بلاي ستيشن»، و «ننتيندو جيم كيوب» و «جيم بوي آدفانس» المحمولة أو على أجهزة الكمبيوتر المنزلية...إلخ، نظراً لتزايد الإقبال على هذه الصناعة.



لم تعد ألعاب الڤيديو مجرد هواية أو تسلية فحسب، بل باتت مصدراً لهوية اجتماعية ونمط حياة

فقد حطمت إحدى ألعاب شركة مايكروسوفت «Halo2» التي تعمل على جهاز إكس بوكس الرقم القياسي في العائدات المالية التي حققها أي مجال من صناعات التسلية في يوم واحد، «حيث بلغت العائدات المالية في اليوم الأول من إطلاق اللعبة 125 مليون دولار بعد أن تمكنت الشركة من بيع أكثر من 2.38 مليون نسخة خلال مدة لا تتجاوز 24 ساعة من إطلاق اللعبة رسمياً، محطمة بذلك العائدات المالية التي يمكن أن يحققها أي فِلم من أفلام هوليوود في تاريخ صناعة السينما». وتأمل الشركة أن تساعد هذه اللعبة على دعم مكانة منصة الألعاب إكس بوكس في خضم المنافسة الشديدة التي يلاقيها من منصة الألعاب بلاي ستيشن 2 التابع لشركة سوني، بعد أن نجحت هذه الأخيرة في بيع 24.9 مليون وحدة مقابل 9.8 مليون من جهاز إكس بوكس في الولايات المتحدة فقط.

وقد أدت وضعية المنافسة الشديدة هذه إلى تصاعد نسق ظاهرة «الألعاب الخاصة» التي «تحاول فيها الشركات المصنعة لمنصات الألعاب أن تحصر إطلاق الألعاب الشهيرة على جهازها فقط لفترة طويلة دون غيره من المنصات، مما يغري هواة هذه الألعاب بشراء المنصات خصيصاً ليتمكنوا من ممارسة ألعابهم المفضلة.

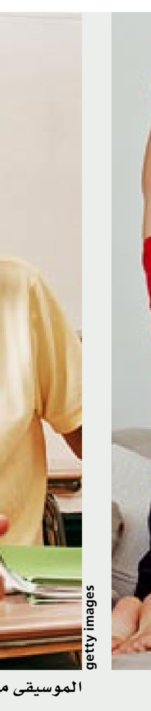
وقد سعت شركة مايكروسوفت من جهتها إلى اتباع طريقة في التسويق تقوم بالأساس على خوض حرب منصات الألعاب، في محاولة منها لحصر جميع الألعاب الشهيرة والمنتظرة على منصة الألعاب إكس بوكس لزيادة مبيعاتها، أو على الأقل دفع شركات الألعاب إلى تطوير نسخة تعمل على جهازها. وتواصل مايكروسوفت جهودها لإجراء المفاوضات مع جميع شركات الألعاب المهمة لتحقيق هذه الغاية رغم فشلها في ذلك مع الشركات المسؤولة عن ألعاب Doom 3 و Half Life 2.

ولتحقق صناعة التسلية مشروعيتها بعد أن اتهمت بالسلبية، سعى روَّاد هذه الصناعة إلى كسب الشرعية الأكاديمية من خلال تشجيعهم القائمين على البحث في هذا المجال. ففي معهد «ديجي بَنْ للتكنولوجيا» -الذي يقع في منطقة ريدموند بالقرب من مقر شركة «ننتيندو أوف أميركا» وفي الشارع نفسه الذي يقع فيه المقر العالمي لشركة مايكروسوفت- يُعدُّ تصميم ألعاب الفيديو أسلوب حياة. «ويقدِّم المعهد الذي تأسس عام 1988م شهادات البكالوريوس والماجستير في محاكاة ألعاب الفيديو، وكذلك شهادة البكالوريوس في تصميم الرسوم المتحركة الثلاثية الأبعاد. كما أن الطلاب الأمريكيين مثلما يتعلمون كيفية تصميم الألعاب، فإنهم يتعلمون كيفية نقدها وتقييمها. فالجامعات من «أم أي تي» إلى «كارنيغي ميلون» تعلِّم الطلاب دراسة عالم الترفيه والتسلية، وتقدِّم مساقات تعالج أعمالاً مثل غزاة الفضاء، كما تتعامل مع أعمال شكسبير، وتطوِّر مناهج دراسية تشمل كل شيء من قيام الطالب بدراسة أساسيات تصميم الألعاب إلى الجنس أو النوع الاجتماعي وسياسات التمثيل السياسي في النظم الديمقراطية...، إلخ». ويفهم من هذا وجود توجه «علمي» يعتبر الألعاب وسيطاً حقيقياً يحظى بالشرعية. و «كلما تم استيعاب هذا الأمر زادت الحاجة لمناهج دراسية في مجال الألعاب». «وإذا ما بدا أن علوم الألعاب قد تأخرت كثيراً في الظهور، فعلينا أن نتذكر أن الجامعات لم تكن تقدِّم شهادات جامعية في مجالات التخصص الإذاعي والتلفزيوني والسينمائي حتى الثمانينيات. أما الآن فإن الجامعات التي تصوب أنظارها إلى المستقبل، أحياناً بشكل مصطنع، تحاول تطوير مناهج دراسية لا ترضي فضولها الفكري فحسب»، بل وتسعى أن يكون المساق عن لعبة الفيديو -أياً كان المغزى من ابتكارها- أكثر من مجرد تسلية.

ولتمكين صناعة الترفيه والتسلية من مشروعية أكبر، خلص باحثون من جامعة «هارفارد» إلى وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» إلى أن ألعاب الفيديو تقوم بكل شيء من بناء مهارات التركيز إلى التعجيل بشفاء مرضى الذبحة الصدرية. أما في جامعة «بانغور»، فقد قام الأساتذة باستخدام لعبة «بلاي ستيشن 2» لدراسة قدرة الطلاب على تطوير عمليات التركيز وتنظيمها. «وفي هذا الإطار قامت شركة «سايبر ليرننغ للتكنولوجيا» بتسويق وحدة تُلحق بجهاز بلاي ستيشن، بناء على دراسات أجريت في



getty images



getty images

الموسيقى من أضخم صناعات الترفيه حجماً

ناسا، موجهة للاعبين الذين يريدون تطوير مهاراتهم ومداركهم العقلية».

جدلية العلاقة بين الألعاب والسينما

لعل ما يميز صناعة الألعاب عن صناعة السينما والأفلام هو ارتفاع ربحها الصافي مقارنة مع الأفلام، نظراً إلى التكلفة البسيطة نسبياً المعتمدة في تطوير لعبة مقارنة مع فِلم سينمائي. «فميزانية أغلب الألعاب لا تتجاوز بضعة ملايين من الدولارات باستثناء بعض الألعاب الضخمة مثل «Halo 2» أو «Half Life 2» التي كلفت الشركة المصنِّعة أكثر من 40 مليون دولار. لكن هذه التكاليف تعتبر بسيطة مقارنة مع ما تصرفه شركات الأفلام حيث تتجاوز تكلفة الأفلام الضخمة 100 مليون دولار، ما شجع الشركات الكبيرة العاملة في مجال التسلية والإعلام على الاستثمار في صناعة الألعاب كشركة مايكروسوفت، في حين تحولت أولى الشركات التي دخلت في صناعة الألعاب من مجرد مجموعة مكاتب صغيرة بميزانية متواضعة إلى شركات عملاقة ذات عدة فروع في جميع أنحاء العالم مسيطرة بذلك على سوق الألعاب.

وعلى الرغم من أن صناعة الألعاب منافسة للسينما إلى حد كبير، إلا أن العلاقة داخل هذا التنافس تكاد تكون جدلية بين هذين المنتِجَين. فقد «لجأ عدد كبير من شركات الألعاب -في الفترة الأخيرة- إلى شراء تراخيص الأفلام وذلك لتطوير ألعاب مستندة إليها مثل ألعاب «James Bond» وسلسلة «The Matrix» إضافة إلى أضخم الألعاب الاستراتيجية أمثال «The Lord of the Rings». والعكس في هذه العلاقة صحيح، فقد تم تحويل العديد من الألعاب الشهيرة والشعبية إلى أفلام سينمائية عن طريق شراء التراخيص من شركات الألعاب مثل أفلام «Resident Evil» و «Tomb Raider» ...إلخ.

كما تزايد اعتماد شركات الألعاب على العاملين في حقل السينما لتطوير منتجاتها، فتعددت بذلك الألعاب التي تستعين بالمواهب الصوتية لممثلي هوليوود في تأدية أصوات شخصيات بعض الألعاب، وكذلك الاستعانة بالمؤلفين السينمائيين وكاتبي السيناريو لتأليف قصص الألعاب و كتابة السيناريو الخاص بها.

عربياً.. غض نظر ينقضه الواقع

على الرغم من أهمية هذه الأرقام المعبِّرة عن حجم صناعة الترفيه والتسلية في العالم، يبقى العالم العربي عالماً مستورداً لما ينتجه الآخرون. وفي كثير من الأحيان مقللاً من شأن هذه الصناعة -خاصة صناعة الألعاب- التي يعتبرها البعض حكراً على فئة عمرية دون أخرى. وهنا تأتي دراسات عديدة بنتائج تنفي هذه الأفكار وتؤكد خلاف هذا الأمر. «ففي دراسة أجرتها «جمعية برامج التسلية» تبين لديها أن المعدل الوسطي لأعمار هواة الألعاب يصل إلى 29 سنة، وأن 41% من الذين يمارسون ألعاب الفيديو بشكل منتظم تزيد أعمارهم على 35 سنة، كما أشارت الدراسة إلى أن 50%، أي نصف مواطني الدول الغربية، يمارسون ألعاب الفيديو ويصل معدل الوقت الذي يقضونه مع هذه الألعاب إلى 12 ساعة أسبوعياً».

وقد لا تبتعد هذه الأرقام كثيراً في التعبير عن حقيقة الوضعية التي يعيشها شباب بعض البلدان العربية. فالإحصاءات التي تشير إلى ما ينفقه العالم العربي (أكثر من 10 مليارات دولار سنوياً) -مع بعض التفاوت بين بلد وآخر أو كتلة جغرافية وأخرى- في مجالات الترفيه والتسلية، تطرح مفارقات في هذا العالم الذي يعلن عدم تأثره بالاستهلاك الآلي لمنتجات هذه الصناعة، ولكنه يبطن اهتمام مواطنيه بكل ما هو جديد فيها. فالعديد منا يثيره فضوله ويستقطبه عالم حافل بالأجهزة والتطبيقات الرقمية من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً كتلك التي تستخدم تقنية «البلوتوث» وهي تكنولوجيا جديدة ومتطورة مكنت من توصيل الأجهزة الإلكترونية مثل الكمبيوتر والهاتف المحمول ولوحة المفاتيح...إلخ، لتبادل البيانات والمعلومات فيما بينها من غير أسلاك أو أي تدخل من المستخدم. وقد انضم أكثر من 1000 شركة عالمية إلى مجموعة الاهتمام الخاص بالبلوتوث لتحل محل التوصيل بالأسلاك.

العرب ينفقون 10 مليارات دولار سنوياً على التسلية والترفيه، والإشكالية المطروحة تطال الهوية الثقافية



أفلام الـ «دي في دي» تتجاوز صناعة السينما

أما بالنسبة إلى عالم مشغلات الموسيقى والفيديو والصور الرقمية، فقد شهدت سنة 2006م طرح جهاز آي بود نانو «IPod Nano» بسعة 8 غيغابايت GB 8 بعد خمس سنوات من طرح أول جهاز آي بود في العالم، وسيطرته على أكثر من 70% من مبيعات أسواق مشغلات الموسيقى الرقمية.

كما بدأت التلفزيونات عالية الجودة خاصة أجهزة «البلازما» والـ «إل سي دي» من اكتساح منازل المشاهدين في المنطقة العربية بعد تراجع ثمنها بنسبة كبيرة ولافتة للانتباه.

مع هذا الزحف الهائل لمنتجات صناعة الترفيه والتسلية، يضطر المواطن في البلدان العربية أحياناً إلى الاستدانة أو الحصول على قروض بنكية تحقيقاً لرغباته الترفيهية واستجابة لفضول التسلية لديه، في حين أن أفكار المنتجات التي يسعى إلى الاستدانة من أجلها هي أفكار مستوردة بالدرجة الأولى، وبالتالي فهي لا تعبِّر بدقة عن حاجات ومتطلبات البيئة التي يعيشها. بل إن بعض منتجات صناعة الترفيه والتسلية ليس لها وجود مبرر لديه أصلاً لأنها ظهرت بالأساس كحاجة لدى الغير، مما يطرح إشكالية الهوية الثقافية التي يروج لها من خلال ما نقبل عليه من وسائل ومضامين ترفيه وتسلية.

كما أنه وفي عصر اتسم بعولمة تقوم على المعلومات والإبداع التقني غير المحدود وتتجاهل الأنظمة والحضارات والثقافات والقيم والحدود الجغرافية والسياسية والاقتصادية القائمة في العالم، سعت وسائل الإعلام إلى تسويق أنماط رائجة بحد ذاتها، وحاولت حمل الفرد على أن ينتهج سلوكاً معيناً أو أن توهمه بأن لديه مشكلة ما حتى يشتري منتجاً محدداً، متفادية كل تشجيع للحلول المبتكرة من قبل المستهلك وكل سلوك يمكن أن يؤثر على الشراء أو يبطئ عدادات الربح لدى صانعي ومروجي وسائل ومضامين صناعة الترفيه والتسلية.

وقد تجعلنا هذه الوضعية نقر بأن الترفيه اليوم في جانب كبير منه ترفيه سلبي، يقوم على تفريغ الطاقة بشكل غالباً ما يكون غير مدروس، أو أنه لا يحقق أقصى استفادة بين مواهب وقدرات الفرد ومستقبله وما ينفقه وما يقضيه من وقت في مجالات الترفيه والتسلية المختلفة.

إننا بحاجة في هذه الحالة إلى تحديد احتياجاتنا الأساسية من الترفيه والتسلية بما يسمح بالمشاركة الفكرية وإقرار ثقافة الحوار، حتى لا نبقى أسرى عزلة أو نفي أو إلغاء أو إقصاء قد يخلقها لنا صانعو مضامين الترفيه والتسلية إذا ما اخترنا سياسة عدم التواصل معهم أو ثقافة مواجهة ما ينتجون أو يروجون.



التسويق العصبي..

فن مخاطبة «مخ» المستهلك!

التسويق العصبي علم جديد يسعى إلى الاستفادة من آخر ما توصل إليه الطب في دراسته للمخ البشري وأنظمته العصبية، لوضع نمط جديد من الإعلان التسويقي للسلع المختلفة يتوقع له أن يكون أجدى وأبلغ أثراً من فن الإعلان الذي نعرفه حالياً والقائم على مخاطبة العقل الباطن اعتماداً على علم النفس.

المهندس أشرف إحسان فقيه * يعرض ما هية هذا العلم الجديد، والأدوار المرتقبة منه، وصولاً إلى مناقشة الاعتبارات الأخلاقية والمحاذير التي تثير قلق بعض المراقبين.

* محاضر بكليّة علوم وهندسة الحاسب الآلي
في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن



«تايد».. «جيب».. «ليبتون» و «بيبسي».. كلها أسماء نستخدمها في حياتنا اليومية لا لنشير إلى ذات المنتجات التجارية التي تحملها، ولكن كمُعرّفات عامة. «رابسو» تطلق في مصر مثلاً على (أي) مستحضر غسيل.. بغض النظر عن اسمه التجاري الأصلي. و «جيب» صارت اسم عَلَم لكل سيارة دفع رباعي.. حتى وإن لم تكن تحمل شعار شركة «جيب» الأميركية.

أسماء تجارية أخرى باتت بمثابة كلمات السر السحرية. بماذا تشعر المرأة المتسوقة حين تلمح اسم «غوتشي» مثلاً؟ وكيف سيتفاعل الزبون مع وقع كلمة «روليكس»؟

هذا النجاح الاستثنائي للعلامة التجارية في فرض ذاتها على وعي المستهلك هو هدف لكل المُسوِّقين والمُعلنين. هدف تبرره الأرباح الطائلة التي تحققها هذه المنتجات، ويُبرر بدوره المبالغ والجهود التي يبذلها المعلنون في الترويج لبضائعهم وإغراق المستهلك بأسمائها وشعاراتها.

وخلال الأعوام الأخيرة استكشفت المدارس الإعلانية مرحلة جديدة وجريئة قد تنقلها من مخاطبة حواس المستهلك إلى المركز المتحكم بهذه الحواس كلها والمسؤول عن اتخاذ قرار الشراء النهائي: الدماغ! فبالتركيز على فرع متجدد ومثير من فروع علوم المخ والأعصاب قائم على تصوير الدماغ البشري ومراقبة نشاطاته، تطمح الشركات الكبرى إلى القدرة على إقناع المخ مباشرة بجدوى منتجاتها.. وتفصيل إعلانات تجارية موجهة نحو الخلايا العصبية بالذات.. بحيث لا يسعنا ربما إلا أن نقتنع بضرورة اقتناء منتج ما.. بغض النظر عن مدى منطقية هذه القناعة! مرحباً بكم في عالم التسويق العصبي (Neuromarketing).

من مخاطبة الغرائز إلى مخاطبة الدماغ

لطالما كانت مخاطبة غرائز المستهلك ودغدغة احتياجاته الدفينة وسيلة معروفة لدى المُسوقين. كما أن اتباع الأسلوب العلمي في التسويق ليس بالشيء الجديد. فعبارات من قبيل «كيف نحيا من دونه؟» و «يميِّزك عن سواك» تقترن بالعديد من الإعلانات التجارية المبنية على مبادئ علم النفس. التسويق السلوكي (Behavioral Marketing) يمثل تكتيكاً قديماً في استجلاء رغبات شرائح المستهلكين وتمرير رسائل إعلانية إلى وعيهم الباطن تربط ما بين تعزيز مكانة المستهلك في المجتمع واقتنائه للمُنتج مدار الإعلان. المحال التجارية تعتمد منذ بدايات القرن العشرين توزيع الاستبيانات على الزبائن وإعداد الدراسات لأنماط شرائهم وفق الجنس أو الفئة العمرية أو المناسبات الموسمية مثلاً.

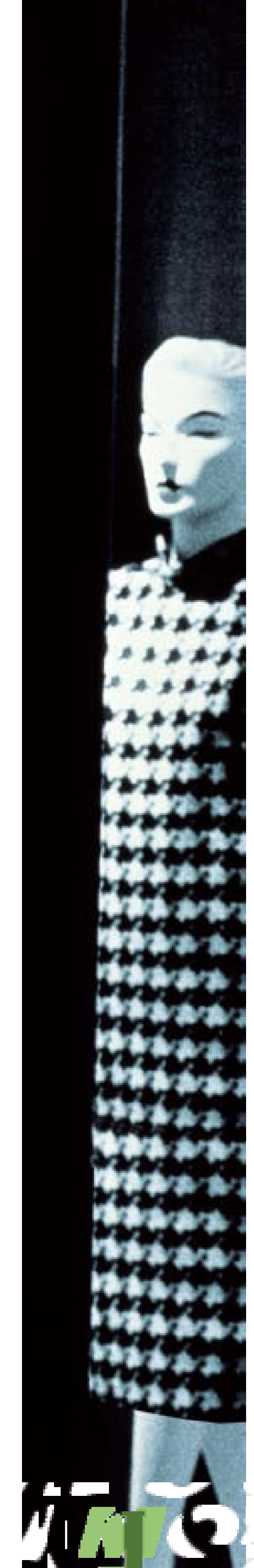
كل هذه الأساليب التسويقية تشترك في كونها تمثل محاولات جادة للوصول إلى عقل الزبون عبر قراءة المؤثرات الخارجية التي تحكم القرارات الصادرة عن هذا العقل. لكن هذه القراءة تظل غير مكتملة الدقة ومحكومة بكيمياء الدماغ ذاته. في المقابل، فإن ما يَعِد به التسويق العصبي هو استغلال الفهم المتنامي لطريقة عمل الدماغ البشري في توجيه عملية اتخاذ قرار المستهلك لمصلحة السلعة التجارية.

يُعرّف التسويق العصبي بأنه العلم المختص بدراسة استجابة المخ للإعلانات والعلامات التجارية بواسطة تقنيات التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (FMRI). وهي الطريقة التي دشنها الدكتور ريدمونتاغيو في صيف 2003م. هذه التجربة مستوحاة من إعلان تلفزيوني قديم لشركة مشروبات غازية يُطلب فيه من أفراد الجمهور المفاضلة بين عينات عشوائية من شرابيّ هذه الشركة وشركة أخرى منافسة.. لكن من دون إطلاعهم على نوع المشروب الذي يتذوقونه.

بالرغم من أن هذا الإعلان الحيادي حاول أن يثبت بالتجربة أن طعم أحد المشروبين هو بلا شك أفضل من طعم الآخر. إلا أنه كان يصطدم بحقيقة بسيطة مفادها أن مبيعات المشروب الأطيب لم تتفوق إطلاقاً على مبيعات الآخر في أمريكا. وهو ما دفع الدكتور مونتاغيو إلى التساؤل: «لماذا يقبل الناس على شراء مشروب معين بالرغم من أنهم يفضلون مذاق مشروب آخر كما يزعم الإعلان؟!».

هكذا وبعد 30 عاماً من إذاعة الإعلان التلفزيوني، أعاد مونتاغيو التجربة ذاتها في مختبره لعلوم المخ والأعصاب بكلية بايلور الطبية. لكنه هذه المرة قام بمراقبة نشاطات أدمغة الأفراد الخاضعين للاختبار وتسجيل معدلات تدفق الدم لأقسامها المختلفة بواسطة جهاز الرنين المغناطيسي.

وخلال التجربة الجديدة، ومن دون أن يعرفوا نوع الشراب المقدَّم لهم، صرَّح نصف المُختبَرين بأنهم يفضلون مذاق مشروب معين. لكن ما أن يطلعهم الدكتور مونتاغيو على حقيقة عينات المشروب الآخر، فإن ثلاثة أرباعهم كانوا يقولون إن طعم ذلك المشروب هو الأفضل، ويصحب ذلك تغير ملحوظ في نشاطات أدمغتهم أيضاً! لقد بدا وكأن اسم المشروب الرائج يحرك ذلك الجزء من الدماغ المتحكم بالتفكير المتقدم. استنتج مونتاغيو أن أدمغة المختبرين كانت تستدعي صوراً وأفكاراً من إعلانات سابقة، وبأن (صيت) العلامة التجارية كان يطغى على الجودة الحقيقية للمنتج بالنسبة للدماغ. فقد مثَّلت التجربة إذاً دليلاً علمياً على قدرة الإعلان على توجيه خيارات المستهلكين، وفتحت الباب أمام مشروعات التسويق العصبي.



كيف يقرِّر المخ؟

للوصول إلى طريقة لمداهنة المخ البشري، لابد من فهم آلية صنع القرار داخل هذا العضو الأكثر تعقيداً على الإطلاق.

من منظور تشريحي بحت، يُقسَّم الدماغ البشري إلى ثلاثة أقسام هي «المخ» و «المخيخ» و «النخاع المستطيل». وفيما تستخدم مصطلحات «مخ» و «دماغ» و «عقل» كمترادفات عبر هذه المادة، فإن علينا أن ندرك أن كلمة «مُخ» تطلق في الأصل على ذلك التكوين الالتفافي الرخو الذي يشغل الفراغ داخل جمجمة كل منا. هذا المخ يُقسَّم بدوره من منظور الدارسين وعلماء النفس إلى ثلاثة أجزاء أو «أمخاخ» متداخلة يغلف كل منها الآخر ويحويه.. كما في دمى المتريوشكا الروسية الشهيرة.

يعرف الجزء الخارجي من هذه الأمخاخ الثلاثة بالقشرة (cortex). وهو المسؤول عن مهام معقدة من قبيل التعلم، التفكير المنطقي، اللغة والتفريق بين القرارات الذكية وتلك الأقل ذكاءً.. وتحت المخ الخارجي يأتي المخ الوسيط المسؤول عن تنظيم المشاعر والدوافع النفسية والتحكم في أمزجتنا، خبراتنا ووظائفنا الهرمونية. وفي قلب المخ يستقر الجزء الثالث الذي يتولى توجيه الإشارات الأساسية كالجوع وضبط حرارة الجسم والدفاع عن الحِمى والخوف من الخطر وما إلى ذلك.

ما خلُص إليه الباحثون، وما يركِّز عليه المهتمون بالتسويق العصبي؛ هو أن الإشارات الأكثر قوة وتأثيراً تصدر عن المخ الداخلي، بل هي تطغى على إشارات المُخّين الأوسط والخارجي وتُنفّذ على حسابهما، وعلى حساب القرارات المنطقية المدروسة الصادرة عن القشرة الخارجية بالذات. ومدار دراسات التسويق العصبي هو في فهم لغة هذا المخ الداخلي وكيفية تواصله مع الأجزاء الأخرى.

البحث عن زر «الشراء»!

في تجارب خاصة بالشركات المنتجة للسلع الاستهلاكية، يقوم العلماء بإدخال المتطوعين في أجهزة الرنين المغناطيسي الوظيفي ويعرضون عليهم لقطات متفرقة لسلع ومنتجات وشخصيات عامة. لتقوم أجهزة الرنين بتتبع مادتي «الهيموغلوبين» الغني بالأكسجين، وكذا الخالي منه، في المخ. وبتصوير المخ أثناء تتابع كل من هذه اللقطات، يحصل الباحثون على صور تفصيلية وآنية لاتجاه سريان الدم فيه ومواقع الخلايا العصبية النشطة خلال هذه العملية.

قادت هذه التجارب إلى التعرف إلى أنواع عديدة من الإشارات صادرة عن مناطق معيَّنة من الدماغ، وإلى ترجمة هذه الإشارات بما يتفق وتأثير السلعة أو الصورة على المتسوق.

فبعض العلامات التجارية تحرِّك مراكز الإثارة والحماس بالمخ، لكنها لا تكفي لجعل صاحبه يهرع إلى الشراء. سلع أخرى تشعل مناطق الحَسم في الدماغ. وعندما تضيء هذه المناطق، فإن الشخص يكون قد تخطى مرحلة المداولة إلى القناعة التامة بحاجته إلى السلعة. ويُعتقد بأن ثمة روابط شخصية تجمع بين كل منا ونوعية معينة من المنتجات. ما يطمح إليه المسوقون العصبيون هو تعزيز هذه الرابطة، أو الولاء للاسم التجاري، وإعادة صياغة إعلاناتهم التجارية وتصاميم منتجاتهم بحيث تصب في هذا المجرى وتكون أكثر تأثيراً في هذه المناطق من المخ تحديداً.

إحدى التطبيقات التجارية في مجال التسويق العصبي التي باتت معتمدة بالفعل من قبل عدد من الشركات الأميركية والكندية تعرف باسم «ZMET». واحدة من أهم المسلمات التي أثبتتها هذه الوسيلة هي في كون المتسوق يبحث دوماً عن السلعة التي تضمن له شعوراً بالانتقال إلى شخصية مختلفة عن ذاته، أو إلى حال أفضل، حتى وإن لم يحصل هذا الانتقال إلا في مخيلته هو. لكن هذا الدافع يظل محكوماً بمؤثرات عقلية أخرى.

في تجربة شهيرة أخرى تمت بجامعة «كارنيغي ميلون»، أُعطي كل من المتطوعين 20 دولاراً، وخُيروا بين إمكانية الاحتفاظ بها.. أو إنفاقها على أي من السلع -مختلفة الأثمان- التي تعرض صورها عليهم فيما هم مستلقون داخل أجهزة الرنين المغناطيسي. وعند تحليل نتائج الصور المتتابعة للدماغ أثناء هذه التجربة، وجد الباحثون أن مجرد عرض السلعة على الشاشة يُحفز نشاط المنطقة من الدماغ المعنية بمشاعر اللذة أو المتعة المحضة.. وكأن صورة السلعة تثير المتسوق غريزياً!

لكن، هذه الإشارة لا تلبث أن تنطفئ حين يظهر أن ثمن هذه السلعة المرغوبة عالٍ أو أكثر من قدرة المشتري. هنا تتدخل المناطق العليا من الدماغ لـ (تفكر) وتستخدم الخبرة المسبقة في اتخاذ القرار. نشاط هذه المنطقة مرتبط بعمليات الموازنة بين حسابات الربح والخسارة، التي تثور عادة قبل اتخاذ قرار الشراء، بما في ذلك عمليات التمييز بين القرارات المتضاربة وتحديد الأفضل من بينها، وكذلك توقع النتائج المستقبلية المبنية على كل منها. هذه المنطقة غالباً ما يُعزى لها ضبط التصرفات الشخصية وبالذات تلك التي تترتب عليها عواقب اجتماعية أو قانونية.

هكذا صار بمقدور العلماء توقع ما إذا كان الشخص موضع الدراسة سيُقدم فعلاً على شراء السلعة المعروضة أمامه على الشاشة أم لا. إذ إنه متى ما بدأت مناطق المخ المرتبطة بعمليات الموازنة بين الربح والخسارة في زيادة نشاطها،

فيعني ذلك أن الشخص سيُقدم على الشراء. أما لو تم رصد سيطرة لمناطق قشرة الدماغ التي تنشط عند الإحساس بأن ثمن السلعة أعلى من فائدتها، فإن المتسوق غالباً لن يشتري. هذه النتائج ستغير فهمنا لآليات عمل المخ عند الشراء، وكيف تتغير هذه الآلية بحسب رغبة الشخص في متعة الاقتناء العاجلة، أو تأجيل هذه المتعة لوقت لاحق. وتبين النتائج أيضاً أن وقع ثمن السلعة على العقل و «الألم» الذي قد يسببه فقد المال عند الشراء كلها عوامل حاسمة في كبح جماح عملية التبضع. وهو ما يُبرر اختلاف الناس في الإقدام على الإسراف في الاستهلاك الشرائي في حال الدفع نقداً مقابل استخدام البطاقات الائتمانية، حيث يتم تأجيل الخسارة ولو إلى حين. وهذه كلها عوامل ستضعها الشركات التجارية في الحسبان عند تصميم الموجة القادمة من حملاتها الإعلانية.

أكثر من مجرد تسويق

ربما خَطَر للبعض أنه من المعيب أن ينتهي الحال بمعدات طبية بالغة التعقيد كأجهزة الرنين المغناطيسي الوظيفي (FMRI)، والتي يكلف أحدها 2.5 (اثنين ونصف) مليون دولار، في أن تستغل لزيادة مبيعات بعض السلع، عوضاً عن أن تُسخّر في تشخيص الأمراض المستعصية كأورام الدماغ وحالات الفصام النفسية. الحقيقة أن التسويق لا يمثل إلا وجهاً واحداً من أوجه التطبيقات المتعددة لمجال علمي مزدهر هو «علم المخ والأعصاب التواصلي» الذي يتوقع له أن يعيد تشكيل حضارتنا، على نحو ما فعلت التكنولوجيا الحديثة، لنتحول إلى مجتمع مبني على علوم المخ والأعصاب.

كأعضاء في هذا المجتمع الموعود، فإننا قد نضطر إلى التواؤم مع شروط جديدة للتعامل مع المؤسسات والأفراد من حولنا. الأسرار التي نفضِّل عادة أن نحتفظ بها لأنفسنا ربما لن تغدو كذلك في ظل النظام العصبي الجديد. عمليات تصوير الدماغ وتحديد الميول العقلية قد تصبح بمثابة تحصيل الحاصل عند التقدم إلى وظيفة جديدة أو لإتمام عقد الزواج مثلاً. هذه الصور والأفكار قد تستخدم كذلك لتحديد ميولنا السياسية أو الإجرامية، ولحل أزماتنا العاطفية وتحديد المسببات التي تدفعنا للتواصل مع أشخاص معينين وللتنافر مع سواهم، ولإعادة حساب معدلات ذكائنا وبالتالي إعادة ترتيب موقع كل منا في السلم الاجتماعي.

وقد بدأت الشركات التجارية بالاستفادة من نتائج التصوير المغناطيسي في إعادة صياغة استبياناتها التي توزع عادة على الجمهور لتصير محملة بعبارات موجهة أكثر نحو مراكز التعاطف في المخ، ولا يوجد ما يمنع المرشحين السياسيين ليتخذوا ذات المنحى. المدربون العصبيون يستفيدون كذلك من هذه التجارب التي جاءت نتائج بعضها في صالح المدارس القائلة بأهمية التفكير الإيجابي



المخ والسلعة.. علاقة معقدة يسعى العلم إلى استكشافها بدقة

وضـرورة البحث عن مبررات الفرح والسـعادة، عوضاً عن التشاؤم والتركيز على أوجه القصور في الإنجاز.

ما بين مؤيد ومعارض

تثير تقنيات التسويق العصبي الكثير من الجدل ما بين مؤيد ومُعارض منذ أن سـلَّطت عليها أضـواء الإعلام قبل بضـع سنوات. ويعزِّز هذا الجدلَ الاهتمامُ الحقيقي الذي تحظى به هذه التقنيات من قبل كبريات الشركات التجاريـة، والمبالـغ التـي تنفقهـا هـذه لاستكشاف المزيد حول تطبيقات التسويق العصـبي، إضـافة إلـى ظهـور مؤسسـات ربحية تروِّج لهذه الاسـتراتيجية التسويقية وتوفر خدماتها الاستشـارية. الأمر يتجاوز إذاً الفرقعة الإعلامية الصرفة؛ لاسيما وأن قضايا مدنيّة قد أثيرت بالفعل في المحاكم ضد هذا النمط من الدراسات!

المسوقون يطمحون إلى تعزيز الولاء للاسم التجاري في مناطق محددة من المخ

أولـى المخاوف التـي تثيرها هذه الفكرة تتمثـل في أن يغدو البشر ضحايا عمليات غسيل دماغ منظمة تجريها الشركات الكبرى. فللوهلة الأولى توحي فكرة التسويق العصبي بمؤامرة رأسـمالية للعبث بأمخاخ العامة وسلبهم المزيد من الأموال ناهيك عن القدرة على التفكير المسـتقل، ليغدو المتسوقون أشبه بقطعان «الموتى الأحياء» الواقعين تحت سحر العلامة التجاريـة. وهـي مخاوف يسـخر منهـا القائمـون على هذه التجارب لسبب بسيط. ففهمنا لوظائف المخ البشري لا يزال في بداياته. المخ يظل عضـواً على درجـة عالية من التعقيد بحيث لا يمكننا أن نتحكم به وفق رغباتنا ونملي عليه شروط اتخـاذ القرار. هذا ما يؤكده علماء المخ والأعصـاب الذين يشيرون أيضاً إلى أنه مع كل التقدم الطبي والتقني الحاصل، وحتى مع القدرة على تصوير نشاطات المخ، فإن البشرية لم تزل بعد غير متفقة على صـيغة موحدة لخريطة الدماغ.. ما يبرهن على استحالة التحكم بإشاراته حتى هذه اللحظة.

لكن هذه الحجج لا تلقى آذاناً صـاغية عند فريق عريض من المفكرين الأخلاقيين والمدافعين عن حقوق المستهلك الذين يرون أن الإنسـان قد أضحى بالفعل ومنذ خمسينيات القرن العشرين أسيراً للثقافة الاستهلاكية وخاضعاً لاستراتيجيات الشركات الكبرى. هم يشيرون إلى أن الأطفال باتوا يتعرفون علـى العلامـات التجاريـة للألبسـة الرياضيـة والمأكولات السـريعة قبل أن يجيدوا القراءة والكتابة. كما أن الشخصية المعاصرة تتعرض للتسطيح أكثر فأكثر في سعيها إلى اقتناء المـاركات الفارهة كرمز زائف للنجـاح مقابل انحدار خطر في مستوى الثقافة والوعي العامّين.

وثمة جدل أخلاقي قديم حول الفرق بين الرغبة والحاجة.. ولطالمـا اتهم الإعـلان التجاري بأنـه يعـزِّز رغباتنا فيما لا نحتاج إليه حقاً.. وهو ما يكسـب التسـويق العصبي نقمة المطالبيـن بتحرر إنسـان القـرن الحادي والعشـرين من سـيطرة الإعلان. لكن المروِّجين لأفكار التسـويق العصبي يعيدون صـياغة هـذه الجملة بالذات. هـم يؤكدون على أن تجاربهم الأولية في هذا الصـدد تهدف إلى تعزيز الصـلة بين المستهلك والعلامة التجارية على نحو يصب في صالح الأول. التسـويق العصـبي سـيوفر للمُنتجيـن فهماً أوضـح لحاجات زبائنهم من السـلعة، وسيزيد بالتالي من جودتها وكفاءتهـا. ويشـير هؤلاء بدورهـم إلى أن معظـم قراراتنا كبشر تتكون أصلاً في الجزء اللاواعي من العقل. فالتسويق التقليـدي ليـس في الأصـل إلا لعبـة ذهنية تخضـع للفهم الدقيق للعقل وطريقة تفكيره. والتسـويق العصـبي لا يأتي، والحال كذلك، ببدعة في هذا الشأن!


Arabian Eye

كيف يعمل المخ عند اتخاذ قرار بشراء سلعة معينة؟

المتحمسون للتسويق العصبي يجادلون كذلك في أن تعزيز العلاقة بين المستهلك والعلامة التجارية من شأنه أن يدعم الميزات الحقيقية للسلعة كشروط السلامة والأداء ليدفع بالمصنعين للعمل بجد حقيقي على تطوير منتجاتهم عوضاً عن الاكتفاء بإغراق السوق بين فينة وأخرى بعبوات مختلفة المظهر تحمل عبارة «جديد ومطوّر». كما أن بعض الباحثين يتجاوز ذلك ليطمح في الوصول عبر تقنيات التسويق العصبي إلى علاجات لحالات الإدمان على القمار والمضاربة بأسهم الشركات الخاسرة!

صار بمقدور العلماء توقع ما إذا كان الشخص موضع الدراسة سيشتري سلعة أمامه أم لا

تجدر الإشارة إلى أن اعتماد تقنيات التصوير المغناطيسي للمخ في مجال التسويق لا يعني بالضرورة أن يتم إخضاع (كل) الناس لها. ولكن عوضاً عن ذلك سوف تجرى تجارب تحت ظروف معينة لعينات مختارة من الجمهور، وسوف يتم تصنيف النتائج واستقراء أثرها على باقي شرائح المجتمع، على نحو ما يتم في التسويق التقليدي، لكن عبر وسائل أكثر موثوقية كما يرى مناصروا هذه التقنية.

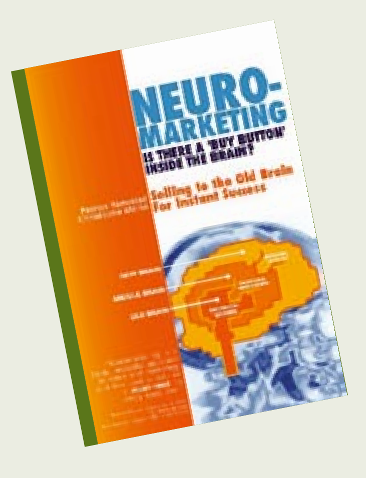

Arabian Eye

تفكير قبل الإقدام على الشراء..

من منظور آخر، يوفر الاطلاع على (حقيقة) ما يجري داخل مخ المستهلك فرصة لتوفير مبالغ طائلة تنفق على الإعلان التقليدي، وهو الإعلان القائم على توقعات «مجموعات التركيز» (Focus Groups). هذه المجموعات تضم خبراء واختصاصيين تعينهم الشركة المنتجة للسلعة الاستهلاكية بهدف تحديد رغبات الزبائن واقتراح الأسلوب الإعلاني الأمثل للتعاطي معها. ولما كانت هذه المجموعات مكونة من بشر في نهاية المطاف، فإن اقتراحاتها دائماً ما تحفل بنسبة عالية من الخطأ. فخلال العام 2002م أنفقت الشركات الأميركية مليار دولار على جماعات التركيز هذه من جملة 120 مليار دولار ابتلعها السوق الإعلاني. وبالرغم من وجود قناعة بأن نصف هذه المبالغ تمثل هدراً لا طائل منه. إلا أن أياً من الشركات الكبرى لن تجرؤ على تقليص ميزانياتها الدعائية في ظل المنافسة المحمومة. لكن التسويق العصبي يعدنا، كما يقول مناصروه، بتغيير ذلك كله. لأنه سيعلمنا بما يجري بالضبط في عقل المستهلك.. حتى لو لم يكن هذا صريحاً في تعبئة استبيانة الرأي.. أو تعمَّد الكذب على مندوب المبيعات!

اقرأ

التسويق العصبي: هل هناك زر «شراء» داخل المخ؟



هذا الكتاب موجه للراغبين في تبني أسلوب التسويق العصبي. هو يقدِّم نصائح لتوجيه رسائل لأدمغة الزبائن المحتملين وفق هذا الأسلوب.

بتبنيهما نظرية الأدمغة المتداخلة الثلاثة، يقدِّم المؤلفان شرحاً وافياً لطريقة تفاعل هذه الأجزاء من المخ وتفاصيل للخطوات الأمثل لتصميم وإرسال خطابات التسويق العصبي.

1 الموز ... مزيد من الفوائد

يحتوي الموز على ثلاثة سكريات طبيعية: سكروز، وسكر الفواكه، والجلوكوز، إضافة إلى الألياف بالطبع، ما يمنحنا دفعة كبيرة وثابتة وفورية من الطاقة. وقد أثبت بحث علمي أن موزتين فقط تحتويان على طاقة كافية للقيام بتمرين لمدة 90 دقيقة .فلا عجب أن يكون الموز الفاكهة الأولى للرياضيين البارزين.

ولكن الطاقة ليست هي كل ما يقدمه الموز. فهذه الفاكهة الاستوائية الفريدة غنية جداً بالبوتاسيوم، ولكنها تحتوي على نسبة ضئيلة من الملح، مما يجعلها مثالية لمكافحة ضغط الدم.

ووفقاً لدراسة جديدة، على أشخاص مصابين بالكآبة، شعر الكثيرون بالتحسن بعد تناولهم الموز، حيث يحتوي الموز على «ترايبتوفان» وهو نوع من البروتين يحوِّل الجسم إلى «سيروتنيوم» ويمنح الجسم الراحة والاسترخاء، ويحسِّن المزاج، ويجعلك تشعر بالسعادة.

ويساعد الموز أيضاً على تحفيز قدرة الدماغ. فقد أثبتت الدراسة أن الفاكهة الغنية بالبوتاسيوم، تقوم بتحفيز الدماغ للتعلم أكثر. بالإضافة إلى أن البوتاسيوم معدن حيوي يساعد على جعل نبض القلب متوازناً، فهو يحفز إرسال الأكسجين إلى الدماغ كما ينظِّم توازن الماء في الجسم. فعندما نكون مرهقين، يرتفع مستوى الأيض مما يخفض مستويات البوتاسيوم. ويمكن إعادة توازن الجسم بتناول الموز الغني بالبوتاسيوم.



flickr

2 التثاؤب وعدواه



flickr

لا يزال التثاؤب وأسبابه موضع دراسة لم تنته إلى حسم كل الأسئلة حوله بالأدلة القاطعة.

فالتثاؤب نشاط لا إرادي، وعندما يبدأ يصعب إيقافه، فيبقى الفم مفتوحاً على اتساعه لإدخال الهواء إلى الرئتين ببطء. ويقول بعض العلماء أن أسبابه تعود إلى الشعور بالنعاس أو السأم، وإلى أن الجسم بات بحاجة إلى النوم. ويعتمد هؤلاء على أن الناس والحيوانات يتثاءبون عندما ينقطع عنهم الأكسجين ببطء وتسترخي العضلات تماماً. وسرعان ما ينتهي التثاؤب بمجرد أن يشرب المرء قليلاً من الماء أو يغسل وجهه بماء بارد.

ويقول علماء آخرون إن الغرض من التثاؤب هو إيقاظ شخص ما من خلال شد عضلات وجهه، وتنشيط الدورة الدموية من خلال زيادة كمية الأكسجين في الشهيق.

إلا أن لغز الألغاز لا يزال هو انتقال التثاؤب عفوياً من شخص إلى شخص بمجرد أن يتثاءب أحدهما. فالعلم يسكت أمام هذه الظاهرة.

الفرضية الوحيدة في هذا المجال هي القائلة أن تثاؤب أحد الشخصين الجالسين قبالة بعضهما، يخاطب لا وعي الشخص الآخر، وينبهه إلى حاجته لمزيد من الأكسجين. فإذا كان الشخص الآخر هو فعلاً كذلك، فسرعان ما يتثاءب بدوره، وإذا كان غير ذلك، فإن التثاؤب يبقى مقتصراً على الأول.

3 صورة من دون عيون مغمضة


stock.xchnge

يأسف الكثيرون لأن صورة غالية على قلوبهم تجمعهم مع عدد من الناس تظهرهم أو تظهر أناساً عزيزين وقد أغمض بعضهم عيونهم. فيتمنون لو كان بإمكانهم إعادة التقاط الصورة نفسها. وتكبر هذه المشكلة كلما كبر عدد الأشخاص الظاهرين في الصورة. وللتأكد من ذلك ما علينا إلا إلقاء نظرة على الصور التي تجمعنا مع رفاقنا في المدرسة أو الجامعة في الصورة التذكارية.

لتلافي هذه المشكلة، لا بد للمصور من أن يلتقط عدة صور، أما عدد هذه الصور فهو ما طلب الأسترالي نيكولاس سفانسون من عالم الفيزياء بيرس بارنز أن يحدده.

وبعد ما درس بارنز متوسط عدد المرات التي ترف فيها عين الفرد، وسرعة فتحة آلة التصوير، وعدد الناس في الصورة، توصل إلى المعادلة الجبرية التي تعطي عدد اللقطات التي على المصور أن يلتقطها لكي يضمن أن كل الظاهرين فيها عيونهم مفتوحة.

وهذه المعادلة هي $1/(1-xt)^n$ حيث يمثل الرمز x متوسط عدد رف الجفون بالثانية وt سرعة فتحة العدسة وn عدد الأشخاص الظاهرين في الصورة.

ولأن معظم المصورين لا يستطيعون حل مسائل جبرية معقدة وإجراء مثل هذه الحسابات ساعدهم بارنز بتقديم الحل المختصر:

إذا كان عدد الأشخاص أقل من 20، والصورة ملتقطة في مكان مضاء جيداً، ما على المصور إلا أن يقسِّم العدد على 3، ليحصل على عدد اللقطات التي يجب أن يأخذها.



4 برنامج لكشف الكذب


stock.xchnge

إذا كان اكتشاف الكذب خلال المحادثة الشفهية ممكناً إلى حد ما بالنظر إلى تعابير الوجه والتلعثم وما شابه، فإن اكتشافه في الرسائل الإلكترونية والدردشة بواسطة الكمبيوتر كان يبدو ضرباً من المستحيل.

غير أن الأستاذ المساعد في الاتصالات جيف هانكوك يعكف حالياً على وضع برنامج يمكن تحميله على جهاز الكمبيوتر، فيحلل تلقائياً النصوص المتبادلة، ويكشف إذا ما كانت تتضمن أكاذيب أم لا.

الأساس الذي اعتمده هانكوك، وتوصل إليه بمساعدة علماء النفس يقوم على جملة ملاحظات تم جمعها من آلاف الرسائل الصادقة والكاذبة، وأبرزها ما يأتي:

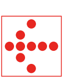
- يتضمن النص الكاذب حديثاً بالضمير الغائب (هو، هم، هن،...) أكثر مما يتضمن بصيغة المخاطب(أنا، إني، خاصتي...).
- تكثر في الرسائل الكاذبة التعابير ذات المعنى السلبي «سيئ، رديء، مجهول، متأخر، صعب...).
- عندما يكذب المرء في رسالة إلكترونية فهو يستعمل 28% زيادة في عدد الكلمات من المعدل الطبيعي فيما لو كان حديثه نفسه صادقاً.

والمدهش أكثر من ذلك، هو أن وجود كذبة في الجو لا تغير فقط لغة وأسلوب مطلقها، بل أيضاً متلقيها حتى من دون أن يشك بوجودها. إذ يقول هانكوك أن الشخص الذي يتعرض للكذب من قبل الآخر، يصبح صاحب جملة أقصر من العادة، ويزداد عدد أسئلته!

مسارات ومحطات

رحلة الدواء.. داخل الجسم

يمـر قرص الدواء بمحطات معيَّنة منذ أن يتناوله المريض حتى ظهور تأثيره.
ويؤثـر التغييـر الذي يحدث في مسـار الـدواء خلال إحدى هـذه المراحـل فـي النتيجـة النهائيـة التـي يحصـل عليهـا المريض بعد تناوله.
ما هي هذه المراحل؟ وما العوامل المؤثرة في كل مرحلة؟ وكيف تؤثر الخصائص الحيوية لجسم المريض على الدواء، مثلمـا يؤثـر هـو فيهـا؟ الدكتـور حذيفـة أحمـد الخـراط * يجيب.



يمكن الجزم بأن ليس ثمة إنسان في هذا العالم لم يتناول ذات يوم حبة دواء، شعر بأن جسمه بحاجة إليها، في لحظة كان الدواء فيها علاجاً هاماً، لداء طارئ ودخيل، حلَّ بالجسم على حين غفلة من صاحبه.

فمن منَّا لم يشعر ذات يوم بصداع مفاجئ، أرّق مضجعه، وأخذ ناقوسه يدق بشدة، كمطرقة وَجَّهت طاقتها دون رحمة، تجاه رأس عانى صاحبه من ضغط العمل وجهد المسير؟، ومن منَّا نجا من غزو الجراثيم المفاجئ لجسمه، محدثة بذلك التهاباً سارع بصاحبه إلى تناول

* طبيب جرَّاح من سورية

أقراص المضاد الحيوي المعروفة؟. وكثيرة هي الأمثلة التي دفعت بنا ولا تزال تدفعنا إلى تناول الدواء بحثاً عن ضالتنا المنشودة، التي فُطر الإنسان على طلبها، وجدَّ بالسعي نحوها منذ قديم الزمن، وهي حياة نحياها بلا ألم أو مرض.

ونادراً ما نهتم بالطريقة التي عملت فيها حبة الأسبرين -على سبيل المثال- على تخفيف حدة صداعنا. فالتفكير بمسرح العمليات المعقَّدة تلك، التي تحدث داخل أجسامنا من دون شعور منَّا، أو

أدنى درجة تحكم إرادي، كفيل بأن يزيد من حدة ذلك الصداع. إلا أن فضول البعض وحبهم للغوص داخل الجسم، والتنقيب عن خفاياه الكثيرة، قد يدفعهم إلى التفكير في هذا الأمر. كيف تمكن ذلك القرص الأبيض الصغير، من إيقاف شلال الألم؟ وما هي المحطات التي مر بها هذا القرص، بدءاً من تناوله، إلى أن ظهر التأثير المرجو؟ وما هي تلك الطاقة الكامنة، التي تفجَّرت وانطلقت من ذلك القرص، فعالجت المشكلة بيسر وسهولة؟ فإذا بالصداع المؤرق يزول، وكأن شيئاً لم يكن.

إذن ما هو الدواء؟

يمكننا تعريف الدواء بأنه مادة يتم تناولها، لتحقيق أهداف علاجية أو وقائية أو تشخيصية. ونضرب على هذه الأهداف الثلاثة، أمثلة حية من الأدوية التي يكثر استعمالنا لها. فنحن نتناول على سبيل المثال، البنسلين بأشكاله الدوائية المختلفة بغية علاج التهاب ما، حلَّ بأحد أجزاء الجسم. ولأهداف وقائية بحتة، فإنَّ منَّا من يتناول دواء فانسيدار (Fansidar)، قبل سفره إلى إفريقيا، محاولة وقاية جسمه من الإصابة بداء الملاريا، الذي توطن في القارة السمراء، وانتشر في أدغالها ومدنها. وأخيراً، فإن طبيب العيون، يستخدم بعض القطرات الخاصة، يصبها في عين مريضه، بهدف تشخيص بعض ما يصيب العين من أمراض.

وقد تطور العلم الحديث، في سبر أغوار الدواء، وتم كشف النقاب عن الكثير من الغموض، الذي يلف تلك المادة السحرية، وما يعتريها من تغيرات

وتفاعلات حيوية داخل أجسامنا. وظهر بذلك علم جديد، اسمه علم الأدوية (Pharmacology)، وهو العلم الذي يتناول بدراسته، أصناف الدواء واستخداماتها العلاجية، وتفاعلها الحيوي داخل الجسم، وتأثيراتها الجانبية التي تظهر في جسم متناولها.

مصادر عدة للدواء المتناول

وللدواء الذي نتناوله مصادره المختلفة، ولعل البعض منَّا يعتقد أن هذا الدواء ما هو إلا مواد كيميائية، نتجت عن تفاعلات معقَّدة، تلاعبت بها أيد العلماء في أقبية مختبراتهم العلمية، إلى أن ظهر في صورته النهائية المعروفة. ولعل هذا القول تنقصه بعض الصحة. فليست التركيبات الكيميائية المعقَّدة، المصدر الوحيد الذي نحصل من خلاله على الدواء، بل إن هناك مصادر أخرى لذلك.

فعالم النباتات من حولنا يمدنا بالعديد من الأدوية، ونبات الصعتر (أو الزعتر) مثال عنها، إذ يمدنا بأدوية فعَّالة لعلاج حالات الإسهال، وأوراق نبتة البيلادونا (التي تعرف أيضاً بنبتة ست الحسن) تمدنا بمادة الأتروبين Atropine، ذات الصيت الذائع في علاج الكثير من الأمراض.. كما أن لحاء شجرة الكينا Cinchona، يعد المصدر الرئيس لدواء الكينين الفعَّال في علاج الملاريا.

وهناك على صعيد آخر، مصادر حيوانية، يتم استخلاص بعض الأدوية منها. ولعل الأنسولين أشهر مثال على ذلك، إذ من الممكن تحضيره من بنكرياس بعض الحيوانات كالأبقار مثلاً.

ولبعض المعادن خصائص دوائية، تضمها إلى مصادر الدواء المختلفة، ومن ذلك معدن الزئبق الذي يدخل في تكوين المطهر المعروف بالمركوركروم. كما أن للكائنات الحية المجهرية دوراً مهماً في تكوين بعض الأدوية، ومن أشهرها على الإطلاق: البنسلين الذي تشكله بعض الفطريات المجهرية بصورة طبيعية، ويعد الفطر المعروف باسم «Penicillium Chrysogenum» المصدر الطبيعي الأكبر لذلك المضاد الحيوي المعروف.

وأخيراً، فإن لمعامل الكيمياء دوراً رئيساً وبارزاً في تركيب الكثير من الأدوية. وليس لنا أن نهضمها حقها، ففي تلك المعامل، تنشأ تفاعلات كيميائية، بنسب متناهية الدقة وعالية الجودة، بغية تحقيق هدف الحصول على دواء مطلوب ذي أثر ناجع، وقد يحتاج دواء كهذا إلى تجارب تستغرق سنين بحثية طويلة، إلى أن يتم تعميمه عالمياً، بعد أن تثبت فاعليته الدوائية، وأمانه على صحة الجسم. ومن أشهر الأدوية المصنعة كيميائياً: الأسبرين، ويتم تحضيره من تفاعل كيميائي ينتج عنه الدواء في صورة حمض اسمه أسيتيل ساليسليك.

كيف يدخل الدواء إلى أجسامنا؟

يعلم الكثيرون أن للدواء طرق تناول عديدة، يتم بها إدخاله إلى أجسامنا. ولعل أسرع تلك الطرق وأسهلها وأكثرها استعمالاً: تناول الدواء عن طريق

الفم بصورة أقراص أنيقة ذات ألوان مختلفة. وقد توضع هذه الأقراص أحياناً تحت اللسان بدلاً من بلعها، وذلك لعلاج بعض أمراض القلب مثلاً.

وهناك طرق أخرى لتناول الدواء، مثل الحقن بأشكاله المختلفة (العضلي والوريدي والشرياني وتحت الجلد)، وثمة أدوية تؤخذ عن طريق الاستنشاق (إدخال الدواء عبر الجهاز التنفسي، مثل بخاخ الربو المعروف)، وأخرى تؤخذ عن طريق المستقيم، كاستخدام التحاميل الشرجية، وأخيراً فمن الممكن تناول الدواء عن طريق الجلد كاستخدام المراهم أو الدهانات المختلفة.

المحطة الأولى في مسار الدواء في داخل الجسم تكمن في التحايل على غشاء الخلية لدخولها والوصول إلى الدم

علوم تنبثق عن علوم

وتتفرع عن علم الأدوية العام، بعض الأبحاث المتخصصة، التي تُعنى دراسة معمقة للدواء وتأثيراته المختلفة في جسم المريض. ومن هذه الأبحاث:

1 - **الحركة الدوائية**، ويقصد بها: معرفة مصير الدواء داخل الجسم، حيث تتم دراسة ظواهر امتصاص الدواء وانتشاره داخل الخلايا وتحوله من صورة إلى أخرى، وأخيراً إخراج ما يفيض عنه من الجسم.

2 - **القوة الدوائية**، ويقصد بها دراسة التفاعلات التي تحدث بين الدواء وجسم متناوله، مثل دراسة تأثير الدواء في الجسم وما ينتج عنه من آثار جانبية.

ويجدر بنا تسليط بعض الضوء على تفاصيل تلك العناوين، بغية فهم أعمق لسلسلة طويلة من الأحداث تتوالى فصولها المسرحية من دون شعور منَّا أو حس أو إدراك. ونحن بذلك نعلن بداية رحلة الدواء الطويلة، ذات المحطات الخمس داخل أجسامنا. فها هو قرص الدواء وقد تهيأ للسفر، بعد أن تناوله المريض واستقر في معدته، وها هي المحطات تنظر بشوق إلى استقبال ضيفها الشافي.

دخول الدواء إلى الخلية.. محطة الوقوف الأولى في الرحلة الطويلة

لإلقاء نظرة أعمق على المحطة الأولى في رحلة الدواء داخل أجسامنا، فمن الضروري أن نعلم أن هناك حاجزاً مهماً يجب على الدواء الدخيل تخطيه، قبل أن يجول في دم الجسم بحرية وسهولة. ويتمثل هذا الحاجز في غشاء الخلية (Cell member)، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول إن غشاء الخلية هذا، يقف حائلاً أمام الدواء المتناول، ويمنعه من ورود مجرى الدم، ويجب حينها على الدواء، أن يجد طريقة ما ينجح من خلالها في اختراق ذلك الحاجز، ليصل إلى الخلية، ومنها إلى الدم الذي سينقل الدواء إلى أجزاء الجسم المختلفة.

وهناك عدة طرق يمكن للدواء من خلالها التحايل على غشاء الخلية، حتى يسمح له بدخولها، ومنها:

1 - انتشار الدواء عبر ذوبانه في الدهون، وكلما كان الدواء ذا قابلية أكبر للذوبان في الدهون، كان انتشاره عبر غشاء الخلية الدهني أسهل وأسرع، ومن أمثلة ذلك ما يحدث في خلايا المعدة من انتشار فعَّال لدواء الأسبرين،ذي الذوبان السريع في الدهون، وهذا يساعد في دخول الدواء إلى خلايا المعدة، ومن ثم إلى مجرى الدم.

2 - الارتشاح، ويقصد به مرور جزيئات الدواء الصغيرة التي لها القدرة على الذوبان في الماء، عبر مسامات خاصة في غشاء الخلية.

3 - دخول الدواء بمساعدة الحامل الخاص، حيث يوجد في بعض الخلايا جهاز خاص يعمل على مساعدة بعض

الأدوية على دخول تلك الخلايا. ويعرف هذا الجهاز باسم الحامل، ويقوم بتسهيل عملية ذوبان الدواء المستهدف، وبالتالي مساعدته على دخول الخلية بيسر ومرونة.

4 - تقوم بعض الخلايا بإحاطة الأدوية المهمة مثل الفيتامينات، وذلك في عملية تعرف بالاحتساء. وذلك بغية إجبار الدواء على دخول الخلية. وهنا تحيط الخلية بهذا الدواء المستهدف، وتغلفه من جميع الجهات، ويتم تشكيل فتحة خاصة عبر غشاء الخلية يمكن عبرها احتساء الدواء، ودفعه نحو الداخل.

وبعد أن استقر الدواء في خلايا الجسم، تبدأ المرحلة الثانية من مسيرته.

امتصاص الدواء.. المحطة الثانية

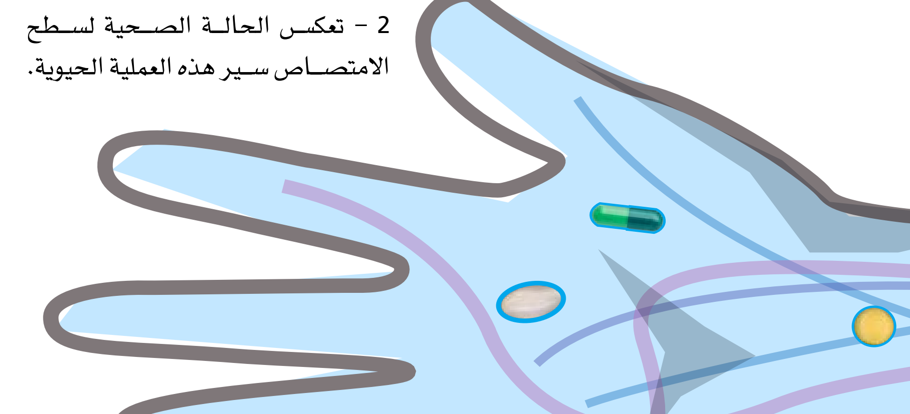
يقصد بعملية «الامتصاص» مرور الدواء من مكان تناوله (وقد عرفنا سابقاً طرق تناول الدواء)، إلى أن يصل إلى مجرى الدم، ورأينا قبل قليل في محطتنا الأولى، كيف يتمكن الدواء من عبور غشاء الخلية، والدواء الذي نجح في اجتياز ذلك الحاجز، سيؤول مصيره،إلى دخول الخلية، وحينها نقول إن عملية امتصاص الدواء قد نجحت.

امتصاص الخلايا للدواء يشكِّل المحطة الثانية، وتتحكم فيه نوعية الدواء ومساحة الامتصاص، والحالة الصحية لمساحة الامتصاص

ويحكم علمية امتصاص الدواء هذه عوامل عدة، نذكر منها:

1 - طريقة تناول الدواء، فالأدوية التي تؤخذ بصورة سائلة، تمتص أسرع من تلك التي تُحضَّر بصورة أقراص، أو مواد ذات قوام شبه صلب، والحقن الوريدية يتم امتصاصها أسرع من تلك التي تحقن عضلياً، والأقراص المأخوذة عن طريق الفم تمتص أسرع من المراهم الجلدية.

2 - تعكس الحالة الصحية لسطح الامتصاص سير هذه العملية الحيوية.



ومثال ذلك ما يعرف بـ «التهاب المعدة الضموري»، وهي حالة مرضية تصيب المعدة وتودي إلى انخفاض معدل امتصاص الدواء الذي يصل إليها، وعلى النقيض من ذلك، فإن للمعدة السليمة قدرة كبيرة على امتصاص ما يدخلها من دواء وغذاء ممايعزِّز الأثر الإيجابي المرجو. وكلما كان سطح الامتصاص ذا مساحة أكبر، كانت كمية الدواء الممتصة أكثر، ولهذا فإن لسطح الأمعاء في الجسم مزية واضحة في امتلاك مساحات واسعة، تتيح عملية امتصاص سريع وميسَّر لما يصلها من دواء.

3 - يؤثر الشكل الدوائي في عملية الامتصاص، فالأدوية ذات الصورة غير العضوية أسهل امتصاصاً من العضوية، كما أن امتصاص الأدوية التي تذوب في الماء أيسر من تلك التي تذوب في الدهن. وكلما كانت جزيئات الدواء أصغر، كان امتصاصها أسرع.

4 - تضبط الحالة الصحية العامة للجسم، معدل امتصاص الدواء، حيث يلاحظ سرعة امتصاص الدواء في الجسم السليم مقارنة بآخر عليل، ويُعزى ذلك إلى جودة أداء أجهزة الأول، وجريان دمه بصورة طبيعية، مما يكفل امتصاصاً نوعياً وسريعاً للدواء.

5 - ويقلل من امتصاص الدواء، ما يعرف بالتأثير المضاد لدواء آخر. وبالتالي فإن تناول دواء ما قد يؤثر في امتصاص غيره، وإعطاء مادة الأدرينالين مثال على ذلك، فهي تؤدي إلى تضيق شديد في أوعية الدم، وهذا يؤخر امتصاص ما يتناوله المريض من أدوية أخرى.

6 - لمحتوى المعدة من الطعام أو الشراب أثر واضح في امتصاص بعض الأدوية، ومن ذلك أن الشاي يقلل بصورة ملحوظة امتصاص أقراص الحديد، كما أن الحليب ومشتقاته يقللان من امتصاص المضاد الحيوي المعروف بالتتراسيكلين.

7 - يظهر أثر التركيز الدوائي بوضوح في معدل امتصاص الأدوية، فالأدوية المحضَّرة بتركيز مرتفع، يتم امتصاصها بصورة أسرع من ذوات التركيز المنخفض.

انتشار الدواء... المحطة الثالثة في سير الرحلة

بعد تناول الدواء وامتصاصه داخل خلايا الجسم، تبدأ مرحلة جديدة تعرف بانتشار الدواء، ويقصد بها وصوله إلى الأنسجة، منقولاً من مكان إلى آخر عبر جريان الدم في أجزاء الجسم المختلفة.

وتتفاوت نسب الدواء المنتشر داخل الجسم من نسيج إلى آخر. ويخضع ذلك إلى معدل جريان الدم داخل كل نسيج، فالقلب والكلى والدماغ والكبد مثلاً، تتلقى جرياناً دموياً مكثفاً، مما يعني وصولاً سريعاً لجزيئات الدواء القادمة باتجاهها. وعلى عكس ذلك، فإن تلك الجزيئات تتأخر بعض الشيء -مقارنة بسابقتها-، فتصل بصورة أبطأ إلى أنسجة العضلات والأمعاء والجلد، وذلك لما تتلقاه هذه من تروية دموية أقل من غيرها من أعضاء الجسم.

والملاحظة الأخرى في هذا الجانب، هي أن لبعض الأدوية ميلاً للانتشار ضمن أنسجة دون أخرى، ومثال ذلك: ميل الكالسيوم إلى الترسب ضمن عظام الجسم، والانتشار خلالها بصورة أوضح من أنسجة الجسم الأخرى.

في حالة وجود نقص خلقي لإنزيم معين، فَالجسم لن يستفيد من الدواء الذي يقوم هذا الإنزيم بالتعامل معه

المحطة الرابعة... التحول الحيوي للدواء المتناول

يقصد بعملية «التحول الحيوي» تغير الدواء عبر تفاعل كيميائي، من صورته عند تناول الجسم له، إلى صورة حيوية أخرى، تسعى إلى إيجاد مادة فعالة تحقق الهدف العلاجي المنشود، وهذه هي المحطة الأكبر في رحلة الدواء الطويلة داخل الجسم.

يقوم الكبد بخدمة ما يصل إليه من الدواء المسافر الذي تخطّى بنجاح المحطات السابقة، حيث توجد بعض الإنزيمات في خلايا خاصة في الكبد، تعمل على تفعيل الدواء، وتغيير معالمه الكيميائية عبر تفاعلات حيوية معقدة، ينتج عنها من جهة خلاصة منتخبة تعالج الداء، ومن جهة مقابلة تنتج مخلفات يتخلص منها الجسم عبر محطة إخراج الدواء التالية.

وهناك أنسجة أخرى تخدم الهدف نفسه، وهو التحويل الحيوي للدواء، لكن بصورة أقل مما يحدث في الكبد، ومنها: الكلى والرئة والجهاز الهضمي.

وتعتري الدواء الذي انتشر في أنحاء الجسم المختلفة عبر المحطة السابقة، العديد من التفاعلات الحيوية، ويمكن لنا تقسيمها بصورة عامة إلى تفاعلات تركيبية وأخرى غير تركيبية، وتنشأ التفاعلات الأولى عن اتحاد مادة موجودة أساساً في الجسم، مع المادة الدوائية الدخيلة، وتساعد بعض الإنزيمات في تسهيل عملية الاقتران تلك. ومن الأدوية التي تخضع إلى مثل هذه التفاعلات: الأسبرين والسيتامول والسلفا.

أما التفاعلات غير التركيبية، فمن أهمها: تفاعلات الأكسدة، والاختزال، والتحلل المائي، وفي هذا النوع من التفاعلات، تتغيَّر صورة الدواء المتناول تغيراً حيوياً يحقق الفائدة المرجوة من تناوله.

وينتقل الدواء بعد هذه النقطة إلى المحطة التالية، وهي إخراج ما تبقى من المادة الدوائية، بعد رحلة طويلة شاقة شارفت على الانتهاء.

وهناك بعض العوامل التي تؤثر في سير عملية التحول الحيوي لما نتناوله من دواء، ويظهر تأثير هذه العوامل واضحاً، عبر تدخلها في نظام الإنزيمات الضابط لتلك التفاعلات، ومن هذه العوامل:

1 - العمر، حيث يلاحظ أن نشاط الإنزيمات في أجسام الرضع وصغار السن، أقل بكثير مما هو عليه في أجسام البالغين. وينتج عن هذا عدم مقدرة جسم الرضيع على تحمل بعض الأدوية، مما يقود إلى ظهور تأثيرات دوائية جانبية خطيرة أو مميتة أحياناً. وكذلك الحال مع المسنين، فإن نشاط الإنزيمات في أجسامهم يُظهر بعض الخمول، مما يوجب على الطبيب توخي الحذر قبل وصف الدواء إلى هؤلاء المرضى.

2 - يحدث في بعض الأمراض الوراثية النادرة، نقص خِلقي لإنزيم معين، وهذا يعني عدم استفادة الجسم من الدواء الذي يقوم هذا الإنزيم بالتعامل معه، وهناك أمراض نادرة أخرى، يقوم الجسم فيها بتصنيع إنزيمات شاذة، وهي بذلك تغدو عديمة الجدوى، ويبقى حينها الدواء المتناول دون تغيير حيوي يذكر.

3 - للتدخين تأثير واضح في سير عمل الإنزيمات الحيوية، فهو يقوم بتحريض عملها، نظراً لاحتواء السجائر على مركبات كربونية عطرية، تعمل على زيادة سرعة التفاعلات الكيميائية التي تظهر في الدواء، وفي ذلك أثر سلبي خطير، حيث يحتاج المدخنون عادة، إلى جرعات دوائية أكبر من الجرعات الطبيعية التي تلزم لعلاج المرض. وقد يقود هذا إلى تسمم أجسامهم بالدواء ومخلفاته المؤذية للجسم.

4 - للحالة المرضية دور مهم في سلامة أداء جهاز الإنزيمات. ولبعض الأمراض تأثير سلبي في هذا المجال. فأمراض الكبد مثلاً تقود إلى انخفاض نسبة الإنزيمات اللازمة، وتقود بعض أمراض الكلى إلى تراكم مخلَّفات الدواء في الجسم، وذلك لعدم مقدرة الكلى المريضة على إخراجها. كما أن إصابة الكلى

تؤدي من جانب آخر، إلى تسريع عملية التحول الحيوي للدواء، وهذا بدوره يزيد الطين بلة والمشاكل حجماً. وأخيراً فإن لبعض أمراض القلب تأثيراً مشابهاً لما يحدث في حال إصابة الكبد والكلى.

كيف يعمل الدواء داخل أجسامنا؟

يظهر الأثر المطلوب لما نتناوله من دواء، بعد سلسلة طويلة من التفاعلات الكيميائية داخل الجسم. ومن الصعوبة بمكان فهم تلك الآليات بتفاصيلها الدقيقة. ولتبسيط الأمر، فإنه يمكننا القول إن الدواء يعمل من خلال مسارات مختلفة، تقود في نهاية المطاف إلى تحقيق الهدف، وهو التخفيف من حدة الأعراض المرضية التي يشكو منها المريض، ومن تلك الطرق:

1 - الطريقة الكيميائية، ومن أمثلتها: علاج زيادة حموضة المعدة عبر إعطاء مضادات الحموضة التي تقوم بمعادلة حمض المعدة كيميائياً. ومن المعلوم أن هذه الأدوية ذات تركيب قاعدي، أي أن تأثيرها معاكس للأثر الحمضي، وبذلك يزول الشعور المزعج لدى المريض.

نظراً لتأثير التدخين على عمل الإنزيمات، يحتاج المدخنون إلى جرعات دوائية أكبر من الجرعة الطبيعية لمعالجة المرض نفسه عند غيرهم

2 - التدخل في تكوين الخلايا، حيث تمتلك بعض الأدوية قوة تهاجم بها خلايا الكائنات الحية المجهرية التي تسبب المرض. ويظهر هذا الأثر الدوائي الهجومي، عبر مقدرة الدواء على التدخل في تكوين هذه الخلايا. فالمضاد الحيوي المعروف بالسلفا مثلاً، يتدخل في بناء خلايا البكتيريا، مما يقود لاحقاً إلى موتها، وبالتالي تتناقص أعداد البكتيريا تدريجياً.

3 - التدخل في عملية انقسام الخلايا. فالخلايا السرطانية مثلاً، تخضع لسلسلة انقسامات شاذة تؤدي إلى ظهور خلايا جديدة شاذة الطباع والنمط. ويأتي هنا دور أدوية علاج هذا الداء، وذلك لتأثيرها القوي المضاد لعملية الانقسام تلك، مما يحد من عدد الخلايا الجديدة الشاذة.

4 - يظهر التأثير الدوائي لبعض الأدوية، عبر ما يعرف بعملية تثبيط الإنزيمات، ومن تلك الأدوية: الأسبرين الذي يعمل على التقليل من نشاط الإنزيم المعروف باسم Cyclo-oxygenase، في الجسم مما يؤدي إلى ظهور الأثر العلاجي المطلوب.

5 - اتحاد الدواء مع مستقبلاته داخل الجسم. والمستقبل هو مادة بروتينية تمتلك موضعاً خاصاً يرتبط به دواء معين، وينتج عن هذا الارتباط مركبٌ جديد يقود إلى ظهور الأثر الدوائي المطلوب. ويوجد المستقبِل في أغشية الخلايا المختلفة، أو في أنويتها، وقد لوحظ أن هناك تناسباً طردياً بين أعداد المستقبلات الخاص بدواء ما، وكفاءة عمل الدواء، أي أنه كلما زاد عدد المستقبلات، زادت كفاءة الدواء، وكلما كان اتحاد الدواء مع مستقبله أسرع، كان الأثر الدوائي أقوى وأظهر.

المحطة الخامسة.. إخراج الدواء.. نهاية الرحلة

بعد أن تم تحويل الدواء حيوياً، فإن بعض النواتج الكيميائية تتراكم ضمن أنسجة الجسم، وتصبح غير ذات جدوى، لتخضع فيما بعد إلى عملية إخراجها من الجسم، بغية تنقية الدم والأنسجة من تلك السموم.

ويجدر بالذكر أن للكبد دوراً مهماً في عملية إخراج الدواء. ويتمثل هذا الدور، في تحويل بعض الأدوية التي لها المقدرة على الذوبان في الدهون، إلى جزيئات صغيرة يسهل على الجسم التخلص منها.

وهناك العديد من الطرق، التي ينظِّف خلالها الجسم ما علق به من شوائب دوائية، ومنها:

1 - تمتلك الكلى والجهاز البولي، القدرة على إخراج الأدوية التي تذوب في الماء، ومنها البنسلين ومادة المانيتول.

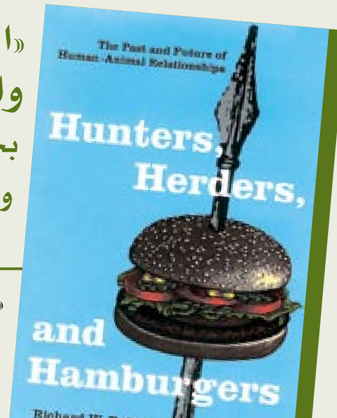
2 - يتم التخلص من الغازات المستخدمة في أدوية التخدير عبر الجهاز التنفسي، حيث يتم إخراج تلك المواد ممزوجة مع هواء الزفير الذي يخرج من الرئة.

3 - تُطرح بعض الأدوية من الجسم عبر جهازه الهضمي، وذلك عن طريق اللعاب أو البراز أو بواسطة مفرزات المعدة والأمعاء.

4 - هناك أجزاء صغيرة من نواتج الدواء، تخرج من جسم صاحبها عبر غدده العرقية، أو غدد الثدي، أو عن طريق الشعر والخلايا الجلدية.

وبذلك تشرف رحلة الدواء داخل الجسم على الانتهاء. فقد تحقق الهدف المنشود: قرص دواء تم تناوله، فبدأت الرحلة به، ومر بمحطة تلو أخرى، إلى أن ظهر أثره العلاجي في نهاية الرحلة.

اقرأ



«الصيادون والرعاة والهامبرغر»

بحث جديد في العلاقات بين الإنسان والحيوان

مهى قمر الدين

«لنبدأ بالنزوات والدم». هذه جملة مميَّزة جداً ولافتة للانتباه، لا سيما إذا استُخدمت جملة افتتاحية. يقول الدكتور ريتشارد بوليت (Richard Bulliet) في كتابه: «الصيادون والرَّعاة والهامبرغر». إن تفسير «شغفنا المتزايد بالنزوات والدماء» هو بعدنا العاطفي والفيزيولوجي عن الحيوانات التي تغذينا وتكسونا أيضاً. ويؤكد بوليت أننا لو كنَّا أقرب إلى تنشئة أي نوع من الحيوانات وذبحها، كما كان أجدادنا، لما كانت لدينا تلك الشهية الكبيرة إلى النزوات.

هذه الأطروحة المحرِّضة تستحق التوقف عندها لما تنطوي عليه من التجدد والإبداع. ولكن بوليت يحتاج، ويستحق أيضاً، أن تُبرم معه عدَّة عقود لوضع كتب أخرى لتفسير الأمور المثيرة للجدل في كتابه «الصيادون والرَّعاة والهامبرغر».

يرى بوليت، وهو مؤرخ من جامعة كولومبيا الأمريكية، وصاحب الكتاب المعروف «الجمل والدولاب»، أن هناك أربع مراحل في تاريخ علاقة البشر بالحيوان. أولاً، مرحلة الانفصال، حين بدأت الكائنات شبه الإنسانية تشعر بأنها متميزة عن سائر سكان مملكة الحيوان. ثانياً، مرحلة ما قبل الحياة الأليفة أو العائلية، عندما بدأ الإنسان يشعر بفوائد العيش بالقرب من الحيوان والقطعان حتَّى لو لم يكن قد بدأ يربِّي الحيوانات. ثالثاً، مرحلة الحياة المنزلية أو الأليفة عندما بدأت حياة معظم البشر تعتمد على قربهم من مصدر الغذاء الحيواني. ورابعاً وأخيراً، مرحلة ما بعد الحياة الأليفة، التي يصفها بوليت بميل المجتمعات في البلاد الصناعية، ومنها المجتمعات الأمريكية المعاصرة، إلى إبعاد مواطنيها عن المزارع الحيوانية المتصفة بالفوضى والقذارة، فيما أخذت هذه المجتمعات في الوقت نفسه تربي الحيوانات الأليفة كالكلاب والهررة، وتحبها وتدللها كما لو كانت إخوة في البشرية.

يتضمن هذا الخط الزمني الذي رُسم للعلاقات بين البشر والحيوان، والذي يبدو حميداً، تحدياً أساسياً لاستيعابنا العقلاني لحياة الحيوان الأليف. وبالنظر إلى مجموعة متنوعة من الحيوانات الأليفة والحيوانات الَّتي تعيش في المزارع، يمكننا القول إن أجدادنا ربّوا المواشي تربية انتقائية، ومن أجل أهداف مختلفة، مثل تحسين ذكاء الكلاب أو إنماء قوة الثيران التي تجر أدوات الحرث.

ولكن مؤرخنا يرفض فكرة أن الإنسان الأول ربّى المواشي من أجل إبراز مزايا معينة أو تزويد المجتمع اللحم المطلوب لإشباع معدته.

تستحق تلك النظرية كتاباً آخر، يسمح لبوليت بتفسير السبب الذي يجعله يعتمد في أطروحته على دراسة تربية الحيوانات الكبيرة مثل البقر. فالتجارب الأولى في تربية أجدادنا المواشي ربما كانت تتعاطى مع حيوانات أصغر بكثير. ويقول فيليبه فرنانديز أرمستو (Felipe Fernandez Armesto) في كتابه عن تاريخ الطعام وعنوانه: «بالقرب من ألف طاولة»: «صعب أن يتحمّس المرء للدليل الذي اعتمده ليثبت أن الإنسان في العصر الحجري القديم كان مهتماً بتربية الحلزونيات والحيوانات الرخوية كالمحار والسبيدج. وبقيت تلك السلالات حيوانات يمكن تربيتها، في أول تجربة للإنسان في تربية الحيوان من أجل الطعام. ولكنّ ريتشارد بوليت كان يفكّر بحيوانات أكبر. وهو يعتقد بأن أجدادنا اقتنوا الحيوانات أولاً، من أجل إقامة الطقوس وأن هدف اقتنائها من أجل تزويدهم طعاماً، كان يحل في المرتبة الثانية، ولكنّ يصعب أن نتخيّل إقامة الطقوس مع الحلزونيات الوضيعة.

ولضرب الأمثلة عن اقتناء سلالات معينة من الحيوان من أجل الطقوس والكثير من المزايا السحرية التي اعتقدها البعض في تلك الحيوانات، يقدم المؤلّف المثال التالي: الحمار الذي حُمِّل الكثير من الحمولة الرمزية. وبانتقاله بطريقة سلسة عبر الثقافات والأزمنة المختلفة يروي بوليت حكاية محبوكة جيداً عن جدوى الحيوانات في الثقافات التي تتبع ديانة أحادية أو الديانات التي تؤمن بعدة آلهة على السواء. وبهذا يقدم مثالاً عن التاريخ الثقافي الذي يمكن كتابته عن كثير من الحيوانات. إن بوليت أكثر تواضعاً من أن يدَّعي أن دراسته الفنية الرمزية المختصرة عن الحمار هي دراسة مميزة. ولكنّها كذلك. وهي أشد تشويقًا من أن تقتصر على فصل واحد من الكتاب.

عند خاتمة كتاب «الصيادون والرَّعاة والهامبرغر» يتفحّص بوليت ظواهر مختلفة مثل مقابر الحيوانات الأليفة والحوار الدائر اليوم عن حقوق الحيوان، ويتركنا مع مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالعلاقة بين الإنسان والحيوان. ولكن لسوء الحظ، إن الاعتقاد المفجع الذي تحدَّث عنه في شأن زيادة اهتمامنا بالبدائل المتعلقة بالغرائز والعنف الإنساني بينما قلَّ اقترابنا من الحيوان، لم يحظ ببرهان. صحيح أنّ شعوب بعض البلدان المتقدمة، تشهد علاقة طيبة بالحيوان وتقتل منه عدداً أقل مما كان يفعل أجدادهم، لكن هذه الشعوب نفسها لا يُقتل فيها كثير من البشر أيضاً.

لماذا إذن، يجب أن تفسِّر المسافة التي تفصلنا عن مملكة الحيوان ميولنا إلى العنف؟ كيف تفسِّر نظرية بوليت وجود مجتمعات مثل روما القديمة حيث لم يساعد ذبح الحيوان -أفي المنازل أم على المذابح الرومانية- في تلطيف عطش العامة لمشاهدة عروض قبيحة للعذاب البشري؟

وعلى الرغم من ذلك، تبقى أفكار المؤلّف في كتابه مثيرة جداً للاهتمام. وعلينا أن نأمل أن يطرق الناشرون بابه ثانية ليكتب أكثر، فيمدنا بمادة بحثية أكبر حتى نفكّر بمصادر الغذاء الذي نضعه كلّ يوم على مآدب طعامنا!

قصة ابتكار

عربة التسوق

نجحت عربات التسوق في أن تفرض حضورها على كل المتاجر الكبيرة أينما كان في العالم. وأكثر من ذلك فقد أصبحت رمزاً للتسوق، بدليل أن بعض المخازن الكبرى بات يضع مجسمات عملاقة لهذه العربات، ويضعها أمام مدخله للدلالة على وجوده، وللاستفادة من حجمها وشكلها في مجال الإعلان.

وقد مرَّت عربة التسوق بمراحل كثيرة قبل أن تصل إلى شكلها المعروف اليوم. فظهرت الحاجة إليها منذ النصف الأول من القرن العشرين، عندما سمح اختراع الثلاجة للعائلة بأن تشتري دفعة واحدة حاجاتها من السلع المختلفة لأيام عديدة مقبلة. قبل ذلك، كانت السلة التي تحملها المرأة من بيتها تكفي لاحتواء المشتريات، وأحياناً الأكياس الورقية التي توزعها المتاجر. ولكن مع تضخم حجم هذه المشتريات ووزنها، كان لا بد من ابتكار وسيلة تسهِّل عملية التسوق داخل المتاجر.

«كلما جعلت التسوق سهلاً أمام الزبون، اعتمد أكثر فأكثر على متجرك وازداد ربحك»، هذا هو المفهوم الذي جعل الأمريكي سيلفان جولدمان يفكِّر بطريقة ما تسهِّل حركة الزبائن أثناء تسوقهم وتغريهم باختيار أكبر قدر ممكن من الأصناف من دون أن يكترثوا لثقلها. وفي عام 1936م، صمم جولدمان كرسياً خشبياً قابلاً للطي، وزوَّده بسلتين فوق بعضهما، ثم أضاف أربع عجلات للكرسي كي يصبح متحركاً. ومن ثم عمل على تبسيط اختراعه بعض الشيء، فصمم سلتين من الأسلاك المعدنية فوق بعضهما البعض، وطرحها للاستعمال في متجره الخاص سنة 1937م، ونال براءة اختراعه هذا سنة 1940م.



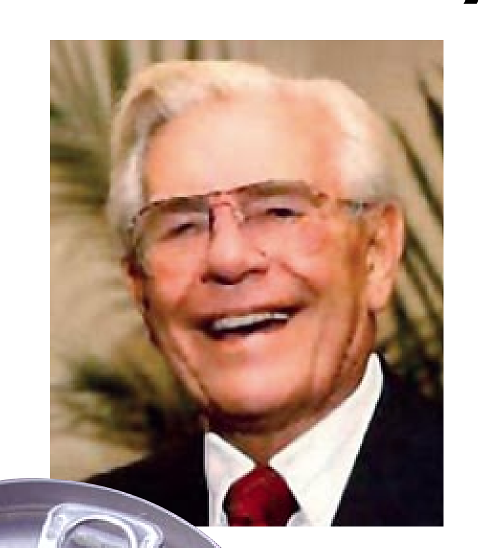
وأثمرت الجهود التي بذلها جولدمان في التعريف بابتكاره، الذي لقي رواجاً كبيراً، مما دفع المبتكر إلى إنشاء مصنع خاص لهذه العربات التي أصبحت السلعة الرئيسة التي يبيعها وجعلت منه مليونيراً.

وراجت عربات التسوق أينما كان في العالم من المخازن الكبرى إلى البقالات الصغيرة. ولم يعد استعمالها حكراً على متاجر المواد الغذائية، بل دخل أيضاً إلى معظم المتاجر على اختلاف أنواعها وصولاً الى بعض المكتبات. إذ، بموازاة عربة التسوق التي تسير على عجلات تم استنباط السلال الصغيرة التي تحمل باليد للتسوق المحدود حجماً. ولهذه الأخيرة وظيفة أخرى غير إراحة المتسوق. فهي أيضاً تسحب الذرائع من الذين تسوِّل لهم أنفسهم أن يضعوا مشترياتهم في جيوبهم لأنهم لا يستطيعون حملها كلها في أيديهم...

وفيما ينتهي دور سلة التسوق أمام صندوق المتجر، فغالباً ما يسمح للعربة بالخروج من المتجر وصولاً إلى مواقف السيارات. على أن يعمل بعض الموظفين في المتجر نفسه على جمع العربات من الخارج وإعادتها إلى مدخل الزبائن.

قصة مبتكر

إيرمال فريز



ولد إيرمال فريز في ولاية أنديانا بأمريكا عام 1913م، وتربى في إحدى مزارعها، قبل أن يتحول إلى عَلَم من أعلام الصناعة الأمريكية، لا بسبب نشاطه في الصناعات الحربية، بل بسبب ابتكار في غاية البساطة.

فقد انتقل هذا الرجل من المزرعة العائلية في أنديانا إلى ولاية أوهايو حيث بدأ العمل كمشغِّل لإحدى الآلات في أحد المصانع. ثم استدان بعض المال من زوجته لإنشاء شركته الصناعية الخاصة لصنع الأدوات، خاصة أن الحرب العالمية الثانية أوجدت حاجة كبيرة لمثل هذه المنتجات، شأنها في ذلك شأن كل إنتاج صناعي آخر.

عرفت شركة فريز، الحاصل على شهادة في الهندسة من معهد جنرال إلكتريك، نجاحاً مهماً. وفي العام 1959م، دخل الرجل في مشروعات ناجحة كثيرة مع عملاء من مستوى شركة فورد وجنرال إلكتريك ووكالة الفضاء الأمريكية. ولكن السنة نفسها شهدت ابتكار فريز لأداة ستكون مصدر ثروته الكبرى.

فعندما كان هذا الصناعي الكبير ذات يوم في نزهة عائلية مع الأصدقاء، انتبه إلى أنه قد نسي فتَّاحة المشروبات الغازية في البيت، فاضطر لاستعمال أداة من أدوات تصليح السيارة لفتح العلبة. وذات ليلة، لم يستطع فريز النوم، فقرر الذهاب إلى مصنعه للعمل. وهناك أتته فجأة فكرة فتَّاحة العلب المعدنية.

ابتكر أولاً ذراعاً معدنياً قادراً على قص معدن العلبة وفق خط مستقيم يتم حفره على سطحها الخارجي. ولكن أطراف هذه الأداة كانت حادة وتتسبب بجروح بالغة للأطفال. فطوَّر اختراعه في عام 1962م ليجعله آمناً أكثر. فقام بإلصاق حلقة صغيرة كالخاتم بالذراع المعدني على سطح العلبة، بحيث يتم سحبها إلى الوراء من غير نزعها كلياً.

وفي العام 1963م، حصل فريز على براءة اختراع هذا النمط من فتاحات العلب، وباعه إلى إحدى شركات إنتاج المشروبات الغازية. ومن ثم راح يصنِّع أنظمة مماثلة لمختلف الصناعات الغذائية. وما أن حل عام 1980م حتى كانت شركته هي الرائدة عالمياً في هذا المجال، ووصل دخلها إلى 500 مليون دولار سنوياً. وتطور انتشار استخدام الفتَّاحات المرفقة بالعلب سواء أكانت مشروبات غازية أو أطعمة معلبة، حتى طغت على الفتاحة المنفردة.

وعندما توفي فريز في العام 1990م، ترك وراءه شركة عملاقة ذات فروع عديدة ما بين أمريكا وألمانيا، قامت كلها على ابتكار فتَّاحة العلب المرفقة. 

اطلب العلم

أسئلة الملاريا

سلمان صالح السلمان*

عادت الملاريا.. إلى دائرة الأضواء الإعلامية بالطبع. لأن هذا المرض لم يختفِ حتى نتحدث عن عودته.

ولكن، فجأة، كثر الحديث عن هذا المرض وعن الأعداد المرعبة من الضحايا التي يفتك بها، وكأنه وباء جديد مع أنه ليس كذلك على الإطلاق.

والحديث عن هذا المرض هو لمناسبة السعي إلى وضع لقاح يقي منه، رغم التاريخ الطويل الذي مرَّ على وجوده وفتكه بملايين البشر.

تقول دراسات الأمم المتحدة إن الملاريا تتوطن حالياً في نحو 100 دولة، معظمها من أفقر دول العالم، وتؤدي إلى وفاة أكثر من مليون شخص سنوياً، من أصل 500 مليون يصابون بها. والأدهى من كل ذلك، وما يكشف الكثير من الغموض، هو أن 90% من هذه الوفيات تقع في إفريقيا.

أما في الشرق الأوسط، وإن تحسن الحال مؤخراً عما كان عليه قبل سنوات قليلة، فلا يزال عدد الذين يصابون بالملاريا يزيد على مليوني نسمة سنوياً.

نسبة وفيات الملاريا هي إذن ثلاثة أضعاف الوفيات بمرض الإيدز الذي يثير الرعب عالمياً والكثير الكثير من الاهتمام والضوضاء والأضواء.

ومن دون الدخول في المسائل العلمية حول صعوبة اكتشاف لقاح يقي من الإيدز مقارنة بلقاح ضد الملاريا، يمكننا الجزم بأن الجهود التي بذلت في مجال الوباء الأول هي أكبر بكثير من غيرها. ولا تفسير للأمر سوى أن ضحايا الوباء الأول يختلفون عن ضحايا الوباء الثاني.

المخجل عالمياً فيما يتعلق بالملاريا، هو أن الجهود العلمية الجدية في مكافحتها توقفت في منتصف القرن العشرين عندما اكتشف دور «النيفاكين» في الوقاية منها. وفي حين استمرت مختبرات الأبحاث ومصانع الأدوية في العمل على اكتشاف وابتكار آلاف وآلاف المستحضرات الصيدلانية التي تتجاوز في تنوعها حتى صفة الدواء لتصل إلى مستوى الكماليات الموجهة إلى حفنة من نخبة البشر.. يبدو أن الملاريا كانت طي النسيان والإهمال.

والمخجل أيضاً فيما يتعلق بالملاريا، هو إمكانية الشفاء منها في حال التوصل إلى التشخيص السليم في الوقت المناسب، وعلاجها قبل فوات الأوان.ولكن الأمر يتطلب أطباءً ومستشفيات، وقبل كل ذلك مرضى في جيوبهم من المال ما يكفي لذلك.

ولعل العامل الأخير هو ما يفسِّر مصيبة العالم مع الملاريا. مصيبة قد تتجاوز البعوضة الناقلة والجرثومة المسببة للمرض، مصيبة لن يكون المصابون بالملاريا وحدهم ضحاياها. مصيبة تكمن في فقدان مفهوم التقدم والتطور وجهته التي كنَّا وما زلنا نفترض أنها يجب أن تكون: مصلحة الإنسان.

* كاتب من الكويت

عفوية العفوية!

الشائع اعتبار العفوية تصرفاً إنسانياً يتم بمنأى عن سلطة الوعي الذي يقيس الأشياء من مختلف جوانبها قبل الإقدام عليها. ويُستنتج من ذلك أن العمل العفوي يفتقد إلى التحكم، وينتج عن نوع من التسيب أو رد الفعل اللامبالي أو التفلت من أجهزة التصويب التي يمتلكها الإنسان. وهذا يؤدي أيضاً إلى اعتبار العفوية حركة «ابنة ساعتها» تحصل دون تهيئة وجهد وتحضير. إلا أن حقيقة «العفوية» -تلك العفوية التي تحمل عطاءً رفيعاً من التعبير مهما كان شكله- هي غير ذلك.

وهذه الانطباعات جميعها لها ما يبررها، فالتعبير العفوي يظهر فعلاً وكأنه يحدث «عفو الخاطر»، وبأنه ابن لحظة معينة وحسب. ويعزز من هذا الانطباع الخادع براعة، الكثير من «العفويين».

فالتعبير العفوي ليس عفوياً للدرجة التي يبدو عليها. وإذا كانت للعفوية سمة الحدوث دون مقدمات، أو أنها تتم كتعبير يتصل بموقف طارئ، إلا أن المادة التعبيرية التي تتكون منها إنما يتم استقاؤها من مخزون حسي ثري ومعقَّد داخل النفس الإنسانية. وبقدر ما تلعب «اللحظة» دور المحرك للمشاعر التي تُخرج هذا التعبير، بقدر ما يفعل التعبير في «مادة تلك اللحظة» ليعبِّر عما هو مختزن في النفس على امتداد زمن طويل وبتراكم تفاعلي ومعقَّد. وإذا جاز القول إن «اللحظة» تغني نفسها عبر التأثير في نفس هذا المبدع أو ذاك، كذلك فإن هؤلاء يستخدمون اللحظة كي يحملوا تعبيرهم هذا مكنونات أنفسهم ورؤيتهم ومشاعرهم بما قد يتجاوز ظروف «اللحظة».

ويخطئ من يظن أن هذا التعبير خالٍ من الحضورالنفسي الواعي أو التحكم الفكري الناضج. فمصدر هذا التعبير مكونات حسية وفكرية تراكمت في النفس وخضعت لفعل الفكر والإحساس، ولمراجعات واعية وغير واعية لتصبح مادة ثرية ومؤثرة.

وفي لحظة اجتماعها وتهافتها لتكوِّن في «اللحظة» ذاك التعبير الموفق الذي يكتسب إعجاب المتلقين، فإنها تمر في مسيرتها عبر مخارج، تخضعها للتدقيق والتهذيب. إن «التعبير العفوي» ليس تعبيراً فاقداً لعوامل التحكم، بل ربما يكون أكثر أشكال التعبير خضوعاً لها. لكن عناصر التعبير العفوي هذه وصلت إلى درجة من النضوج والصفاء ما حررها من سمات الصنعة والتكلف. وما قد يبدو على التعبير العفوي من سهولة ويسر الحدوث خادع أيضاً. إذ إن لحظة التعبير العفوي قد تستنفر الطاقة النفسية والعصبية بكثافة وترفعها إلى توتر لا يستطيع قياسه إلا صاحبها.

إذا كان نقاش أية سمة من سمات النفس الإنسانية عاصياً على التبسيط وتجريدها من العناصر النفسية الأخرى قد يجانب الحقيقة في وجه من وجوهه، فإن ذلك ينطبق على هذه السمة الإنسانية أكثر من غيرها. فتلك العفوية المتصلة بالتعبير الإنساني الخلاَّق ربما تكون أكثر تعقيداً وأصعب وصفاً وتشريحاً من غيرها. لأنها قد تكون أسمى هذه السمات، ولا يجوز أن تترك للانطباعات السهلة. خاصة أنها من الصفات التي يتزايد استخدامها وإطلاقها في حياتنا اليوم أسوة بصفات أخرى لا تقل مكانة، كما أنها لا تقل صعوبة على المعرفة اليقينية، مثل الإبداع والرؤية الخاصة وغيرها. وقد تعرضت جميعها لتأثيرات الثقافة السهلة.

كميل حوا

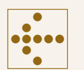


عادل قريشي

أوانٍ نحاسية.. كانت ذات يوم للمطبخ

يشهد المطبخ العربي، كما هو الحال في معظم بلدان العالم على الأرجح، تحولات تسللت إليه ولا تزال، ببطء وصمت، غير أنها جرفته بعيداً جداً عن ذلك المطبخ الذي عرفه أجدادنا، وحتى كبار السن من أبناء جيلنا. شوقي الدويهي* يجول بنا في أرجاء المطبخ العربي، ليطلعنا على ما تغيَّر فيه وما طرأ على مأكولاته وآنيته من تغيرات بدأت في عصر الفخار ولم تنته فصولاً مع الميكرويف.

تحوّلات المطبخ وآنيته
من الفخار إلى المايكروويف



بداية، لا بدَّ من الإشارة إلى أن الكلام عن مطبخ هذا البلد العربي أو ذاك هو كلامٌ فيه شيء من المبالغة إن لم نقل من التعسُّف. ذاك أن مطابخنا سواء اللبناني منها أو السوري، أو العراقي، أو الخليجي، أو المصري، أو المغربي الخ... هي، في الحقيقة، خليط من مطابخ عديدة وفدت إلينا عبر حقبات زمنية وامتزجت بما كانت عليه مطابخنا التقليدية بحيث بتنا نعتبرها جزءاً لا يتجزأ من هذه المطابخ.

من هذا المنطلق قد يحصل أن تستقر هوية مطبخ شعب ما فترة زمنية قد تطول أو تقصر تبعاً لحجم عملية التداخل ووتيرتها. فإذا صحَّ أن التداخل هذا كان في الماضي بطيئاً إن لم نقل معدماً بسبب ضحالة انفتاح الشعوب والثقافات على بعضها البعض، فالواضح أن الأمر هذا قد طرأت عليه تحولات كبيرة نتيجة الانفتاح الكبير الذي شهده العالم مع نشوء الرأسمالية وما رافقها من حركات استعمارية كان لها الأثر الكبير في تغيير أنماط عيش الشعوب المستعمرة، فضلاً عما نشهده اليوم في ظل نظام العولمة وما استتبعها من أفكار وسلوكيات وأذواق.

وإذا كان من الصعوبة بمكان تحديد الفترة التاريخية التي بدأت فيها بعض الأطعمة، سواء الغربية منها أو غير الغربية، تشق طريقها إلى بلداتنا التي كانت منذ القدم معابر لشعوب عديدة ومحط رحال لها، يبقى أن هذا «الغزو» إن جاز القول، قد تجلى أكثر ما تجلى بدءاً من القرن التاسع عشر نتيجة التدخل الغربي في هذه المنطقة على أكثر من صعيد. وفي هذا الإطار لا بد من التأكيد على أن معلوماتنا عن الحقبات السابقة للقرن التاسع عشر هي معلومات لا يُعتد بها، ذاك أن المؤرِّخين المهتمين بتلك الحقبات نادراً ما تناولوا ثقافة حياتنا اليومية ومنها تحديداً «المطبخ».

منفذ التحولات: المدن المتوسطية

إن التحولات التي طرأت على مطابخنا لم تطل مناطقنا لا بالوتيرة نفسها ولا بالحجم نفسه. ذاك أن بعضها

* صحافي من لبنان



الفخار والنحاس والحجر.. مادة الآنية الأساس أيام زمان

كان أكثر قابلية لاستقبال الوافد من الخارج، مهما كانت طبيعة هذا الوافد. ولهذا لم يكن مستغرباً أن تكون مدننا المتوسطية مرسى لكل جديد، فيما كانت مناطقنا الداخلية والصحراوية أشد ممانعة على هذا الصعيد، أو بكلام أدق أشد محافظة على ما هي عليه من عادات وتقاليد بسبب قلة احتكاكها بالخارج. وقد لا يكون الموقع الجغرافي هو وحده الذي يقف وراء استقبال ما هو وافد من الخارج أو عدم استقباله، ذاك أن بعض الأقليات على سواحل المتوسط كانت بحكم علاقاتها الحميمة بالثقافة الغربية أكثر قابلية في تبني هذه الأخيرة.

إذن كانت المدن المنتشرة على شاطىء المتوسط، النافذة التي دخلت منها الأطعمة الغربية إلى هذه البلدان، ذاك أن المدن هذه كانت شأنها شأن بعض المدن التركية مثل أزمير وسالونيك واسطنبول، محط رحال جاليات كثيرة منها الفرنسية والإيطالية، واليونانية، والروسية، فضلاً عن التركية، الأمر الذي وسم هذه المدن بميسم الكوزموبوليتية مع ما تعني هذه التسمية من أساليب عيش وأنماط تفكير.

المطبخ التقليدي للأهل، والوافد للأبناء

ضمن هذا السياق كان من الطبيعي تبعاً لهذا التداخل بين بُنية مطبخية تعود في جذورها إلى أزمنة غابرة، وبُنية مطبخية وافدة، أن تتعرَّض بعض أنواع المأكولات إلى التهميش تدريجاً، وبعضها الآخر إلى الزوال. أو بكلام أدق في طريقه إلى الزوال. وفي كل مرة كان يحل مكان ما يهمَّش أو ما يزول مأكولات جديدة متنوعة المصادر، منها ما هو تركي وتحديداً «اليخاني» ومنها ما هو يوناني، وإيطالي، وفرنسي، وأرمني...

وهذه المأكولات التي كان مرساها الأول المطاعم، لم تلبث بعد فترة من الزمن أن أصبحت شيئاً فشيئاً من المأكولات التي تحضَّر في المنازل. وأدَّى هذا الأمر إلى تعايش نوعين من الأطعمة: واحد «تقليدي» والآخر «وافد». وقد أحدث هذا التعايش بصورة تلقائية فرزاً بين أفراد العائلة بحيث أمسى المطبخ التقليدي مطبخ الأهل، فيما أضحى المطبخ الوافد مطبخ الأبناء. وكان من الطبيعي والحال هذه أن نشهد فورة كبيرة في اقتناء الكتب المطبخية التي

تغلب فيها وصفات الأطعمة الأجنبية. ومن يلقي نظرة على هذه الكتب التي صدر أولها في الخمسينيات بقلم أشهر الطباخين يومذاك «الريِّس»، وتلك التي صدرت تباعاً، يمكنه بسهولة رصد أنواع المأكولات الأجنبية التي وفدت إلينا.

إن ما تقدَّم لا يعني البتَّة أن الظاهرة هذه طالت في الوقت نفسه جميع فئات الشعب. فقد سبق أن ذكرنا أن أهل المدن تحديداً هم من تيسَّر لهم تلقفها، أي الذين كانوا يتردَّدون إلى المطاعم التي تقدِّم الأطعمة الأجنبية. أما الذين كانوا يقيمون في الأرياف والنواحي البعيدة عن المدن، فقد تطلب الأمر سنوات عديدة للاطلاع على مثل هذه الأنواع من المأكولات التي لم تلقَ في البداية استحساناً من قبل الأهالي الذين كانوا (ولا يزال البعض منهم) ينعتون من يستهلكها بـ «التفرنج». وقد ذهب بهم الأمر أحياناً إلى وصمها بأنها «غير مغذية» ذاك أن المغذي من وجهة نظرهم هو الطعام «البلدي». وللتأكيد على وجهة نظرهم لم يكونوا يتوانون عن دعم موقفهم باللجوء إلى الأمثال الشعبية التي تؤكد على ما يذهبون إليه. وهذه الممانعة التي يُبديها شعبٌ من الشعوب أو بعض فئاته هي من طبائع البشر حين ينزل بهم ما هو غريب عن ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وفي هذا السياق لا يقتصر الأمر على الأطعمة فقط، إنما يطال أموراً أخرى. فعلى سبيل المثال قامت ضجة كبيرة في بيروت عام 1926م عبَّرت عن نفسها في الصحف والمجلات يوم بدأت بعض السيدات بقص شعرهن «قصة الغلام» (A La Garçonne). وما ينطبق على قصة الشعر ينطبق أيضاً على أشكال الزي الجديدة، وعلى فن الطبخ أيضاً.

> **المطبخ أصبح مفروزاً بين أفراد العائلة الواحدة: التقليدي للأهل و «الوافد» للأبناء**

التحولات تطال الآنية و «نارها»

والحال أن هذه التحولات التي طرأت على البُنية المطبخية استدعت بدورها تحولات في بُنية آنيتها. فمن المعروف تاريخياً أن الآنية المطبخية مرَّت خلال القرن المنصرم بمراحل أربع: المرحلة الفخارية، والمرحلة النحاسية، ومرحلة الألومنيوم، وأخيراً المرحلة الحالية التي تتميز بطغيان واضح للستانلس ستيل. والمعروف أيضاً أن كلاً من هذه المراحل كان لها مصدر لـ «نارها»، أو بكلام أدق للطاقة التي تتلاءم وطبيعة معدنها. فالحطب كان مصدر نار المرحلة الفخارية، والكاز مصدر المرحلة النحاسية، والغاز مصدر مرحلة الألومنيوم ومرحلة الستانلس ستيل.

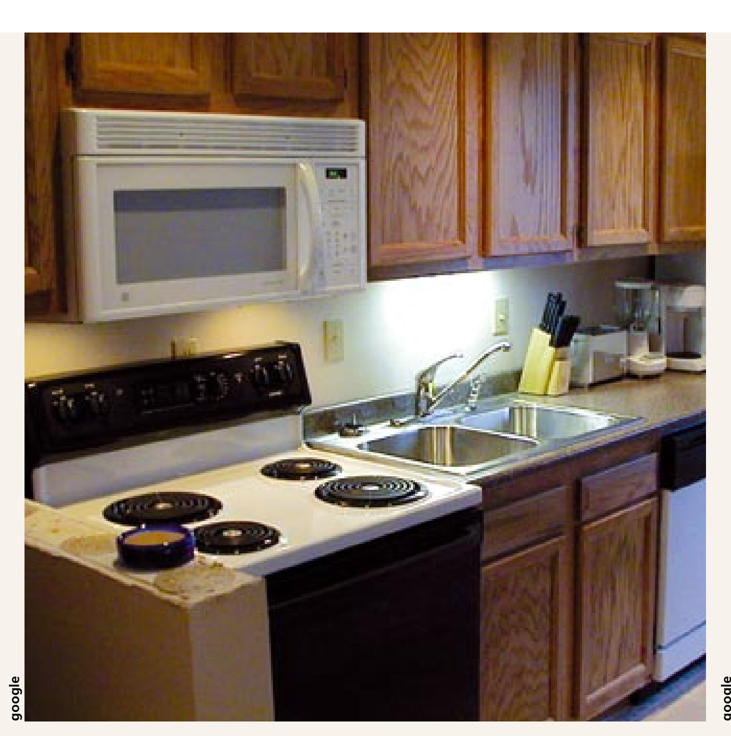
نتيجة هذا الأمر بدأنا نشهد غياباً للموقد، و«البابور» اللذين شكَّلا في مرحلة من المراحل عدة المطبخ الأساسية. وكان لهذا التحول أثره الكبير على حياة المرأة، ربة المنزل، بحيث أدَّى إلى «تحريرها» نسبياً من أعباء الاعتناء المتواصل بوقد الحطب والاهتمام بالبابور. فبعدما كان قسم كبير من ساعات نهارها يتمحور حول هاتين الوسيلتين، أمستِ المرأة مع الوسيلة التي تعتمد على الغاز أكثر تحكماً بوقتها.

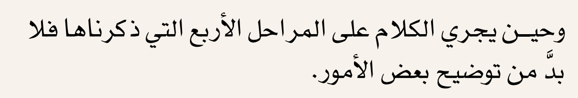


..من النحاس إلى الستانلس ستيل

أرشيف المحترف السعودي






حطب، فكهرباء، فالموجات القصيرة جداً

وحيـن يجري الكلام على المراحل الأربع التي ذكرناها فلا بدَّ من توضيح بعض الأمور.

آنية تقاوم التحولات

فالواضح أن تتالي هذه المراحل لم يكن تتالياً يقطع بوضوح كلي مع ما سبق كلاً منها وما تلاها بحيث يمكننا في الواقع الكلام عن حقبة فخارية صـرفة أو نحاسـية صرفة، الخ... إنمـا على العكس فقد كان هناك نـوع من التعايش بين هذه المراحل وأدواتها.

والتعايش هـذا أدَّى من ضـمن مـا أدى إليه، إلـى أمرين اثنين. إما إلى تهميش قسـم من آنية تنتمي إلى طور سابق لصـالح الطور الـذي يليه، بمعنى أن اسـتخدامه يصـبح قصـراً على جزء مـن البُنية المطبخية. هـذا ويقف وراء الرواسـب الآتية من طور سـابق، وبالتالي اسـتمرارها في الطـور الجديـد، جملة مـن الأسـباب يمكن اختصـارها باثنيـن: ارتباط بعض المأكولات بآنيـة بعينها بحيث يبدو تناولها بنوع آخر من الآنية بمثابة خروج على المألوف. بل أبعد من ذلك فإن تناولها بالآنية المخصصـة لها يُضـفي عليهـا مذاقاً لا توفره آنية أخرى. والمثل الأوضـح في هذا المجـال وجبة الفول المقدمة في صـحن مـن الفخار، أو البيض المقلـي. وما ينطبق على بعض المأكولات ينطبق أيضـاً على شُـرب المياه أو الشاي. فشُـرب المياه بإبريق مـن الفخار يُضـفي، هو أيضـاً، على هذه الأخيـرة مذاقاً طيباً بحسـب من لا يزالون يستخدمونه، وشرب الشاي في «العجمية» (وعاء صـغير من الزجاج) يبـدو وكأنه ملازم لهذا النوع من الشراب.

أما السـبب الثاني في اسـتمرار بعض الآنية التي تنتمي إلى مراحل سـابقة فمردّه أن بعض المأكولات التي تتطلب وقتاً طويـلاً لكي تنضـج تتـلاءم وآنية مـن معدن معيـن. فإبان طغيـان الألومنيـوم علـى الأدوات المطبخية، وبسـبب من هشاشـة معدنه، كان يتم اللجوء إلى الأدوات النحاسية من طناجر ودسوت لتحضـير الهريسة، والقمح المسلوق، ورب البندورة، والغنمة، والورق عريش الخ...

هـذا فيما يتعلق بالجانب الأول مـن التعايش. أما الجانب الآخر فينتمي إلى نصـاب مُغايـر تماماً، بمعنى أنه يخرج آنية طور من الأطوار من دائرة الاسـتخدام ويُضفي عليها بالتالي وظيفـة هي غير وظيفتها الأساسـية، أي الوظيفة التي صـنعت أصـلاً من أجلها. ولنا في هذا المجال أكثر من مثل. فبعدما كانت الآنية الفخارية أو النحاسية تشكل صـلب البُنية المطبخية أمسـت منذ عقـود أدوات للزينة ليسـ إلا. وإذا لم يقـدر للألومنيوم لعب هـذا الدور ففي اعتقـادي أن الأمـر يعـود إلى طبيعـة المادة التـي يتكون منهـا، وهي بالمناسـبة مـادة شـديدة العطب. من هنا نلاحظ أن طناجر الفخار والنحاس قد تحوَّلت إلى أوعية لزراعة بعض الشتول أو الأزهار، والصدور النحاسية إلى لوحـات تعلق علـى الجـدران، والخوابي إلى مجـرد زينة في إحـدى زوايا المنزل أو في الحدائـق. لذا، فإن الذين يشترون اليوم مثل هذه الآنية إنما يشترونها لهذه الوظيفة وحسب.

آنية تتطلب حسن تصرف

مـن جهة أخـرى، فـإن الانتقال من طـورٍ إلى طـور آخر

قد أفضى في كل مرة إلى تنوّع فيما يتعلق بالآنية، كما أفضى إلى زيادة حجمها. سابقاً كانت العائلات تكتفي بعدد قليل منها، ذلك لأن أفرادها كانوا يستهلكون جلَّ أطعمتهم في أوعية مشتركة الأمر الذي لم يكن يتطلب توافر الكثير منها. صحيح أننا لا نزال حتى اليوم نتناول بعض مأكولاتنا في صحن مشترك كما هو الحال بالنسبة للحمص، واللبنة والمتبل الخ... غير أن هذا الأمر لا يعدو كونه راسباً من رواسب مرحلة سابقة. إضافة إلى ذلك، لم يكن الأمر يقتصر على طريقة تناول الطعام بل أيضاً على شُرب المياه، إن في إبريق من الفخار ومن ثم في إبريق من الزجاج. وهذا الأمر يُفسِّر الغياب شبه التام للأكواب التي لم تصبح جزءاً من آنية المطبخ إلاَّ فيما بعد.

هذا وعندما نقول إن التحوّلات التي طرأت على الآنية وأدَّت إلى تنوعها وحجمها فهذا لا يعني أن بُنية الآنية التقليدية التي هُمِّشت تدريجياً لم تكن هي أيضاً على قدر من التنوع، وهو تنوع لم يطل الآنية بحد ذاتها إنما جعل البعض منها يستخدم لأكثر من غرض. إذ بدلاً من أن يكون لكل آنية وظيفة محددة كما هو الحال اليوم، كان بعض الآنية يقوم بوظائف عديدة. فالآنية التي كانت تستعمل للاستحمام كانت تستعمل أيضاً في تحضير بعض المأكولات. فعلى سبيل المثال كان «الدست» الذي يستخدم في غلي المياه للاستحمام يستخدم في سلق القمح لتحضير البرغل، كذلك، «اللكن» الذي كان يستخدم لعجن الطحين كان يستخدم أيضاً لغلي الثياب، أو لتحضير ربّ البندورة ، والمربيات على أنواعها.

بموازاة التحولات التي طرأت على الآنية، ظهر تنظيم للمائدة لا عهد لنا به

وفي سياق التحولات المذكورة جرت عملية تنظيم للمائدة لا عهد لمجتمعاتنا بها، وظهرت بالتالي طريقة جديدة في تناول الطعام. ومن علامات هذا التجدد الذي طال أول من طال البورجوازية المدينية ظهور الشوكة والسكين والصحن المخصصة لكل فرد على حدة. ويبدو أن تقنية استخدام كل من الشوكة والسكين طرحت في البداية مشكلة على من حاول اعتمادها. لذا لجأت بعض الصحف والمجلات الصادرة أواخر القرن التاسع عشر، وتحديداً مجلة «ثمرة الفنون» إلى تخصيص زاوية خاصة تشرح فيها كيفية استخدام هذه التقنية الجديدة، أي استخدام الشوكة باليد اليسرى والسكين باليد اليُمنى، كما خصصت «باباً» لما يسمى «حسن التصرف» و «آداب المائدة».


أدوات المائدة.. تطور بطيء، واعتبارات ثقافية

أرشيف المحترف السعودي

آداب تتطلب تدجيناً و تغرّب لا يزال محكوماً بالتقاليد

على الرغم من كل ذلك، لم يتم اعتماد طريقة تناول الطعام بحسب النمط الغربي كما هو معمول به في البلدان التي بلورته. (تجدر الإشارة هنا، إلى أن النمط هذا قد بدأ بالظهور في أوروبا خلال القرن السادس عشر في سياق ما يُسميه المؤرخ فرنان بروديل «فردنة العلاقات المجتمعية»).

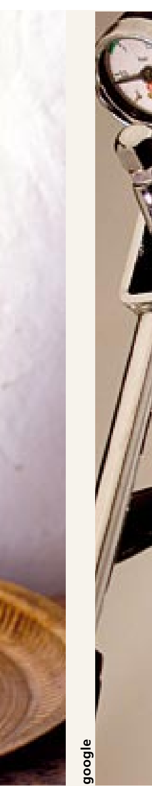
وفي هذا الصدد، يروي أحد الرحَّالة ممن قاموا بزيارة لمدينة بيروت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر كيف أن ربة المنزل التي استضافته على العشاء، والتي تنتمي إلى إحدى العائلات الأرستقراطية كانت تمسك بحبة الزيتون في يدها وتشكها في الشوكة ظناً منها أنها تأكل على الطريقة الغربية، الأمر الذي أثار استغراب الرحالة الضيف الذي يعلم مما يعرفه عن كتب «حسن التصرف» لديهم، وما تعلمه من خلال تجربته الخاصة أن مثل هذه الطريقة في تناول الطعام هي بمثابة خروج على تقاليد أصبحت راسخة في ثقافتهم. أضف إلى ذلك أن تقنية استخدام الشوكة لا تزال حتى اليوم عُرضة، خاصة في بعض الأوساط، إلى نوع من «التشويه» إن جاز القول. فهم وإن استخدموا الشوكة والسكين فهذا لا يمنعهم من اعتماد طريقة تناول الطعام على الطريقة التقليدية القائمة أساساً على تقنية «اللقمة» بواسطة اليد. وفي هذا الإطار يمكن تقديم الكثير من الأمثلة التي تؤكِّد على هذا الأمر. المهم على هذا الصعيد هو كيفية التعامل مع الوافد من الخارج، مهما كان نوع هذا الوافد، وطرق «تدجينه» بما يتناسب والعادات والتقاليد المحلية.

في هذا السياق تندرج طريقة تقديم الطعام على الطريقة الغربية، أي وفقاً لمحطات ثلاث، المدخل، والوجبة



google

أدوات صنع القهوة: الكروم والميكانيك محل النحاس المزخرف



Saudi Aramco World

الأساسية، والحلويات والفاكهة. هذا النمط في تناول الطعام الذي يقوم على قواعد شديدة الصرامة في المجتمعات الغربية لم يطبَّق تطبيقاً صارماً في مجتمعاتنا إلا فيما ندر. فبالإضافة إلى كونه يتطلب آنية كبيرة العدد الأمر الذي لم يعمم بعد على جميع فئات الشعب، فقد دخل إلى ثقافة لها نمطها الخاص فيما يتعلق بتناول الطعام، وهو نمط لا يقيم أي اعتبار للمحطات المذكورة، ذاك أن مطبخنا من هذه الزاوية هو مطبخ تتداخل فيه المحطات؛ وتحديداً ما يسمى المدخل والوجبة الأساسية.

وإذا كان لنا أن نقيم تشبيهاً لما نحن عليه في هذا المجال فقد يكون المطبخ الياباني الأكثر قرباً منا على ما يذهب إليه الكاتب الفرنسي رولان بارت. على كل حال، لا بد من الإشارة إلى أن نمط تناول الطعام على الطريقة الغربية الذي بدأ يشق طريقه تدريجياً في الكثير من الأوساط، يظل، إلى حد بعيد ، محكوماً بما تعوَّدناه تاريخياً في ثقافتنا الخاصة بآداب المائدة.

دور الثلاَّجة والبريستو والمايكروويف

وثمة تحوّلات أخرى طرأت على صعيد آنية المطبخ ولعبت دوراً كبيراً في بُنيتها. فدخول الثلاجة الذي تـمّ، على ما أعتقد خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن المنصرم، ليحل مكان قوالب الثلج، قد أدَّى إلى نشوء نمط جديد من التعاطي مع المأكولات. فقبل هذا الدخول لم يكن باستطاعة العائلة حفظ المأكولات مدة طويلة الأمر الذي كان يفرض عليها استهلاك ما لديها في أقرب وقت ممكن خوفاً من فسادها. إذن، خلافاً «للنملية» التي كان يحفظ فيها ما تبقى من طعام مدة لا تتجاوز في أقصى الحالات اليومين، جاء البرَّاد ليوفر صيغة جديدة من التموين هي غير الصيغة التقليدية القائمة أساساً على تموين الحبوب على أنواعها وكذلك المربات والكبيس. فقد أمسى باستطاعة العائلة شراء اللحوم والأجبان والخضار والفاكهة بكميات كبيرة من دون أن تكون عرضة للفساد. وقد أدَّى هذا الأمر إلى تراجع ملحوظ فيما يتعلق بالتبضُّع اليومي (تشير بعض الدراسات إلى أن الأمر هذا أثَّرَ تأثيراً كبيراً على المحال الصغيرة المنتشرة هنا وهناك في الأحياء وذلك لصالح السوبرماركت الذي أصبح المكان الذي يتم فيه التبضع الأسبوعي).

ومن التحولات الكبرى على صعيد الآنية دخول طنجرة «البريستو» التي رافقت دخول البرَّاد، والتي، كما يشير اسمها، تسرِّع عملية إنضاج الطبخة، خاصة تلك التي يتطلب إنضاجها وقتاً طويلاً. والتحول الآخر المهم هو دخول «المايكروويف» الذي أصبح منذ عقد تقريباً جزءاً لا يتجزأ من آنية المطبخ. وأهمية هذا الأخير هو كونه يقوم بتسخين الطعام الجاهز سلفاً من دون اللجوء إلى أنواع الطاقة المعروفة. كلاهما: أي «البريستو» و «المايكروويف» وفي إضافة الغسَّالة والجلاَّية اللتين تعملان على الكهرباء،



google

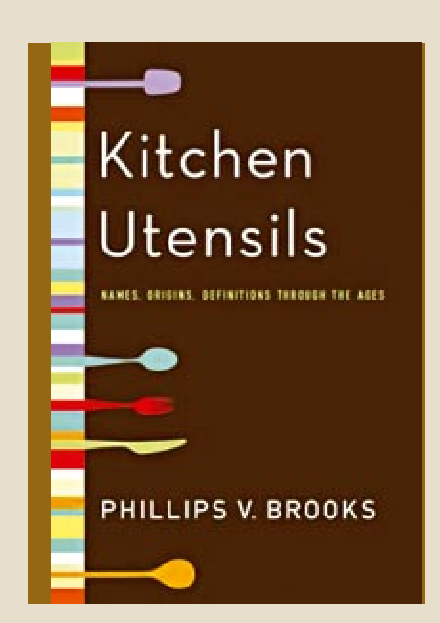
المايكروويف.. آخر العنقود في تطور تاريخي طويل

أسهما، من ضمن ما أسهما به، في تقليص الوقت المخصص لعملية الطبخ، وبالتالي إلى تحرير ربة المنزل، أو من يقوم مقامها، من الأعباء التي تحيط بعالم المطبخ. فمما لا شك فيه أن هذه الأعباء وما تتطلبه من الوقت لم تعد كما كانت عليه منذ عقود بفضل ما استجدَّ من هذه الأدوات المطبخية.

من هنا ليس مستغرباً ارتباط هذه الاختراعات من الناحية التاريخية في الغرب بعيد الحرب العالمية الثانية وخروج المرأة إلى سوق العمل بكثافة، وبالتالي تحريرها نسبياً من الأعمال المنزلية، أو بكلام أدق مكَّنها من تخصيص أوقات أقل لهذا الشأن. وقد لا نكون بحاجة إلى التذكير بأن دخول المرأة إلى سوق العمل خلال الفترة المذكورة قد جاء نتيجة الخسائر الكبيرة في الأرواح التي تعرَّض لها الذكور في تلك الحرب. كما أننا لسنا بحاجة إلى التذكير بأن الأجواء التي سادت في أوروبا غداة الحرب، وما رافقها من أفكار وعقائد فيما يتعلق بنصاب المرأة في المجتمع ودورها، لم تعد إياها التي كانت سائدة خلال سنوات ما قبل الحرب.

قد لا تكون المسارات التي حكمت تطور مجتمعاتنا هي نفسها مسارات المجتمعات الغربية فيما يتعلق بهذه التحولات. غير أن ما لا يمكن إغفاله أن النتائج التي أدَّت إليها كانت هي عينها أقله في جزء منها.

اقرأ للآنية



الأواني المطبخية: أسماؤها، جذورها، وتعريفاتها عبر العصور

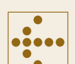
واحدٌ من أهم الكتب التي تستعرض لنا التحول والتطور الحاصلين في المطبخ وأوانيه. ويقع في 192 صفحة، يتناول فيها المؤلف فيليب بروك قائمة من الأدوات المطبخية حسب التسلسل الأبجدي من جذورها، هجرتها وانتقالها إلى أمريكا، أسماءها، استخداماتها من أوائل العصور الوسطى إلى أواخر القرن التاسع عشر.

ويحتوي هذا الكتاب الشيق على ستة فصول: يتضمن الفصل الأول تعريف أواني المطبخ. ثم يأتي الفصل الثاني معرفاً بتاريخ هذه الأواني وفي أي عصر وجدت. أما في الفصول الثالث والرابع والخامس، فيعرض لنا الكاتب كيف تحوَّلت هذه الأواني وتغيرت أسماؤها لتصبح كما هي عليها في عصرنا الحالي. وأخيراً، يعرفنا المؤلف في الفصل السادس بمختلف أشكال هذه الأواني واستخداماتها في العصور السابقة والآن. كما يعتبر هذا الكتاب قاموساً يجمع كل ما يخطر على البال من أواني المطبخ حيث يضم 375 نوعاً منها مع صور توضيحية لكل منها.

صورة شخصية

من طفولة غلب عليها البؤس والشقاء تحوَّل إلى عَلَم من أعلام الثقافة في سورية. إنه القاص والشاعر فاتح المدرِّس الذي لمع أكثر ما لمع في فن الرسم الذي ترك فيه بصمات واضحة على مستوى الوطن العربي بأسره، الدكتور أحمد زياد محبك* يرسم لنا صورته الشخصية.

فاتح المدرِّس.. طفل مظلوم لا ينسى



ولد فاتح المدرِّس في قرية حريتا في شمال سورية عام 1922م لأب إقطاعي من مدينة حلب ولأم كردية من إحدى قرى الريف. فكان هذا النسب سبباً في نقمة أسرة أبيه عليه، فنشأ في رعاية أخواله في الريف، حيث عاش حياة قاسية متنقلاً مع أمه الكردية في قرى الشمال.

كان فاتح في السادسة من عمره عندما أقدم أعمامه على قتل أبيه واستولوا على ميراثه، فعاش فقيراً، وعايش ظلم الإقطاعيين، فكره الإقطاع وتعاطف مع الفلاحين، وأحب الأرض. وبقيت صورة شقاء أمه ماثلة في ذهنه طوال عمره، وعبَّر عنها لاحقاً في صورة المرأة المعذبة التي ظهرت في أعماله الفنية، وانتشرت في أرجاء العالم كله.

الدراسة والعمل والفن

تلقى فاتح المدرِّس تعليمه في مدارس حلب، وبرزت موهبته في فن الرسم باكراً. وفي العام 1950م، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، أقام معرضه الأول في نادي اللواء بحلب، فلفت الأنظار إليه، وتم ابتعاثه إلى روما عام 1957م حيث نال إجازة في فن الرسم من أكاديمية الفنون الجميلة العليا عام 1960م. ثم إلى فرنسا عام 1971م للدراسة في المعهد الوطني العالي للفنون الجميلة في باريس.

حظيت مئات المعارض التي أقامها فاتح المدرِّس أو شارك فيها بنجاح تلو النجاح، وتكدست على صدره الأوسمة والجوائز من فلوريدا في أمريكا، إلى روما وساوباولو، وصولاً إلى عاصمة بلده دمشق. دخلت لوحاته معظم متاحف الفن الحديث في العالم. وما من متحف يعنى من قريب أو بعيد بالفن العربي المعاصر إلا وبات لزاماً عليه أن يحوي لوحة على الأقل لهذا الفنان، الذي ليس من المبالغة القول إنه كان في الربع الأخير من القرن العشرين واحداً

* أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب

من أشهر الرسامين العرب إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق.

وإلى جانب الرسم في محترفه، عمل المدرِّس أستاذاً في كلية الفنون الجميلة بدمشق. وانتخب عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، ورئيساً لنقابة الفنانين. كما أنه عضو مؤسس في اتحاد الفنانين التشكيليين العرب، وفي اتحاد الكتَّاب العرب.

لوحاته تحفظ طفولته

تأثر المدرِّس في لوحاته الفنية بالسريالية، ولكنه لم يتقيد بها، إنما كانت عوناً له على تصوير عالمه الداخلي وما فيه من معاناة قاسية عاشها في طفولته في ريف الشمال. كان يبحث دائماً عن التجديد، ولذلك سرعان ما ظهر تأثره بالتعبيرية، فقد وجد فيها ما يساعده على التعبير عن مخزونه الوجداني من خلال تصوير الموضوع الخارجي. فالطبيعة لم تعد الطبيعة، وإنما غدت صورة وجدانه الداخلي. ومن لوحاته الشهيرة لوحة عنوانها «كفر جنة»، وهو اسم قرية في الريف شمال حلب، وقد حاز بها الجائزة الأولى عام 1952م في مسابقة وزارة المعارف، وحقق بها شهرة واسعة.

والإنسان في لوحات المدرِّس مقموع مقهور، يظهر فيها كئيباً حزيناً وقد اختزل في شكل مربعات، كأنه سجين يطل من كوة ضيقة. وتظهر الطبيعة في لوحاته من منظور مائل والإنسان ملتصق بها في وضع مأسوي قلق، والطبيعة عنده امتداد للريف الذي عاش فيه طفلاً.

ويصف سلمان قطاية فن المدرِّس فيقول: «الأرض كما يرسمها فاتح المدرِّس في لوحاته حمراء قاتمة كأنها عجينة من التراب والدم المسفوح على تلك السهول الشاسعة دفاعاً عن الأرض وعن الإنسان خلال آلاف السنين ...أو أنها أحياناً سوداء محمرة كعين أصابها سوء فانقلبت تصب شواظاً وحمماً على من حاول أن يدوسها».

الأديب والشاعر

وإلى جانب الرسم الذي حلَّق فيه، نشر فاتح المدرِّس مجموعة قصصية ومجموعتين شعريتين. فقد كتب القصة في الخمسينيات، ونشر خمساً منها عام 1981م في مجموعة حملت عنوان إحدى القصص وهو «عود النعنع»، وهي من أشهر قصصه، وتصور الفتاة الريفية الصغيرة «عالو» وهي تمضي تحت الشمس الحارقة إلى بيت الآغا تتوسل إلى زوجته كي تمنحها حبة «كينا» لأمها المريضة. ولكن زوجة الآغا تطردها، وتنصحها ساخرة بأن تقطف لأمها عود نعنع. وترجع الصغيرة خائبة تحت الشمس الحارقة، وتمر بالنهر والنسوة يغسلن الثياب فيه، فتقترب منه كي تروي ظمأها، وترى على الضفة شجيرة نعناع، تدنو منها لتقطف عوداً، ولكن قدمها تنزلق، ويخطفها التيار، وتغوص في أعماق النهر، ويتجلى لها وجه أبيها يحاول إنقاذها، وهو الذي غرق في النهر نفسه من قبل، كما يتجلى لها وجه أمها المريضة وهي تعصب رأسها، ولكنها تغوص أكثر، وهي تمسك بيدها عود النعنع.

وفي عام 1962م، طبع المدرِّس عدداً محدوداً من النسخ من ديوان شعري عنوانه «القمر الشرقي على شاطئ الغرب»، وهو ديوان مشترك مع صديقه شريف خزندار، كما أصدر مع الشاعر حسين راجي مجموعة شعرية مشتركة عام 1985م عنوانها «الزمن السيئ» ضمنها بعض قصائده النثرية، وهي تأملات في المجتمع والحياة المعاصرة.

قيل عنه، أما هو فيقول!

يصف غازي الخالدي شخصية صديقه المدرِّس، فيقول: «هو قريب للقلب بتواضعه وبساطته، وعفويته. عندما تدخل إليه في مرسمه، من دون موعد مسبق طبعاً، تجده أحياناً يعزف على البيانو، أو يكتب خاطرة فكَّر فيها للتو واللحظة، أو تجده يدعوك إلى تناول قطعة جبنة قشقوان مع نصف قدح من الشاي، قد يطلب منك أن تصنعه بنفسك على سخانة في المدخل الأول عند باب مرسمه. يبدأ الحديث عن الفن وعن الفنانين، وعن اللون وعن الموسيقى وعن الأدب وعن الفلسفة، ويكاد لا ينتهي وأنت تشعر وكأنك مسحور بكلامه الجميل المرتب الأنيق الذي فيه تلخيص لخبرات العمر في الفكر والأدب والفن والموسيقى.

ما جلست مرة مع فاتح المدرِّس إلا وتعلمت منه شيئاً جديداً، شيئاً رائعاً يلفت النظر، يجعلك تشعر بأن الحياة جديرة بأن يعيشها الإنسان».

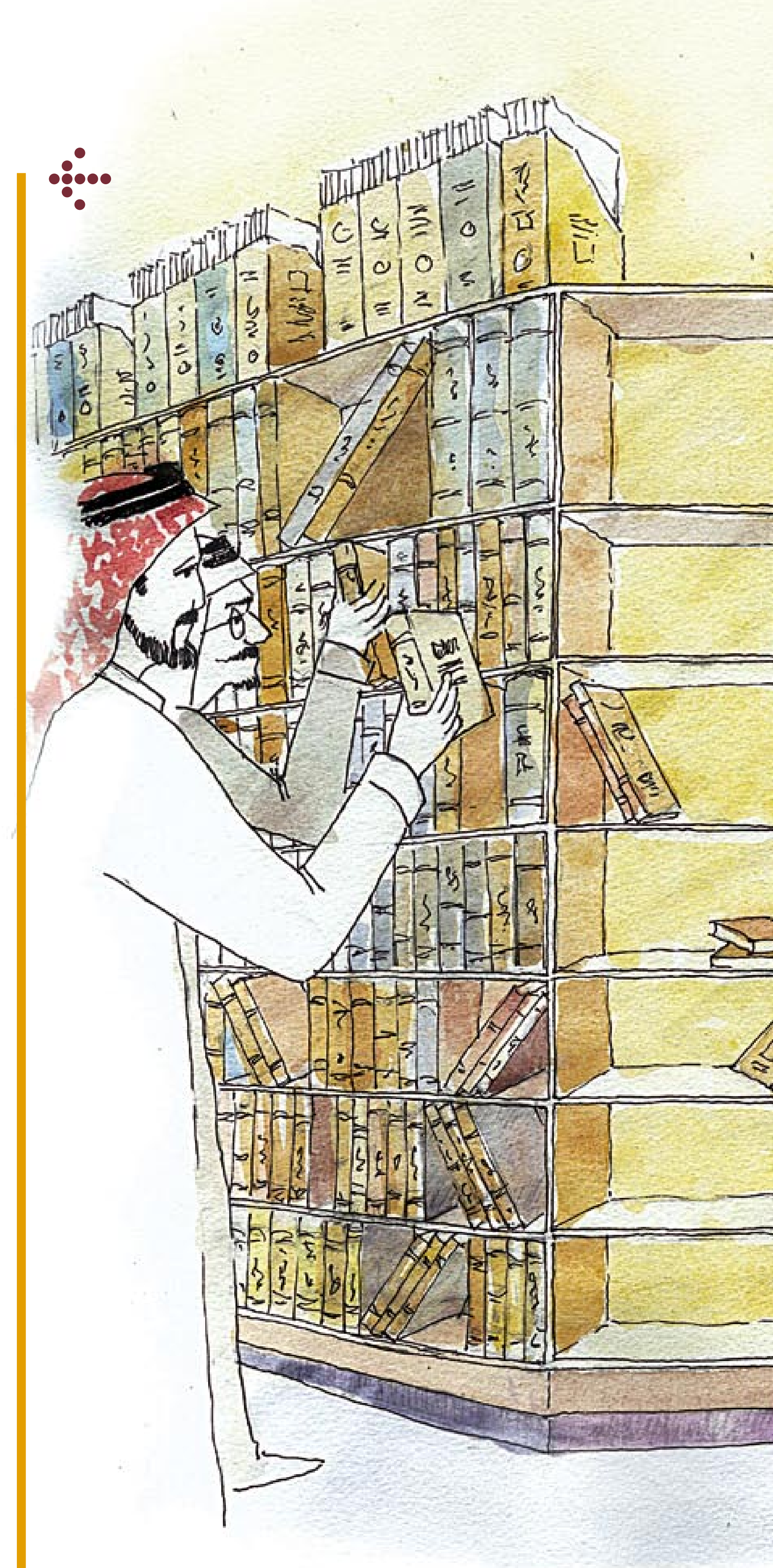
أما فاتح المدرِّس نفسه، فيتحدث عن العملية الإبداعية عنده فيقول: «عندما أرسم، أشعر بأن هناك ظلمة شديدة أطبقت على كل شيء، وأنني أخرج من نفق، وأنني أرى نوراً في داخل رأسي، وكأن ريحاً باردة تهب على وجهي، فأبتسم وأعرف أنني وصلت إلى قمة الانفعال في اللوحة، وأعرف أنها انتهت... هذا هو الإحساس في كل عمل أقوم به، وكل لوحة لا أمر بها في هذه الحالة أعتبرها عملاً كاذباً وغير ناضج».

في العام 1999م توفي فاتح المدرِّس، بعد حياة حافلة بالعطاء. فانطفأت الشعلة التي أضاءت عالم فن الرسم العربي في القرن العشرين.. شعلة اتقدت على الأرجح من عود ثقاب أحرق طفولته.



بين الأطفال والكبار فئة تستحق اهتماماً أكبر..

أدب الراشدين الصغار



بخلاف الأدب الموجه للكبار الموجود منذ القِدَم، وأدب الأطفال الذي عزَّز مكانته عالمياً منذ النصف الأول من القرن العشرين، وبلغ ذروته عندنا في الثلث الأخير من القرن نفسه، هناك أدب جديد اكتشفه الغرب قبل عقود معدودة، وراحت مسيرته تتعزز بسرعة، أما عندنا، فلايزال في خطواته الأولى. إنه أدب الشباب، الأدب الموجه إلى الراشدين الصغار الذين تجاوزوا مرحلة الطفولة، ولم يصلوا بعد إلى مرحلة نضوج الكبار.

الباحثة اليمنية هناء الحداد تُحدثنا عن ماهية هذا الأدب وتاريخه الذي بدأ في منتصف القرن العشرين ونموّه السريع، ويتناول الكاتب المغربي محمد سعيد أحجيوج التجربة العربية في هذا المجال ممثلة بسلاسل «روايات مصرية للجيب»، ويحاور استكمالاً للموضوع الكاتب والناشر محمد سامي صاحب «دار ليلى» المتخصصة في هذا المجال.

1 مهَّدت له الحاجة وأوجدته الصدفة

عندما قدَّمت جي كي رولنج الجزء الأول من سلسلة روايات هاري بوتر إلى دار «بلومزبري» للنشر، لم تكن قد حدَّدت الفئة العمرية التي يتوجه إليها الكتاب، ولكنها قدَّرت أن يكون الكتاب مناسباً للأطفال من جميع الأعمار. دار النشر المحظوظة التي قبلت مغامرة نشر كتاب قد لا يلقى نجاحاً، حدَّدت الفئة العمرية التي سيسوَّق الكتاب إليها بين التاسعة والحادية عشرة من العمر، وركزَّت على الصبية دون الفتيات، باعتبار أن بطل السلسلة صبي يحارب قوى الشر السحرية.

أهو أدب يكتبه الشباب أم يكتب لهم؟ أم الاثنان معاً؟

من مفاجآت نجاح سلسلة هاري بوتر، والكتاب الأول تحديداً، قفزة الكتاب من أيدي الصبية في المجموعة العمرية التي حددتها دار النشر، ليصبح الكتاب الأول لأولئك الفتية والفتيات بين الحادية عشرة، وحتى الثامنة عشرة. ورغم أن السلسلة لقيت وتلاقي نجاحاً هائلاً بين مختلف الأعمار، أظهرت مبيعات السلسلة التي وصلت النسخ التي بيعت منها حتى اليوم إلى أكثر من 300 مليون نسخة، أن مفتاح نجاحها الأول هو تلك الشعبية الكاسحة التي لقيتها بين صفوف الراشدين الصغار (young adults) الذين يعتبرهم ناشرو اليوم، قوة شرائية لا يستهان بها على الإطلاق، وتلي مرتبة القوة الشرائية التي يمثلها الشباب في العشرينيات من العمر.

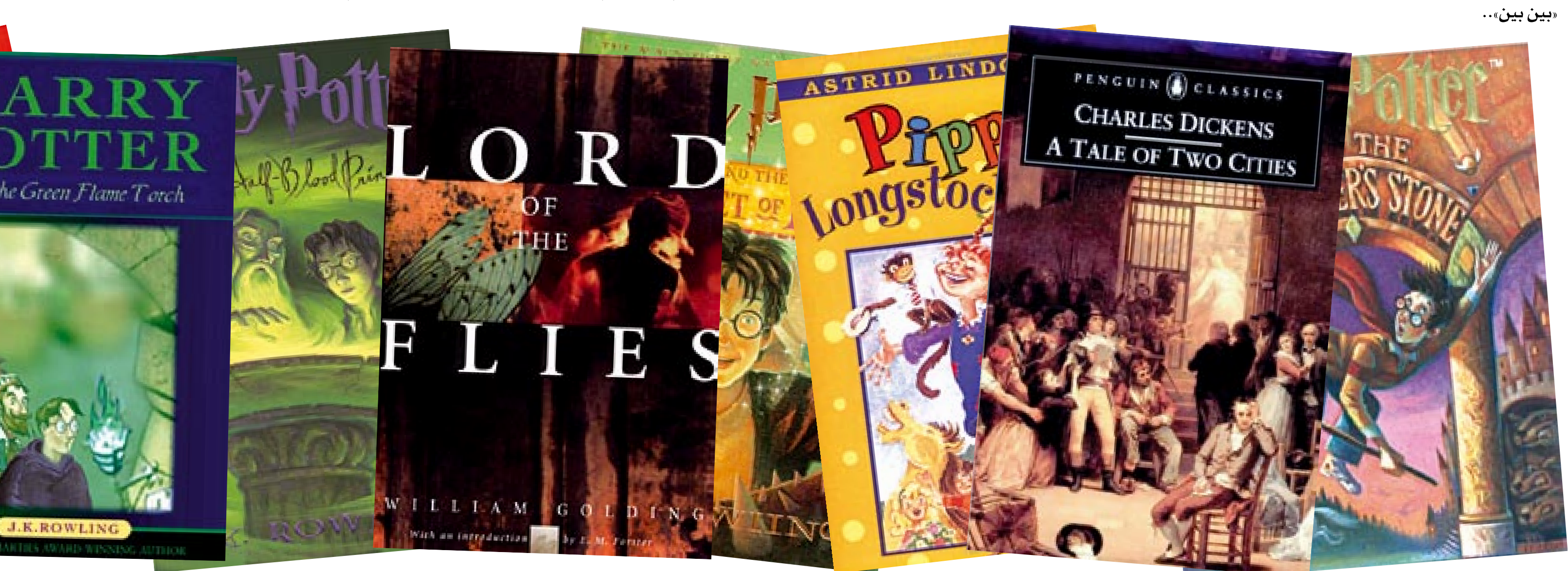
وبينما نستطيع من دون جهد معرفة ما يتوقع الراشدون قراءته في الكتب الموجهة إليهم، ونستطيع افتراض ما يريد الأطفال قراءته في المراحل الأولى من حياتهم، ولنقل حتى الحادية عشرة من العمر، إلاَّ أن مرحلة الراشدين الصغار، أو أولئك الأطفال الذين لم يعودوا أطفالاً، ولكنهم لم يبلغوا الرشد بعد، ويعيشون زخم مرحلة المراهقة الانتقالية الصعبة، تحتاج منا إلى نظرة أدق، لتجربة النشر الغربية في مجال أدب الشباب. و «أدب الشباب» هو التعبير الذي تراه كاتبة المقال مناسباً لاستخدامه في هذه السطور للإشارة إلى ما يعرف بأدب الراشدين الصغار «young adult literature» في التجربة الغربية.

أدب الشباب.. تاريخ بدأ حديثاً

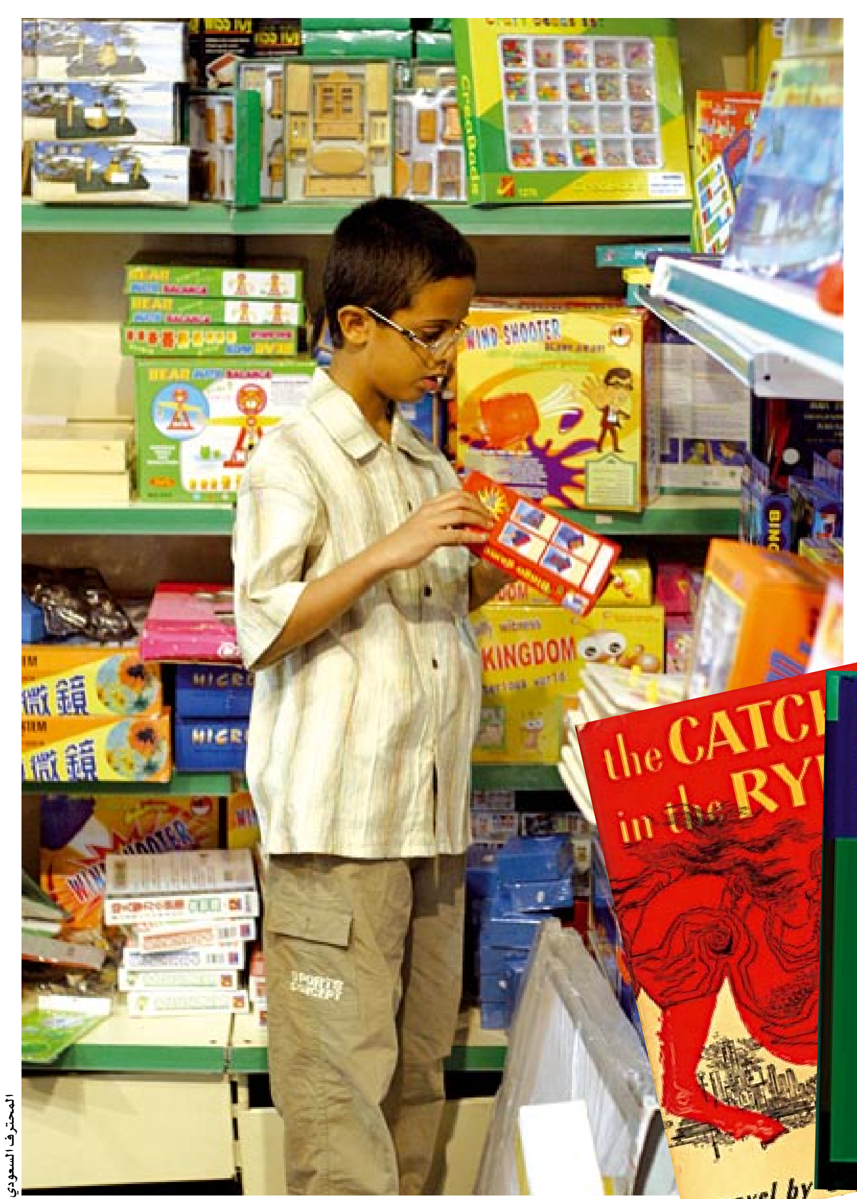
يعرِّف البعض أدب الشباب بأنه الأدب الذي يُكتب ويُنشر ويُسوَّق للشباب، بينما يعرفه الناشرون بأنه الأدب الذي يختار الشباب (بين الحادية عشرة والثامنة عشرة من العمر) شراءه وقراءته، أكان ذلك أدباً كُتب لأجلهم، أم كان قد كتب بهدف تسويقه للكبار، إلا أنه لقى رواجاً بين صفوف الشباب.

والحقيقة أن هذا الأدب بدأ على أيدي القائمين على المكتبات المدرسية والعامة. ففي الخمسينيات من القرن الماضي، لاحظ هؤلاء أن الكبار والصغار يجدون ما يريدون من كتب من دون حيرة أو تردد حال دخولهم المكتبة، بينما يتردد المراهقون على صفوف الكتب بحثاً عن كتابٍ معين تارةً بين كتب الكبار، وتارةً أخرى بين كتب الصغار. وبالتالي، خصصت المكتبات منطقة وسطاً بين كتب الكبار والصغار، تحتوي على ما لاحظوا أنه قد حاز على إعجاب الشباب، أو ما اعتقدوا أنه يمكن أن يحوز على إعجابهم. ومن تلك الكتب، كان لروايتي «سيد الذباب» و«التفاف الشاودار» اللتين صدرتا في العام 1954م أكبر الأثر في توجيه اهتمام الناشرين إلى

كتب لا للأطفال ولا للكبار، بل «بين بين»..



وجود «سـوق» محتملة لم تكتشف كلية بعد. حيث إن هاتين الروايتيـن كتبتا في الأصـل للقرَّاء الكبـار، ولقيتا بالفعل نجاحـاً في هذه الأوسـاط، إلا أن النجـاح الأكبر كان بين أوساط الشـباب بين الثالثة وحتى الثامنة عشـرة. ورغم أن الرواية الثانية، «التفاف الشـاودار» تحتوي على الكثير مـن الألفـاظ التي يأنـف المربـون أن يقع نظـر أطفالهم عليهـا، إلا أن لهـذه الروايـة بالذات أكبر الأثـر في تكوين وعي شـباب تلك الفترة، وتوحَّد الكثير من هؤلاء الشـباب مع البطل الشـاب المعذب في أعماقـه، ويحاول أن يتأقلم مع عالمه القاسـي. ولا تزال هـذه الرواية حتى الآن محط اهتمـام الشـباب، ولا تـزال نسـخها تبـاع إلـى اليوم في المكتبات. اهتمام الشـباب بهذه الرواية، وحجم مبيعاتها دفع الناشرين إلى تقديم كتب جديدة لسد حاجة الرفوف الخالية في المكتبات، وانتظـار تحقيق المبيعات الخيالية التي قدر لتلك الرواية تحقيقها.



المحترف السعودي

وعلى الرغم من أن أدب الشـباب سـمي فـي بداياته بأدب «الأحـداث» أو «literature juvenile»، وكانـت الكتـب الصـادرة تحـت هـذا المسـمى تتفـادى الطرح المباشـر لمسـائل حساسـة بالنسـبة للمجتمع، قد تطرحهـا روايات الكبار، وتكتفي بتقديم بطل شـاب يسـتطيع قـارئ الرواية التوحـد معـه، وعرض المشـكلات التـي يتعرض لهـا، أو المغامـرات التـي يقدم عليهـا، إلا أن المختصـين والعامة علـى حد سـواء يعتبرون اليـوم «أدب الأحـداث» تقليلاً من قدرة الشاب على التعامل مع «عالم الكبار» الذي يخطو إليه بخطوات سـريعة وواثقة، خاصـةً في ظل الزخم الإعلامي الـذي يعطي مراهق اليوم نضـجاً وخبرة تفوق ما كان لمثله في زمن ماض. ولذلك، أصـبحت هـذه الكتب تندرج تحت مسمى أدب الشباب، وتتناول بصراحة كل المسائل التي قد يتعرَّض لها الشاب أثناء بلوغه سن الرشد في مجتمع مفتوح كالمجتمع الغربي. ونجد تلك الروايات التي تتناول تفاصيل حساسـة قـد لا يوافق عليهـا البعض، على رفـوف المكاتب المدرسـية ويدرج بعضها كجزء من واجبات القراءة كمادة إلزاميـة. ولهـذا البعـض المعترض، أن يرسـل اعتراضـه وأسباب اعتراضـه إلى منظمة المكتبات الأمريكية «ALA» ليضـم اسـم الرواية إلى قائمة كتب تصـدر كل سنة تحوي أكثـر الكتب «تحدياً» بالنسـبة للآبـاء والمربين، ومن هذه الكتب سلسلة هاري بوتر التي كانت ضمن القائمة لأكثر من سنوات خمس.

فانتازيا وسايبربنك وروايات مصورة..وإضافات أخرى

مـع دخـول دور النشـر إلى سـاحة كتـب الشـباب، ظهرت الحاجـة إلى كتَّـاب متخصصـين في كتابة هـذا النوع من الأدب، وظهرت مع هؤلاء الكتَّاب أجناس مختلفة من الأدب لقيت نجاحاً بين القرَّاء، ومنها روايات الفانتازيا والمغامرة كروايـات هـاري بوتـر، ومنهـا أجنـاس لقيت رواجـاً بين القرَّاء الشـباب لم تجده في أوسـاط الكبار، ومنها روايات «السـايبربنك»، وهي جزء من روايـات الخيال العلمي التي يمثلها بطل في عالم مسـتقبلي قريـب، يعيش بين الأجهزة التكنولوجية في مدينة ضـعف فيها التواصـل الإنسـاني أو انعـدم. ومن بيـن هـذه الأجناس الرواية المصـوَّرة التي تعتمـد على الرسـم أكثر مما تعتمد على الـكلام المكتوب، وهـذا النوع مـن الروايات بالذات يتقدَّم في سـوق النشـر بخطوات متسـارعة وواثقة، حيث تقدر سـوق هـذه الرواية اليوم بأكثر من ثلاثمائة وخمسـين مليون دولار في الولايات المتحـدة فقـط، ويتوقـع أن يسـتمر تقدمها في السـنوات الخمس القادمة. ومن بين الأجناس الأدبية التي يقبل عليها أيضـاً القرَّاء الشباب، ويشـجع على قراءتها المربون، تلك الروايات التي تصور بطلة مراهقة أو مراهق يحاول تخطي إحدى مشـكلات تحوله إلى بالغ، كمشكلة الوحدة، والرضا

عن النفس، والمخدرات، والتوافق مع الأسرة والمجتمع، ويصل متوسط أجر الكاتب القدير في هذا المجال إلى أرقام مخيفة إن قورنت بما قد يحصل عليه كاتب معروف في العالم العربي، فقد حصلت إحدى الكاتبات في العام الماضي على جزء من أجرها لكتابة إحدى رواياتها قبل كتابتها بمبلغ قدره نصف مليون دولار.

وبينما يرفض أحد اتحادات الدول العربية للكتَّاب التحاق أحد كتَّاب روايات الشباب في العالم العربي بحجة أنه لم يقدِّم أعمالاً أدبية تستحق انضمامه إلى هيئة رصينة كاتحاد الكتّاب، خُصِّصت لكتَّاب أدب الشباب في الغرب عدة جوائز بهدف الارتقاء بهذا الجنس الأدبي وتجويد ما ينشر فيه. ومن ضمن هذه الجوائز، جائزة «ALEX» التي تعطى لعشرة كتب كتبت للشباب ما بين عمر 12 و 18 سنة، وبدأت في تقديمها رسمياً منظمة المكتبات الأمريكية عام 2002م، بينما بدأت الجائزة بشكل غير رسمي منذ 1998م، وبجهد فردي من مارجريت ألكسندر ادوارد، خبيرة قصص الشباب الأمريكية.

2 حضور مؤثر لتجربة عربية واحدة

«... لم يؤثر ديستويفسكي ذاته في كل هذا العدد من العقول.. لقد قدَّم نبيل فاروق للشباب ما يقرأونه بعدما كان الحل الوحيد أمامهم هو قراءة «مغامرات شرشر» أو أدب المنفلوطي الصعب... والملاحظة الصادقة هي أن كل شاب يجرِّب الكتابة يبدأ بتقليد أسلوب الدكتور نبيل فاروق المميز...».

هو كلام صادق قاله د. أحمد خالد توفيق في حق د. نبيل فاروق. وكلاهما يعتبران الكاتبين الأكثر شهرة وسط الشباب العربي، وكلاهما بدأ النشر –ومازالا معاً– ضمن سلاسل «روايات مصرية للجيب» التي قدمتها إحدى دور النشر المصرية. قبل دخول نبيل فاروق مسابقة نظمتها هذه الدار، بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وفوزه فيها ليبدأ بنشر رواياته، لم يكن أمام المراهق الذي يغادر مرحلة الطفولة ما يقرأه سوى قصص طفولية تجاوزها، وروايات درامية معقدة لا تناسبه.



السلسلة العربية الأشهر في أدب «الراشدين الصغار»

تجربة كبيرة، تبقى وحيدة؟

الآن، من النادر أن تجد شاباً عربياً لم يقرأ رواية واحدة على الأقل من سلاسل «روايات مصرية للجيب»، أو لم يسمع بها من قبل. لكن رغم كل ما قدمته هذه السلاسل التي تجاوز عدد إصداراتها 1300 إصدار، فإنها تبقى تجربة وحيدة لا تحقِّق التنوع المطلوب توافره في ما يوجه إلى الشباب.

صحيح أن روايات وقصص هذه السلاسل تنوعت من حيث الموضوعات التي تطرقت لها، غير أنها من حيث النمط العام بقيت محصورة في جانب «أدب المغامرة»، بصنوفه الكاملة، من جاسوسية وخيال علمي وتاريخ بديل... فهل أدب الشباب هو فقط أدب المغامرة؟ ماذا نعني بأدب الشباب؟ هل هناك أهمية معينة لهذا الأدب؟

لو حاولت أن تجرِّب محركات البحث على الإنترنت تنقيباً عن معنى أدب الشباب، أو أردت مناقشة الموضوع في جلسة ما، فإن المعنى الوحيد الذي سيكون حاضراً للمصطلح هو «الأدب الذي يكتبه الشباب»، وهو اصطلاح ابتكره بعض النقاد للتقليل من أهمية كتابات الشباب. غير أن مصطلح «أدب الشباب» في حقيقته يعني «الأدب الموجه إلى الشباب»، قياساً على «أدب الطفل» الذي نقصد به الأدب الموجه إلى الطفل، وليس الأدب الذي يكتبه الطفل.



المحترف السعودي

بحثاً عن كتاب ملائم للعمر

الشباب العربي.. أكبر سناً!

أغلب التوجهات في العالم العربي تقسِّم الكتابات الموجهة إلى الطفل إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل سن التمدرس، تنحصر منتجاتها في كتب مصورة من دون كلمات، تناسب الطفل إلى حدود سنته الخامسة تقريباً أو السادسة. ومرحلة التمدرس الممتدة حتى سن السابعة عشرة، والتي يغلب على منتجاتها المجلات المصورة «كوميكس»، وقصص الألغاز البوليسية البسيطة. أما مرحلة الشباب في نظرهم فهي تبدأ في سن الواحدة والعشرين. لتبقى الفترة العمرية الممتدة ما بين 17 و 21 خارج كل الاهتمامات.

ما أريد قوله هو أن الاهتمام العربي بأدب الشباب منعدم. إذ يتم اعتبار الشخص طفلاً وإلهائه ببضع مجلات مصوَّرة إلى حدود السابعة عشرة من عمره، ثم يتم تجاهله خلال سنواته الثلاث التالية. ليتم اعتباره عند بلوغه الـ 21 سنة رجلاً يجب عليه القيام بكل مسؤولياته. هكذا.. من دون أي إعداد أو تجهيز.

في الغرب يأخذ أدب الشباب -لو شئنا الدقة أدب الراشدين الصغار- أهميته من منطلق قدرته على تشكيل وعي المراهق وتنمية معارفه وقدراته، ومن ثم تكوين شخصيته المنفردة القيادية المميزة. ففي تلك المرحلة العمرية تكون الشخصية طينة قابلة للتشكل بأي شكل، والتربية السليمة مع القراءة النموذجية الموجهة كفيلة بأن تغير المستقبل تماماً. فقد تَجذَّر الاهتمام بهذا الأدب الموجه للبالغين الصغار في الغرب خلال سنوات القرن الماضي، فأنشئت جوائز خاصة به، ونظمت ندوات سنوية حوله، وتشكَّلت أندية المحبين، كما وُضعت قوائم سنوية لأفضل الكتب في هذا المجال.

لو تساءلنا عن غياب مثل هذا الاهتمام في العالم العربي لكان الجواب الحاضر دائماً، الأسهل دوماً، هو: إنها مشكلة العزوف عن القراءة. لكن الحقيقة غير ذلك.

يكفي إلقاء نظرة واحدة على الكتب التي تتم ترجمتها إلى العربية، لنرى كيف أنها تنفد بسرعة من المكتبات. لن نذهب بعيداً، يكفي البحث عن سلاسل «هاري بوتر» ذائعة الصيت، لنرى كيف أنها تنفد سريعاً بمجرد ترجمتها، بل إن قرَّاءً كثيرين لا يصبرون حتى تترجم إصداراتها الجديدة فيقرأونها بالإنجليزية. ويكفي البحث في المنتديات الشبابية على الإنترنت لنتأكد حقاً أن الشباب حين يجدون عملاً يستحق القراءة، فإنهم يقرأونه فعلاً.

فهل هي إذن مشكلة قارئ عازف عن القراءة أم كاتب عازف عن تجويد كتاباته، وناشر لا يريد المغامرة؟ الجواب واضح جداً.

«روايات مصرية للجيب» تجربة عربية ناجحة تؤكدها الأرقام.. فهل تتكرر؟

استثناء عربي..

هناك فقط استثناء عربي وحيد: «روايات مصرية للجيب». فهذه السلاسل المستمرة في الصدور منذ أكثر من عشرين عاماً تعتبر عملاً جيداً بحق، إذ أنها أسهمت في تشكيل وجدان وشخصية جيل كامل، وحددت مستقبل الكثيرين. الاهتمام الكبير الذي تلقاه هذه السلاسل من جهة القرَّاء يلغي تماماً أي شك حول من يتحمل وزر مسؤولية «أزمة القراءة» في العالم العربي.

تتنوع روايات هذه السلاسل لتغطي كل صنوف وضروب «أدب المغامرة». سلاسل مختلفة تتراوح عدد صفحات الكتاب الواحد منها بين 200 و 300 صفحة تقريباً من القطع الصغير، وتتضمن سلسلة «رجل المستحيل» و «ملف المستقبل» و «فانتازيا» و «ما وراء الطبيعة» بالإضافة إلى مجموعة من السلاسل المتنوعة. ويطبع من الكتاب الواحد من هذه السلاسل ما بين مئة ألف ومئة وخمسين ألف نسخة.

ربما كان العيب الوحيد الذي يؤخذ على هذه السلاسل هو انحصارها في مجال أدب المغامرة. هل هذا يعني أن الكتابة للشباب خارج أدب المغامرة عملية صعبة؟ ربما.

الدكتور أحمد خالد توفيق، مؤلف سلسلتي «سفاري» و «فانتازيا» بالإضافة إلى السلسلة الأكثر شهرة «ما وراء الطبيعة» يقول إن ما يهمه في كتاباته لهذه السلاسل، هو أنه يقدِّم للقرَّاء جسراً يعبرون عليه من عالم قصص الأطفال نحو الأعمال الأدبية العالمية المعقدة بعوالمها المتشابكة. وعدد القرَّاء الذين يتتبعون كتاباته أينما نشرت، يدل على أنه قد نجح في ذلك تماماً. كما نجح قبلاً الدكتور نبيل فاروق في دفع الكثير من الشباب إلى الإمساك بالقلم والبدء في مغامرة الكتابة.



فتى حائر بين فئتين من الكتب لا تتوجهان إليه

المحترف السعودي



دار ليلى..
من الشباب إلى الشباب

إضافة إلى تجربة المؤسسة العربية الحديثة للنشر، هناك محاولة أخرى، شابة هذه المرة، لكن من مصر أيضاً؛ إنها دار ليلى للنشر والتوزيع. تتخصص هذه الدار في نشر الكتب الموجهة للشباب، وجل إصداراتها يكتبها الشباب أنفسهم. مدير الدار هو الأستاذ محمد سامي، صحفي ورسام قبل أن يتفرغ لمشروع دار ليلى. له إنتاجات أدبية تتوزع بين الأدب الاجتماعي والأدب الساخر، إضافة إلى مقالات صحفية متنوعة.

وتصدر له خلال معرض القاهرة الدولي للكتاب (2007) روايته الأولى «هناك من يرحل وحيداً». وقد كان لنا معه هذا اللقاء للتعرف على هذه التجربة الجديدة:

○ ما تعريفك لأدب الشباب؟

● أدب الشباب في رأيي الشخصي هو «الأدب الذي يخاطب الشباب بلغة يفهمونها، وفي ذات الوقت يعالج قضاياهم». وهذا النوع من الأدب مهم جداً -ولنضع تحت «جداً» هذه ألف خط- لأنه يؤثر على عقول ومفاهيم قادة المستقبل، ويمنحهم خلاصة خبرات وتجارب الأدباء الذين يقرأون لهم.

○ يعرف أدب الشباب في الغرب الكثير من الاهتمام. هل هناك مثل هذا الاهتمام في العالم العربي؟

● لا، بالطبع.. هذا اللون من الأدب موجود ومعترف به في العالم كله، باستثناء الدول العربية!!.. فما زال النقَّاد في عالمنا العربي، ومن ورائهم الإعلاميون، يتصورون أن أدب الشباب، هو أدب أطفال.. ولا يعترفون بأي أدب، لا يخرج من حرماتهم .. ففي مصر مثلاً، تجد ما يسمى جيل الستينيات، وقد صار بينه وبين شباب الأدباء «ما صنع الحداد»..

○ باستثناء تجربة المؤسسة العربية الحديثة للنشر، بسلاسل «روايات مصرية للجيب»، لا نجد الكثير من الأعمال الأدبية الموجهة للشباب. ما سر هذا العزوف؟ وأين هي الحلقة المفقودة؟ الناشر الذي سيغامر في هذا النوع من الأدب؟ أم الكاتب الذي سيكتب؟. أم ماذا؟

● المشكلة أصلاً في ناشر يسعى وراء الربح المباشر والسريع.. وكاتب محدود الموهبة، أو يسعى إلى تقليد من سبقوه.. المؤسسة العربية الحديثة، تميزت بنقطة مهمة جداً، وهي أن الناشر حمدي مصطفى رجل يفكر كناشر أولاً وليس كتاجر.. ولا أبالغ إنني كنت -وما زلت- أنظر إليه بإعجاب وتقدير، وأعتبره قدوة لي في عالم النشر. أنا لا أعرفه، ولا توجد مصالح بيني وبينه، بل على العكس، هناك منافسة، وربما بعض الضباب كذلك. لكن الحق حق. هذا الناشر، تقابل مع كتَّاب موهوبين بحق.. خذ على سبيل المثال، الدكتور نبيل فاروق، ثم الدكتور أحمد خالد توفيق (بترتيب زمني).. وبعدهما الدكتور تامر إبراهيم والدكتور محمد سليمان... إلخ.

○ إلى أي حد يمكن الفصل بين الأدب الموجه إلى الشباب وأدب المغامرة؟

● الأدب الموجه إلى الشباب، هو الذي يخاطب الشباب -كما ذكرت آنفاً- بلغتهم وعن مشكلاتهم. أما أدب المغامرات فيعتبر نوعاً من الأدب المتخصص. وهذا الأدب في حد ذاته ليس جديداً في الثقافة العربية. فهو موجود على سبيل المثال في قصص أبو زيد الهلالي، والزناتي خليفة، وغيرهم. هذه القصص والملاحم الشعبية هي في الأساس مغامرات قام بها أصحابها، ولكن هذه الأعمال لم تكن مصنفة تحت بند أدب المغامرات. ولهذا فإن الجديد هو فقط تصنيف هذا النوع من الأدب.

لكن الفصل بين أدب الشباب وبين أدب المغامرة صعب بالفعل. خذ ما يقدمه الدكتور أحمد خالد توفيق، والذي سماه «تأديب المغامرة»، فهو يثير مشكلات المجتمع وقضاياه بمهارة وتشويق وإمتاع، أثناء نص المغامرة.. فيصل ويؤثر. هذا هو الأدب، الذي يخبر القارئ الشاب، أن «هنا» ليس آخر الحدود، بل ما زال هناك المتسع والمزيد..

○ استطاعت دار ليلى، رغم حداثتها أن تصنع مكانتها، بإصداراتها المتميزة، في قلوب الشباب. كيف جاءت فكرة الدار؟ ولماذا تخصصت، حتى الآن، في الإصدارات الموجهة للشباب؟

● الحمد لله على ذلك، وإن كان مكانها على الساحة لا يزال صغيراً وضيقاً. فقد تخصصت الدار في الإصدارات الموجهة «من» الشباب و «إلى» الشباب. ليس فقط لهم.. هناك فجوات عديدة في النسيج الذي يجمعنا.. هناك حوائط نارية، تمنع الاتصالات بين حواسبنا.. تستطيع القول إن دار ليلى أشبه ما تكون بالموصلات التي تحاول جمع ذلك الشتات. صحيح أن إمكاناتنا تكاد تكون معدومة، إلا أن هناك إمكانات أخرى بخلاف المال.

هناك من حولنا الإنترنت، والهواتف النقالة، والصحافة...إلخ. هذه هي رؤوس الأموال الحقيقية اليوم. ربما استطاعت دار ليلى أن تستخدم هذه الإمكانات إلى حد ما، ولكننا لم نبلغ ما نريده بعد. نحن نحلم بعالم يستطيع فيه كل من يستحق النشر، أن يجد كتابه جنباً إلى جنب مع كتب نجيب محفوظ. يستطيع فيه من يرغب في قراءة كتاب له قيمة حقيقية، أن يجده، أن نلتقي ونتعارف. إن الشباب العربي اليوم يشعر بغربة رهيبة، بيننا وبين أنفسنا وبيننا وبين بعضنا البعض، هوات عميقة..

لقد نبتت فكرة الدار في ذهني لعدة أسباب. أولها أنني وصلت إلى مرحلة من العمر - 28 عاماً وقتها- قررت فيها الكف عن العمل لدى الآخرين.. وأنه حان دوري كي أحاول تحقيق كياني الشخصي.

ثانيها، أنني ورفاقي من الكتَّاب والفنانين الشباب، قد تعبنا من محاولة تحقيق حضور لنا على الساحة وسط عالم الكبار، الذي يحارب -وبشراسة- كل ما هو شاب. كانت الفرصة الوحيدة -من وجهة نظري- أن من يملك هو صاحب الحق..

ثالثًا وأخيراً، هناك العديد من المواهب الشابة التي تكاد تقضي نحبها، قبل أن يشهد مولدها أحد، ضاقت في وجهها السبل، وأغلقت الأبواب.. فكان لا بد من إتاحة فرصة لها.. لذا كان أول مشروعات الدار مسابقة للكتَّاب الشباب الجدد بعنوان «بدايات».



الموقف الإنساني في القصيدة



«الموقف الإنساني» الذي يشغل المحدثين في الشعر العربي اليوم، والذي بات يحتل الأولوية على حساب الصناعة. والتقسيم التقليدي للشعر العربي القديم، ليس جديداً كما يتوهم البعض. الناقد جهاد فاضل * يختار لنا عيِّنات من الشعر القديم وصولاً إلى شعراء المهجر، ويتوقف ملياً أمام المتنبي وشوقي بشكل خاص، تؤكد حضور المواقف الإنسانية على اختلافها وبالعمق في نسيج القصيدة العربية منذ أقدم العصور وحتى القرن العشرين.

فقد التقسيم التقليدي للشعر العربي القديم في السنوات الأخيرة الأهمية التي أُعطيت له على مدار القرن العشرين. فلم يعد الباحثون المحدثون يُعنون بما كان يُعنى به الدكتور طه حسين ورفقاؤه من تقسيم للشعر إلى فخر ومدح ورثاء وما إلى ذلك. وتبعاً لذلك تراجعت أهمية «الديباجة» و «الجزالة» و «الصناعة»، وتراجع معها جرير والفرزدق والأخطل لصالح «الموقف الإنساني» في القصيدة. ولتوضيح ذلك نشير إلى أن البيت القائل:

وتحسب أنك جرمٌ صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

بات يستأثر باهتمام الباحث اليوم أكثر مما يستأثر ديوان هذا الشاعر الأموي أو العباسي أو الأندلسي في مدح هذا الحاكم وهجاء ذاك. خاصة وأن مثل هذا البيت، ولو أنه يتضمّن تأملاً فكرياً أو فلسفياً في جوهره، ليس مما يضيق به الشعر. فإذا كان الشعر يضيق «بالثقافي»، فهذا البيت، على ثقافته، يُغني القصيدة ولا يفقرها. أليس في هذا الوصف الجامع المانع لشعور الإنسان بالضآلة والمحدودية، جرعة معنوية تشدّ من أزره، وتصلّب من عزيمته، وتدفع به إلى الثقة الكاملة بما هو فيه؟

الفكر والشعر.. يلتقيان

قد يقول قائل إن هذا البيت يصبّ في عالم الثقافة والفكر والفلسفة فلا ننفي ذلك. إذ على الرغم من ثقافته، فإن الشعر لا يفارقه. فهو فكر كما هو شعر. بل إن كمية الشعر فيه قد ترجح كمية الفكر. فمن قال إن الفكر فكر وإن الشعر شعر ولا يلتقيان؟ أليس المعرّي مفكّراً وشاعراً في الوقت نفسه؟

* ناقد من لبنان

وتحسب أنك جرم صغير... لا يزال يحتفظ بالجدة والحداثة إلى اليوم، وكأنه صناعة إنسانية لا يلحقها تقادم. ألا يجد فيه قارؤه المعاصر ما وجده فيه قارؤه القديم، وأكثر؟ أليس فيه هذه الإجابة العبقرية على ما يخالج المرء من شعور بالضعف وهو يجد نفسه وحيداً لا حول له ولا قوة أمام العالم الأكبر، فإذا به ينطوي، دون أن يعي، على هذا العالم الأكبر؟

لقد وُجد هذا الموقف في شعرنا القديم، منذ انبثاقه. وإذا كان الكثيرون يمرّون بالشعر الجاهلي اليوم مروراً سريعاً، فكثيراً ما أمضيت أوقاتاً طويلة وسميرة بصحبته. وقد لا أغالي إذا اعتبرته أحد أزهى عصور الشعر العربي عبر تاريخه كله. وقد ذكر لي الدكتور إحسان عباس مرة أنه إذا كان للشعر العربي عشرة أمراء، فمن الغبن ألاّ يكون الشعر الجاهلي أو الشاعر الجاهلي، أحد هؤلاء الأمراء. ولأننا نتحدث عن «الموقف» فلا بأس أن أشير إلى بيتين لافتين في معلّقة الشاعر الجاهلي طرفة ابن العبد:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى
وان أشهد اللذات هل أنت مخلدي

إذا كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

أليس في هذين البيتين تلك «الوقفة الوجودية» وبالمعنى المعاصر للكلمة؟ ألا ينهض طرفة ندّاً للشاعر الفرنسي رامبو ولسواه من الشعراء الذين واجهوا الدنيا مواجهة جسورة؟ ألا يُعتبر طرفة رائداً ترددت له لاحقاً أصداء كثيرة في تراثنا، أو في تراثات أخرى ملحقة بصورة من الصور في تراثنا؟

إن من يقرأ رباعيات الخيام يجد قربى شديدة بينهما وبين هذه الوقفة التي وقفها طرفة في وقت مبكّر، والدهر فتىً بتعبير الديلمي:

لا تشغل البال بماضي الزمان
ولا بآتي العيش قبل الأوان

واغنم من الحاضر لذاته
فليس في طبع الليالي الأمان!

ولا ننسى قصيدة رائعة للأخطل الصغير ورد فيها:

وانهب العيش لا أبا لك نهبًا
واطرح عنك وجهك المستعارا

لست مهما عُمّرت غير جناح
حطّ في الدوح لحظة ثم طارا

من الشعر القديم إلى شعر المهجر

ولطالما أن الحديث هو عن المعنى العبقري الذي لا يتأبّاه الشعر، فإني أحب أن أعرض وقفات إنسانية خالدة في شعرنا القديم، حولها ينبغي أن تتأسس نظرة جديدة إلى هذا الشعر، بل قراءة مختلفة عن القراءات السابقة التقليدية.

لقد ذكر مرة الكاتب المصري كمال نشأت في مقال له في مجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات، وذلك من كلام له على «الجانب الإنساني في شعر أبي ماضي»، وشعر جماعة من شعراء المهجر الشمالي اللبناني: «وأما شعرنا العربي القديم فقد جانب هذا الاتجاه (يريد الاتجاه الإنساني، وإن ظهر، فَلُمَعٌ هنا وهناك).
وقد تذكر كثيرون وهم يقرأون كلام كمال نشأت، أبياتاً قديمة تطبِّق المفصل في هذا الموضوع. من ذلك قول أمية بن أبي الصلت:

إذا كان أصلي من تراب، فكلّها
بلادي، وكل العالمين أقاربي!

وقول أبي العلاء في قصيدة له، شرَّقت طائفة من أبياتها وغرَّبت، وتناولتها الترجمة إلى لغة الإنجليز والفرنسيين والترك والروس، وهي لا تزال تدور في مجالس الأدب والفكر في الدنيا:

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا!

وهما من جهة النزعة الإنسانية التي يستشهد بها كمال نشأت، بمثل قول ندرة الحداد، من شعراء المهجر:

هو ذا قمحي الذي أحسبه،
ما عشت، قمحك!

أعلى طبقة في المعاني، وفي المباني، مما ساقه من الشواهد على إنسانيات شعرائنا المهجريين. ويتذكر أيضاً من قرأ كمال نشأت، قول البحتري في هذه الشعبة من الموضوع:

ولا تقل: أمم شتى ولا فرقٌ
فالأرضُ من تربةٍ والناسُ من رجلِ!

أما ما أورده كمال نشأت من شعر جبران خليل جبران في باب المساواة، وهو قوله من موشح طويل:

ليس في الغابات حرٌّ
لا ولا العبدُ الذميمُ!
إنما الأمجاد سخفٌ
وفقاقيع تعومُ

ولأنني اعتبرت دائماً أن الحداثة في الشعر غير زمنية، وأنها بالتالي لا ترتبط بزمن معين، بل تصول على الدهر وتبقى دافئة ونضرة، فقد توافر لي ما لا يُحصى من الأمثلة والشواهد على شعر قديم ما زال يرفل بالحداثة إلى اليوم، منها هذان البيتان لشاعر جاهلي سبق حمَّاد عجرد ومطيع بن أياس وأبا نواس في الثورة على الوقوف على الأطلال:

لأجملُ من تلك الطلول وذكرها
ووصفكما طيئًا ووصفكم سلعا
تلاحظُ عيني عاشقين كلاهما
له مقلةٌ في وجه صاحبه ترعى

فهو يقول إن رؤية العاشقين الذين ترعى مقلة كل منهما في وجه الآخر، لأجمل عنده من الطلول ومن الوقوف عليها، وأجمل كذلك من وصف هذه القبيلة أو تلك. ولنتنبّه لعبارة مقلة الحبيب التي ترعى في وجه المحبوب، ولعبارة «ترعى» على التحديد. ففيها من الحداثة دائمة النضارة ما لا يجده أحدنا في الكثير مما يسمّى اليوم الشعر الحديث، أو الحداثة في الشعر.

ووقفة مع أبي الطيب

ويصعب على من يعرض لمأثورات خالدة من الشعر العربي، ألاَّ يرد ذكر للمتنبّي فيها. فهو في قمة الهرم وصولاً إلى يومنا هذا. ولكن إذا كان الكثيرون قد أعجبوا بأبي الطيب المتكبر صاحب الخيل والليل والبيداء، فإنني أعجبت بالمتنبي الآخر، أي بالمتنبي المنكسر والمهزوم والضعيف الذي يُلتمس، أكثر ما يُلتمس، في الكافوريات، أي في شعره في مصر. تلك فترة ضعُفت في المتنبّي «جيناته» العراقية الصاخبة، إن جاز التعبير، وقويت فيه جينات أخرى. فالمتنبّي الضعيف الذي تفترسه الحمّى، والممزّق من الداخل كبطل تراجيدي تتصادم في داخله التناقضات، والذي يلفّه الضياع من كل صوب، هو المتنبّي الأثير عندي. وقد تكون قصيدته التي مطلعها:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

هي أعظم شعره، لا تضارعها إلا قصائد قليلة أخرى له. فعلى الرغم من أنها من الناحية الشكلية قصيدة في مدح كافور، إلا أنها في الواقع قصيدة في الحب والألم، قصيدة في حب سيف الدولة، وفي حب المتنبي لنفسه من خلال هذا الحب. ومطلع القصيدة مدوٍّ ومزلزل وفجائي. يتحول المتنبي في هذا المطلع إلى بطل تراجيدي عاقبه الزمن عقوبة فادحة على تركه سيف الدولة، وكأنه ينتقم منه على جريمة اقترفها.

تتردد في هذا البيت، وفي الأبيات اللاحقة له، وبكثرة، عبارات: الموت والداء والمنية والعدو والمداجي والبين والغدر ودموع العين والرحيل إلى الصبا، وموجع القلب. وهي كلها عبارات ترمز للفناء والموت والزوال وتبدد الأحلام، وتشير إلى مأساة فراق الحبيب مع بقاء الحب.

ووقفة مع أحمد شوقي

ومن بين مميزات هذه القصيدة أنها تعتمد على الإيقاع الموسيقي اعتماداً واعياً بوظيفته في المعنى. فمن يقرأ مطلع القصيدة، والقصيدة أيضاً، يجد أن صاحبها ملحن، وأن الموسيقى تلعب دوراً أساساً فيها، ونلحظ ما سقناه عن أبي الطيب في بعض قصائد أمير آخر للشعر، هو أحمد شوقي، مثل قصيدته:

شيّعوا الشمس ومالوا بضحاها
وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتني في الركب لما أفلت
يوشعٌ همّت فنادى، فثناها

أو قوله في رثاء عبده الحامولي:

يسمع الليل منه في الفجر يا ليل
فيصغي مستمهلاً في فراره!

أو قصيدته النيل التي كتبها عام 1914م وتُعتبر فاتحة عبقريته الكبرى. فكل ما قاله قبلها كان البارودي وإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم يقولون مثله. ولكنه بهذه القصيدة سبق هؤلاء ورفع في يده اللواء ولم يلْقِه حتى مات سنة 1932م. قصيدة النيل من أعظم ما كتب شوقي ومطلعها:

من أي عهدٍ في القرى تتدفّق
وبأي كفٍّ في المدائن تُغدق!

وهذه القصيدة تتدفق فيها الموسيقى كما تتدفق فيها فنون البديع الإيقاعية. وذلك يرجع بلا شك إلى ضبط شوقي البارع لآلات ألفاظه، وذبذباتها الصوتية. وليست المسألة مسألة حذق أو مهارة وحسب، بل هي أبعد من ذلك غوراً. هي نبوغ وإلهام، وإحساس عبقري بالبناء الصوتي للشعر. وهذه الروعة في الموسيقى تقترن بحلاوة وعزوبة لا تُعرف في عصرنا الحالي لغير شوقي. وربما كانت تلك آيته الكبرى في صناعته. فأنت مهما اختلفت معه في تقدير شعره، لا تسمعه حتى ترهف له أذنك، وحتى تشعر كأنما يُحدث فيها ثقوباً، هي ثقوب الصوت الصافي الذي تهدر به المياه بين الصخور، والصوت يعلو تارة فيشبه زئير البحار حين تهيج. وينخفض تارة فيشبه قطرات الفضة التي تسقط من مجاديف الزوارق، وهي

تجري سابحة على صفحة النيل.

الوحدة الموسيقية لهذه القصيدة هي وحدة بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وكأنها موجات متتالية في انتظام تحكي موجات النيل الواهنة الرتيبة. ثم هو يختار القافية المجسّمة لصوت المياه في مختلف أوضاعها، فهي تتدفّق، و «تغدق»، و «تترقرق» و «تغرق» ، يصاحبها في سبك بناء الأبيات ألفاظ أخرى من معجم الماء، مثل «فجّرت»، و «جداول» و «مزنة»، و «طوفان»، و«تفيض»، و «تسكب» و «حياضك». وتعمل هذه الألفاظ بإيقاعاتها المختلفة على استحضار هيئة المياه وأصواتها وحالاتها بل ومذاقها أيضاً.

وموسيقى البيت الواحد تعتمد على القبض ثم البسط. والقبض هي الكلمة ذات الإيقاع المركز في الحرف الساكن الأوسط. وشوقي يصوِّر لنا انحباس الماء ثم سيولته وتدفقه، وكأنه كان في مضيق ثم انساح في المكان، وانبسطت به الأرجاء حتى وصل إلى مصر.

وهناك الأبيات ذات الإيقاعات المزدوجة بين شطريها، مثل «من أي عهدٍ في القرى»، و «بأي كفٍّ في المدائن»، و«الماء تسكبه فيسبك عسجدا»، و «الأرض تغرقها فيحيا المغرقُ».

وهو عندما يتحدث عن «عروس النيل» يحرص على نقل أجواء الفرح والتصفيق والتهليل والزغاريد، والمهرجان الحافل الذي يقام على أنغام الموسيقى الراقصة، وكأننا نعيش في جنباته:

زُفّت إلى ملك الملوك يحثّها
دينٌ ويدفعها هوى وتشوّقُ

مجلّوة في الفُلكِ يحدو فُلكها
بالشاطئين مزغردٌ ومصفقُ

ألقت إليك بنفسها ونفيسها
وأتتك شيقةً حواها شيّقُ

لذلك حقّ للدكتور شوقي ضيف أن يقول عن هذا الجانب في إبداع شوقي: «وموسيقى شوقي في شعره هي لبّ إبداعه، وفيها كان يظفر دائماً بخصومه. فقد كانوا يحاولون أن يردّوا الناس عنه. فكانوا يعرضون عنهم، وينصرفون عن نقدهم، ويتهافتون على شعره كما يتهافت الفراش على النار».

شاعران اثنان تربطهما روابط كثيرة منها شيوع الموسيقى في شعرهما، هما المتنبي وشوقي. يجلسان جنباً إلى جنب في تاريخ الشعر العربي، ويحتلاّن أعلى قمّة فيه. بعد ألف سنة من ظهور المتنبي، ظهر شوقي. وما زال نفوذهما قوياً إلى اليوم. فما زالا يتصدران المشهد الشعري، منذ المهلهل الذي قيل إن الشعر العربي بدأ به، وصولاً إلى وقتنا الراهن.

ديوان الأمس ديوان اليوم

مختارات ابن قتيبة

نجاح طلعت *

يستحق ابن قتيبة (المتوفى سنة 276هـ)، بجدارة، أن يوصف بأنه ناقد الشعر العربي الأول. فكتابه «الشعر والشعراء» مرجع لا غنى عنه، ليس للمتخصصين فقط، بل لمتذوقي الشعر العربي. وما يزيد هذا الكتاب قيمةً هو منهج ابن قتيبة الذي، كما يذكر، توخى الدقة في انتقاء الشعراء المجيدين، ونظر بعين العدل في الكلام على أحوالهم وأشعارهم معطياً كلاً حظَّه دون إطراء أو إجحاف.

لكن، ليس المراد بهذه السطور تقريظ ابن قتيبة أو كتابه، وإنما الغاية هي إمتاع القارئ عن طريق إشراكه في قراءة خمسة أبيات انتقاها ابن قتيبة ليفتتح بها الفصل الأول من كتابه.

لقد اختارها ليدل بها على ذاك النوع من الشعر الذي جمع معاً حُسْن اللفظ وجودة المعنى، مما يجعله الضرب الأفضل من ضروب الشعر.

فقد أورد أن ما من شعر قيل في الهيبة أحسن من قول أحدهم في بعض بني أمية:

يُغْضي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِه
فَما يُكَلَّمُ إلاَّ حينَ يَبْتَسِمُ

ولم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من قول أوس بن حجر:

أَيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعَا
إنَّ الذي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وأبدع بيت قالته العرب هو لأبي ذُؤيب:

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

ولم يُقَلْ في الكِبَر أحسن من قول حُمَيد بن ثور:

أَرَى بَصَري قَدْ رابَني بعدَ صحَّة
وحسبُكَ داءً أَن تَصحَّ وَتَسلَمَا

ولم يبتدئ أحد شعره بأحسن وأغرب من قول النابغة:

كليني لِهَمٍّ يا أُميمةُ ناصِبِ
وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكواكِبِ

* كاتبة صحافية من لبنان



«حكومة الظل»..

براونية.. عربية.. مختلفة

اللون الروائي الذي أرساه الأمريكي دان براون، والقائم على نسج أحداث رواية بوليسية معاصرة بناءً على معطيات تاريخية حقيقية، يبدو اليوم وكأنه قد تحوَّل إلى مدرسة عالمية.

«حكومة الظل» للدكتور منذر القباني هي واحدة من هذه الروايات المحبوكة على المنوال نفسه، غير أنها تختلف عن غيرها من الروايات «البراونية» كما يبين هنا عبود عطية الذي يعرض قراءته لها، ويختار لنا بعض المقتطفات منها.

تدور أحداث هذه الرواية في عصرين مختلفين. أحدهما عصرنا الحالي، والثاني محدد بدقة بعام 1908م. أحداث العصر الحالي تتوزع بين المغرب والقاهرة والرياض والمدينة المنورة وبريطانيا وكندا. أما أحداث العام 1908م فتبقى محصورة في استانبول عاصمة الخلافة آنذاك، وبالمناخ الذي أحاط بالتئام «مجلس المبعوثين» الذي أنشأه السلطان عبدالحميد المحاصر من قبل حزب الاتحاد والترقي الشهير.

بطل هذه الرواية هو نعيم الوزان، رجل أعمال سعودي شاب وناجح، يسافر إلى المغرب ومصر بهدف ترتيب بعض الأعمال مع بعض الشركاء في مشروع إنشاء شركة اتصالات ثالثة في السعودية. وفي المغرب يزور نعيم أستاذه الدكتور عبدالقادر بنوزاني الذي درَّسه التاريخ في جامعة الملك سعود بالرياض، وتربطه به علاقة صداقة لم تنقطع.

غير أن الدكتور عبدالقادر هذا يموت مشنوقاً تاركاً لنعيم رسالة غامضة تقوده إلى متاهات بوليسية تتوالى فصولاً في القاهرة، حيث يكتشف بمساعدة الصحافي المصري أن هناك عمليتي شنق مماثلتين حصلتا في اليوم نفسه في كل من تورنتو بكندا وفي القاهرة أيضاً. ولا تتكشف حقيقة ما جرى، وأيضاً حقيقة بعض الشخصيات، إلا في الصفحات الأخيرة.. عندما يعود نعيم إلى المدينة المنورة..

وكل ما جرى ويجري حول نعيم، ما هو إلا تكملة لأحداث بدأت في استانبول عام 1908م، وفصلاً جديداً من فصول الصراع بين منظمتين سريتين: الماسونية من جهة والعروة الوثقى من جهة أخرى!

على خطى دان براون

لا يمكن للقارئ وهو يقلِّب صفحات هذه الرواية إلا أن يعود بذاكرته إلى روايات الأمريكي دان براون، وبشكل خاص «شيفرة دافنشي» و «ملائكة وشياطين».. فكما جمع براون الكثير من المعطيات التاريخية الصحيحة علمياً أو التي يُرجَّح أن تكون كذلك، ونسج منها مادة لرواية معاصرة، يتأرجح فيها القارئ بين عصرنا الحالي وغياهب الماضي، كذلك يفعل القباني.

وهذا التشابه لا يقتصر على البناء العام للرواية وحبكتها، بل نجده أيضاً في الكثير من التفاصيل.. فالدكتور عبدالقادر يترك قبيل وفاته رسالة غامضة لنعيم مليئة بالرموز والألغاز التي تقوده بمساعدة من الصحافي طلعت إلى معرفة الحقيقة، تماماً كما يترك مدير متحف اللوفر في رواية «شيفرة دافنشي» رسالة غامضة إلى حفيدته





تقودها بمساعدة المحقق والأستاذ الجامعي إلى اكتشاف الحقيقة.

وأكثر من ذلك، فإن الرموز التي تشكِّل مادة «ملائكة وشياطين» تكاد تكون هي نفسها الرموز الغامضة التي كانت في قصر طلعت باشا في استانبول، وفي سلسلة مقاهي إنترنت معاصرة في القاهرة..

صراع بدأ فصولاً في استانبول عام 1908م، لا يزال يرخي بظلاله على عالم أعمال اليوم

أما في العمق، فهناك تشابه آخر لا يمكن إغفاله، وهو أن كلاً من هذين الأديبين هو صاحب «قناعة فكرية» يسعى إلى ترويجها من خلال الرواية. وإذا كان دان براون لم يعلن بوضوح عن قناعاته الشخصية، بل اكتفى بإلصاقها بشخصيات رواياته، فإن القباني يكاد يعلن صراحة عنها، أو ربما هو قام بذلك فعلاً.. إذ جاء على الغلاف: «لا بد من كسر قشرة البيضة، لا بد من معرفة من وراء تلك الشخوص والأحداث..» وفي مكان آخر: «مزيج من الخيال والواقع للقارئ مطلق الحرية في تبيان الواقع من بين سطور الخيال..» أما تعريف الناشر بالرواية فيقول: إنها تنتمي إلى «الكتابات الحديثة التي تحاول الخوض في المناطق غير المأهولة. وهي استجابة لأثر معين في الثقافة السياسية..».

أما أوجه الاختلاف فهي..

على الرغم من كل ما تقدم، فمن التجني إغفال أوجه الاختلاف ما بين «حكومة الظل» من جهة وأعمال دان براون من جهة أخرى، حتى على مستوى الشكل.

ففي حين أن ربط الحاضر بالماضي يأتي عند براون على لسان متحدث معاصر هو أستاذ جامعي ومثقف، فإن القباني يفصل في سرده الماضي عن الحاضر. فيخصص للماضي فصلاً يبدأ دائماً بعنوان 1908، يليه فصل من مجريات أحداث اليوم، ثم عودة إلى الماضي فالحاضر.. وهكذا دواليك. هذا من ناحية الشكل.

أما من ناحية المضمون، فلا بد من الاعتراف للقباني بإبداع يستحق الثناء.

فموضوع الرواية عربي من الألف إلى الياء، يتناول مسألة تاريخية لا تزال تشغل المؤرخين، ولعبت دوراً حاسماً في مسار السلطنة العثمانية في السنوات الأخيرة من عمرها: حزب الاتحاد والترقي، ودور يهود الدونمة في هذا الحزب. ناهيك عن «العروة الوثقى» التي بقي شأنها أقل من شأن هذا الحزب، إعلامياً وبحثياً على الأقل.

وهنا لابد من التوقف قليلاً أمام الموضوع.
لا شك في أن المؤلف أجرى الكثير من الأبحاث التي تتعلق بالجانب التاريخي من الموضوع. ولكن ما يقدمه كاكتشاف، ليس في الواقع كذلك.

فالقول إن بعض باشاوات حزب الاتحاد والترقي كانوا يهوداً تظاهروا بالإسلام، سبق أن ورد حتى أصبح شبه لازمة في معظم الكتب التي تناولت سقوط السلطنة العثمانية. ومعظم الوارد في الكتاب حول الحركة الماسونية ليس جديداً. حتى الحديث عن دورها ليس جديداً أيضاً.. فقد ورد في العديد من الأبحاث والروايات سابقاً. حتى أن بعض التفاصيل مثل اجتماع «البولدبرج» يمكن للقارئ أن يجد حديثاً موسعاً عن ماهية «البولدبرج» في أي كتاب يتناول المنظمات السرية، أو المصنفة في وجدان الناس على أنها كذلك. وربما وجد بعض الاختلافات حتى في المعلومات المجردة التي تتعلق «بالبولدبرج» كما هي واردة في هذه الرواية وفي الأبحاث الأخرى.

ولكن لطالما أننا هنا أمام رواية أدبية، يمكنها أن تتعامل مع التاريخ بمرونة أكبر مما هو عليه الحال في البحث العلمي، فلا بأس من أن يتم تناول دور الحركات السرية والمنظمات الخفية بالشكل الذي تناوله به المؤلف، وحتى الحد الذي وصل إليه.

ما قد يؤخذ قليلاً على المؤلف كراوٍ، وليس كباحث، هو الحديث عن «الماسونية» والتعريف بها وكأن هذا الحديث يجري للمرة الأولى في تاريخ الرواية. فالصحافي طلعت يحدِّث نعيم، رجل الأعمال الناجح والمثقف عن الماسونية وكأن هذا الأخير لم يسمع بها قبلاً.. في حين أن القليل من الهمس والاختصار يبدو أدبياً في عالم الرواية أفضل بكثير من كثرة الشرح.



مـن جهة أخرى تكمن إحدى ومضـات الإبـداع عند المؤلف في موضـوع عمل المنظمات السرية، عندما يتهم واحداً من مراكز الدراسات يدعى «المركز العربي للبحوث والدراسات» بأنه غطاء لعمل المنظمة السـرية. وهو المركز الذي يشـير إليـه أحـد أبطـال الروايـة بـ «المعبد».. ويسـتدرك موضحاً أن التسمية هي اختصار مؤلف مـن الأحرف الأولى لاسـم المركز.. ولعـل المؤلـف كان في هـذه النقطة بالذات على أقرب مسافة بخياله من الواقع..

> الرواية، وهي الأولى للمؤلف، جاءت قوية ومتكاملة أكثر من المتوقع خاصة حبكتها البوليسية

أما حبكة القصـة البوليسـية، وإن بقيت في بعض زخارفها ضعيفة نسـبياً، فإنها بشكل عام أكثر من مُرضـية، لا بل تبدو ممتازة في أماكن كثيرة.. ولا يقـل إبداع القباني في حـل الكثير من الألغاز الرئيسـة في أسـطر قليلة مفاجئة في الصـفحات الأخيـرة، أو حتى في الصـفحة الأخيرة من الرواية، عن إبداع دان براون في «ملائكة وشياطين» مثلاً.

ولعل من أوجـه الإبداع المعبرة، جلاء الكثير من الغموض، واتضـاح الصـورة البانوراميـة برمتها، خـلال وجود بطل الرواية نعيم الوزان في المدينة المنورة في الفصـل ما قبل الأخيـر من الرواية، لما للمكان مـن رمزية يعتبر توظيفها، وفي الإطار الذي أتى فيه هذا التوظيف، عملاً موفقاً.

بانتظار الرواية الثانية

«حكومـة الظل» هـي الرواية الأولى للدكتـور منذر القباني. ورغـم ذلك، فقد جاءت قوية متكاملة أكثر بكثير مما يمكن أن نتوقعه من رواية أولى لمؤلف يعمل أساسـاً كطبيب. لا بل يمكن القول إنها رواية ناضـجة عموماً، خصوصـاً في اللون البوليسي الهزيل جداً في الرواية العربية المعاصرة.

ومـن باب الأمانة، ولأننـا نتمنى فعلاً أن يقـدِّم لنا القباني عملاً آخر بالجدية والمسـتوى نفسـيهما، لا بد من الإشارة إلى بعض النقاط التي تستوقف القارئ في هذا العمل الأول، وبعضها قد يكون موجهاً إلى الناشر وليس إلى المؤلف.

يطالعنا على كل صـفحة يمنى من هذا الكتاب اسم الرواية بالإنجليزيـة وقـد كتـب عاموديـاً، تقابلـه على الصـفحة اليسـرى عبارة «أكثر من تشـويق».. والواقع ألاَّ معنى لذلك على الإطلاق. فالرواية مكتوبـة بالعربية، ولا مبرر لترجمة عنوانهـا إلـى الإنجليزية على كل صـفحة، أمـا «الأكثر من تشويق»، فيبدو تنشيطاً دعائياً لعمل هو في الواقع أرقى من ذلك، ولا مبرر له ولا أثر في نفس القارئ.

إلى ذلك، تطالعنا أحياناً بعض الأسـطر التي كتبت بالخط الأسـود الغليظ لفتاً للانتباه، وتمثل بعضـ الأفكار والحِكَم مثـل: «لا بأس من خسـارة معركة من أجل كسـب الحرب»، أو «الإنسـان الحـر هو الأقـدر علـى العطـاء» أو «الحقيقة ملـك للناس ولا يمكـن إخفاؤهـا»، أو «في بعض الأحيان تكون الحقيقة واضـحة كالشـمس، ولكن من شدة وضوحها لا نستطيع النظر إليها..».

وكان مـن الأجدى تـرك هذه الأفـكار والحكم تنسـاب في سـياق النص، لتصـل بقيمتها الحقيقية بشـكل عفوي إلى ذهن القارئ. أما تكبير الحروف التي كتبت بها، فيفصـلها عن السـياق، ويجعلنا نحاكمها بالاستقلال عمَّا عداها وعن سـياقها، وفي هذه الحالـة، لا تبدو مختلفة جـداً عن حِكَم مجلة «ريدرز دايجست».

وأخيـراً، وعلـى الرغم من أنني لسـت شخصـياً من الذين يتوقفون طويلاً أمام قضـية الصـرف والنحـو في الأعمال الروائية، فإن كثرة الأخطاء اللغوية في هذه الرواية وصـلت إلى حد يسيء إليها.

من الممكن أن نبتلع مرة جملة تقول: «وخرج رجلاً سميناً..» (ص 14)، ولكن عندما تليها على الصفحة المقابلة «غرفة ذي طابع أندلسـي..» ومن ثم «خـرج الرجلين» (ص 102) وما إلى ذلك الكثير من الأخطاء المشابهة، لا بد وأن يشعر القارئ بشيء من الانزعاج، مهما كان مشدوداً إلى القراءة. طبعاً، إننا لا نطلب من طبيب، ولا حتى من الراوي المحترف أن يكون عالم صرف ونحو أيضاً.. ولكن ألا يفترض بالناشر أن يبذل بعض الجهد لمعالجة هذا الجانب؟

إنهـا ملاحظات نبديها لا للانتقاص مـن قيمة هذه الرواية التي قرأناها باسـتمتاع، بل على العكس، لأننا نطمح إلى أن يتحفنا أديبها برواية ثانية. وأن تكون التالية أفضل.



مقتطفات

صفحات من..
حكومة الظل..

15

عام 1908

لاحظ خليل الوزَّان عند دخوله قصر طلعت باشا الشبه الواضح بينه وبين قصر الضيافة تماماً كما قال يوري بك كوهين. لا شك في أن القصرين صمما من قبل شخص واحد قد تأثر بالمعمار الأوروبي الممزوج ببعض اللمسات التركية. كانت أرضية المدخل مصفوفة بأجود أنواع الرخام المفروش بسجاجيد أصفهان المصنوعة من الحرير، أما الأسقف فكانت مزينة بمنقوشات جبسية مطلية بماء الذهب لا يضاهيها جمال سوى الثريا المصنوعة من الكريستال الخالص.

- «طلعت باشا يعشق البناء والمعمار». قال يوري بك لخليل الذي فوجئ بتعليقه كما لو كان يراقب نظراته وتأملاته للقصر. «أنت لم تقابل طلعت باشا من قبل، أليس كذلك»؟.
- «لا لم ألتق به ولم أسمع به قبل مجيئي إلى استانبول». قال خليل الذي بدأ يشعر بأن يوري بك يحاول التقرب منه ربما من أجل ضمه لكتلة الاتحاد والترقي في «مجلس المبعوثان».
- «أنا أعرفه جيداً.. يجب أن أعرِّفك عليه فهو من أكثر الساسة نفوذاً اليوم ولا أستبعد أن يصبح الصدر الأعظم عمَّا قريب خصوصاً إذا تولى الحكم سلطان جديد».
- «ماذا تقصد»؟ سأل خليل.
- «السلطان عبدالحميد الثاني لا يحب أهل سالونيك، فهو يعتبرهم أهل فتن، لذلك قاوم بشدة تعيينه صدراً أعظم بالرغم من كل الضغوطات». أجاب يوري بك ثم نظر إلى رجل أشقر في العقد الخامس كان يتحدث مع رجل آخر في أحد أركان المجلس ثم دخلا إلى قاعة مجاورة فقال «ها هو طلعت باشا».
- «تقصد الرجل الأشقر الذي كان يتحدث مع محمد جاويد باشا»؟ سأل خليل.
- «نعم هو، لقد دخلا إلى قاعة المكتب» قال يوري بك ثم بدأ بالاتجاه نحو الباب الذي خرج منه الرجلان من قاعة الاستقبال. «تعال معي سأعرِّفك على طلعت باشا».
- «لماذا لا ننتظر حتى يحضر إلى قاعة الاستقبال فربما يريد التحدث مع محمد جاويد باشا على انفراد».
- «الآن أفضل وقت للتعرف والتحدث إليه بعيداً عن باقي الحضور».

اتجه يوري بك نحو الباب المؤدي إلى قاعة المكتب مصطحباً معه خليل حتى وصلا إلى الباب ثم طرق عليه يوري بك ثلاث طرقات فدخل ومعه خليل.

- «مساء الخير. أنا آسف طلعت باشا على اقتحام خلوتك مع محمد جاويد باشا ولكني أردت أن أسلِّم عليك وأعرِّفك بخليل أفندي الوزَّان أحد مبعوثي ولاية الحجاز بعيداً عن زحمة الضيوف».
- «مساء الخير يوري بك، أهلاً بك وبخليل أفندي، أنت تعلم أنك لا تحتاج إلى استئذان». قال طلعت باشا مرحباً.

(...)

بدأ طلعت باشا بالتحرك نحو الباب ومعه يوري بك كوهين وخليل الوزَّان الذي توقف فجأة أمام مجسم انتبه له حين تحرك من أمامه طلعت باشا الذي كان يواريه بجسده الضخم. كان نفس المجسم الهرمي الذي يتوسطه نحت على شكل عين إنسان والذي رآه في مكتبة قصر الضيافة وكانت العين تنظر إلى حائط به مدفأة حطب كما في قصر الضيافة. «أيعقل أن يكون وجه الشبه بين القصرين إلى هذا الحد» تساءل خليل في خاطره.

- «ما الخطب خليل أفندي»؟ سأل طلعت باشا الذي لاحظ توقف خليل.
- «هذا المجسم الهرمي، رأيت مثله في قصر الضيافة، بل يكاد يكون هو نفسه».
- «نعم إنه جميل أليس كذلك؟ الهرم هو رمز قدرة

الإنسان على التشييد والبناء، بعض المؤرخين اعتقدوا خطأ أن العبيد هم الذين بنوا أهرامات الجيزة.. ولكن العبيد خليل أفندي لا يبنون الحضارات، أوليس كذلك؟».

– «نعم أتفق معك أن الإنسان الحر هو الأقدر على العطاء».

– «ألا تتفق معي أيضاً أن الحرية هي قيمة مقدسة تعلو فوق كل القيم»؟

– «طلعت باشا.. القداسة لله، والحرية هي هبة منه لعباده وليست حقاً لهم عليه». لم يعجب ذلك الرد طلعت باشا الذي بدأ يتحرك مجدداً نحو الباب مصطحباً معه يوري وخليل الذي توقف مرة أخرى ونظر نحو المجسم الهرمي الذي يتوسط القاعة. هذه المرة لفت انتباهه العين المنحوتة والتي تطل على حائط ذي مدفأة حطب كالتي في قصر الضيافة.

– «ما الخطب الآن خليل أفندي»؟ سأل طلعت باشا وقد بدأ ينفد صبره من ملاحظات خليل غير المرغوبة.

– «أي اتجاه ذلك الحائط الذي تنظر إليه العين المنحوتة في المجسم»؟

– «ماذا؟ لا أفهم قصدك»

– «خليل أفندي ما أهمية هذا السؤال»؟ سأل يوري بك الذي كان صامتاً طوال الوقت مستمعاً ومستمتعاً بالحوار الدائر بين خليل الوزّان وطلعت باشا الذي كان قد وضح عليه التوتر جرَّاء ملاحظات خليل.

– «ستعرف سبب سؤالي ولكن بعد أن أتلقى الجواب».

ظل طلعت باشا صامتاً لا يعرف بم يجيب خليل. في تلك الأثناء نظر يوري بك حوله ثم أجاب خليل إنه يعتقد أن الحائط يقع على الأرجح في اتجاه جنوب الشرق.

– «غريب».

– «ما الغريب خليل أفندي»؟ سأل طلعت باشا.

– «هذا نفس الاتجاه الذي تنظر إليه العين في مجسم قصر الضيافة».

– «يا لها من صدفة لا أعتقد أنها تعني الكثير. هيا بنا يا حضرات لا بد أن نخرج للضيوف». قال طلعت باشا وهو يتجه نحو الباب دون توقف مصاحباً معه يوري وخليل الذي كان يتمتم في سره «صدفة»؟ ثم تذكر قول الشيخ أبو بكر الحسيني بأن الصدفة هي تبرير الجاهل لم لا يفقه، ولكنه شعر أن كلمة «تبرير الجاهل» لا تنطبق على طلعت باشا.

17

كان نعيم يتناول وجبة الغداء في مطعم الفندق وعيناه على الجوال ينتظر مكالمتين. مكالمة من طلعت ليخبره بالذي جرى في المركز العربي للبحوث والدراسات، ومكالمة من فؤاد شوكت ليخبره بما توصل إليه مع كمال أغلو. كانت الدقيقة تمر على نعيم وكأنها دهر، لذلك عندما رن الجوال أسرع في الرد دون أن يرى اسم المتصل على الشاشة.

– «السلام عليكم أبو عبدالله، بشِّر ما الذي جرى في اجتماع البارحة مع فؤاد شوكت»؟ كان صوت شريكه سعد العثمان يحادثه.

– «وعليكم السلام.. وعدني بأنه سيتحدث مع كمال أغلو ويحاول أن يتوصل إلى حل معه يرضي جميع الأطراف، وما زلت أنتظر منه مكالمة».

– «إذاً كلِّمني حينما يأتيك خبر».

– «إن شاء الله.. بالمناسبة، هل سمعت بسلسلة من المقاهي تسمى الهرم الذهبي؟».

– «نعم رأيتها في بيروت عندما كنت هناك منذ أسبوعين. لماذا السؤال هل تفكر في أخذ وكالتها؟».

– «لا.. فقط لفت انتباهي سرعة انتشارها في عدة دول عربية. لقد اكتشفت البارحة أن فؤاد شوكت هو أحد الشركاء ولكن الشريك الأساس مغربي ولكني لا أعرف من هو. ظننتك قد تعرف».

– «فؤاد شوكت شريك في عدة شركات حول العالم فالرجل ملياردير. ولكن ما سر الاهتمام؟».

– «هناك أمر ما لا أدري ما هو لفت انتباهي إلى هذه السلسلة من المقاهي، لكني أريد أن أعرف أولاً من هم باقي الشركاء».

– «هذه مسألة بسيطة. سأطلب من مصطفى أن يأتي لك بكل ما يخص هذا الأمر».

كان شعور نعيم نحو «الهرم الذهبي» كشعور المسافر المتجه إلى المطار وهو يظن أنه نسي شيئاً لا يدري ماهو.



وكعادته، إذا صادف مثل هذا الشعور يصفي نعيم ذهنه من الموضوع الذي يشغله ويفكر في أمر آخر. كان الحل يقدم نفسه عاجلاً أم آجلاً.

بدأ نعيم يراجع الرسالة التي بعثها إليه الدكتور عبدالقادر مرة أخرى:

«عزيزي نعيم
لقد سعدت بلقائك البارحة فقد كانت أمسية جميلة قضيتها في حوار معك لا يمل.
لا أدري إن كنا سنلتقي مجدداً أم لا، فهناك الكثير من الموضوعات التي كنت أود التحدث فيها معك ولكن يبدو أنه لا نصيب لي في ذلك.
في الختام أقرئك السلام.
تحياتي إلى طلعت أحمد نجاتي.
ورحم الله جدك خليل 256 - 2 / 114
عبدالقادر بنوزاني 8 - 2 / 114».

بدت الرسالة لنعيم كما لو أنها أنهيت على عجل. فالبداية كانت مكونة من جمل طويلة والنهاية كانت جملها قصيرة ومقتضبة. هل كان الدكتور عبدالقادر يفكر في الانتحار عندما كتب الرسالة؟
ماذا كان يقصد بعدم درايته إن كانا سيلتقيان مجدداً أم لا؟
فهذه الجملة لا تدل على أن صاحبها ينوي الانتحار، إلا إذا كان قد قرر الانتحار بعد كتابة الرسالة.

كان نعيم يحاول أن يقرأ ما بين السطور متسائلاً إن كان هناك أمر غير واضح حاول الدكتور عبدالقادر أن يقوله لنعيم في هذه الرسالة. ولكن إن كان هناك أمر ما لِمَ لم يكتبه مباشرة دون تلميح؟
ثم ما القصد من السلام على طلعت نجاتي؟
فلا الدكتور عبدالقادر ولا هو قد التقيا بطلعت من قبل، بل إنه لم يسمع بالاسم قبل قراءة الرسالة؟
ظل نعيم يفكر في أمر الرسالة حتى رنَّ جواله وانتبه هذه المرة إلى اسم المتصل على الشاشة، كان طلعت.

- «نعيم أين أنت؟» سأل طلعت بصوت مضطرب.
- «أنا في مطعم الفندق، هل حصلت على شيء؟».
- «ربما.. فالأمر قد زادني حيرة.. لا أدري. ولكن عندي شعور بأن المسألة أخطر بكثير مما كنا نتوقع!».

19

حضر طلعت إلى مطعم الفندق حيث كان نعيم وقد بدا عليه الشغف بشكل جعل نعيم يشعر بأنه ربما قد وجد شيئاً مثيراً يضفي الضوء على رسالة الدكتور عبدالقادر.

- «يبدو أنك توصلت إلى شيء.» قال نعيم بلهفة.
- «بل إلى أشياء. نعيم المسألة أكبر بكثير مما كنت تتوقع.. ولكن لا يصلح الحديث هنا.»
- «نستطيع الذهاب إلى جناحي. ولكن ما الخطب لقد أثرت فضولي».
- «سأخبرك كل شيء ولكن ليس هنا. لا أريد أن يسمعنا أحد.» قال طلعت وهو ينظر حوله كما لو كان يخشى أن يكون مراقباً.

قاد نعيم طلعت نحو جناحه المكون من غرفة نوم وصالة جلوس منفصلة وهو يسابق الثواني والخطوات حتى يصل ويستمع إلى ما توصل إليه طلعت من أمر كبير على حد قوله.

- «ها قد وصلنا، هل يمكن أن تخبرني الآن إلى ماذا توصلت.» قال نعيم وقد ملأه الفضول.
- « نعيم، هل تذكر اسم الرجل الذي زار الدكتور عبدالقادر في تلك الليلة؟».
- «قلت لك لم يخبرني سوى أنه مدير قسم التاريخ بالمعبد.»
- «المعبد؟» تساءل طلعت.
- «هكذا تساءلت أنا الآخر، ولكنه أوضح بعد ذلك قصده بالمركز العربي للبحوث والدراسات.. الحروف الأولى من الاسم.»
- «غريب.. لم أسمع أحد يطلق عليه ذلك الاختصار.. على أية حال لا أعتقد أن المدير الحالي هو المقصود، فهو لم يستلم المنصب سوى الإثنين الماضي».
- «بعد وفاة الدكتور عبدالقادر بيوم.» ردد نعيم متفقاً مع طلعت. «ولكن ماذا عن المدير السابق؟»
- «هنا بيت القصيد.. لقد توفي الدكتور أحمد عبدالوارث

قبلها بيوم.»
- «ماذا؟» تساءل نعيم بدهشة.
- «ليس هذا فقط، الأغرب من ذلك هي الطريقة التي مات بها، لقد وجد مشنوقاً في منزله.» هنا كانت دهشة نعيم قد وصلت إلى ذروتها.
- «نفس اليوم ونفس الطريقة التي مات بها الدكتور عبدالقادر.» ردد نعيم.
- «أنا لا أعتقد أن ذلك كان اليوم العالمي لانتحار المؤرخين.. نعيم، أن ينتحر عالما تاريخ في نفس اليوم ذلك أمر مريب. ولكن أن ينتحر ثلاثة على صلة بطريقة غير مباشرة في نفس اليوم فذلك أمر خطير يجعلني أعيد تقييم الأمور كلها.» قال طلعت بنبرة جادة.
- «ثلاثة؟ تقصد اثنان.»
- «بل ثلاثة.. عندما كنت في مدينة تورنتو الكندية لتغطية مؤتمر الدول الثمانية كنت قد التقيت بصديق قديم يدعى موشي جولد. أخبرني عن أمر أدهشه كان قد اكتشفه صدفة يخص جد موفاز حائيم وزير خارجية إسرائيل. الشاهد في الموضوع أن موشي وجد منتحراً في منزله مساء السبت».
- «مساء السبت بتوقيت تورنتو.. صباح الأحد في المغرب ومصر.» ردد نعيم الذي بدأ يدرك سر دهشة طلعت. «ولكن ما علاقة موت صديقك بالدكتور عبدالقادر ومدير قسم التاريخ؟»
- «لست متأكداً بعد. ولكن لا يمكن أن تكون المسألة مجرد صدفة. الثلاثة لهم علاقة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. نعيم، الأمر أعقد بكثير مما تخيلت».

ساد الصمت المكان ونعيم يفكر في ما سمع من طلعت محاولاً أن يجد لنفسه تفسيراً لما حدث ولكن دون جدوى. الأمر كان أعقد من أن يكون مجرد مصادفة، ولكن ما الذي يجعل ثلاثة أشخاص في بقاع مختلفة من العالم يقدمون على الانتحار في نفس الوقت تقريباً؟

ألح السؤال نفسه على نعيم دون أن يجد له إجابة منطقية ترضيه فأخذ يسترجع مرة أخرى ذكريات ذلك اللقاء الأخير مع الدكتور عبدالقادر. حدثه عن الكتاب الذي أعد له عن أواخر عهد الخلافة العثمانية وعلاقتها بالاتحاد والترقي. كان الحماس يغمره وهو يتحدث عمّا سيحتويه الكتاب ثم ذكر له جده خليل وفاجأه بأنه كان في مجلس المبعوثان في أواخر عهد السلطان عبدالحميد الثاني.

كان الدكتور عبدالقادر يتمتع بوهجه المعتاد إلى أن عاد من لقاء ذلك الزائر. «مدير قسم التاريخ بالمعبد» كان ذلك كل ما قاله عن ذلك الرجل الذي أخبره بنبأ وفاة أحد زملائه.

- «طلعت، هل تدري إن كان قد توفي أحد العاملين بالمركز العربي للبحوث والدراسات منذ أسبوعين أو أكثر قليلاً؟».
- «أستطيع أن أسأل لك، ولكن بماذا تفكر؟».
- «هناك حلقة مفقودة في الموضوع وأشعر أن الحلقة لها علاقة بذلك الرجل الذي زار الدكتور عبدالقادر والخبر الذي أبلغه إياه. ما لا أفهمه إن كان الزائر هو أحمد عبدالوارث فمتى عاد إلى القاهرة ولماذا انتحر هو الآخر. ألا ترى معي أن الفترة الزمنية كانت ضيقة؟».

نظر طلعت إلى نعيم وهو يتأمل سؤاله. نعيم على حق، الرجل زار الدكتور عبدالقادر مساء السبت في الرباط ثم وجد مشنوقاً فجر الأحد في منزله بالقاهرة. هل يعقل أنه في غضون يوم واحد رجع إلى القاهرة ثم قرر الانتحار. وهل الذي ينوي الانتحار يسافر لمقابلة زميل له ويخبره بوفاة زميل آخر؟
- «هل تقصد أن الذي زار الدكتور عبدالقادر ليس أحمد عبدالوارث؟ ولكنك قلت أن الزائر كان مدير قسم التاريخ».
- «هذا ما قاله لي الدكتور عبدالقادر، ولكن ربما كان يقصد شخصاً آخراً».
- «أو ربما كان يريدك أن تعتقد أنه هو الدكتور أحمد عبدالوارث». قفز طلعت من مكانه مع جملته الأخيرة وقد بدى الوهج في عينيه كأنه اكتشف سراً من أسرار الكون. «نعيم أنا ذاهب لمقابلة زوجة أحمد عبدالوارث، هل تريد الذهاب معي؟».
- «الآن دون موعد؟» تساءل نعيم الذي لم يفهم سر الحماس المفاجئ لطلعت.
- «سأكلمها عبر الجوال ونحن في الطريق، ولكن عندي إحساس أن ما ستنبؤنا به سوف يكشف جانباً من هذا الغموض».

قول آخر

المنهج الخفي للنص الجديد

خالد بن عبدالرحمن العوض*

يتعلم الطلاب داخل مدارسهم أكثر مما هو محدد لهم في المقررات الرسمية المكتوبة من قبل الجهات التعليمية المسؤولة؛ إذ يفرِّق منظِّرو المناهج بين نوعين من المناهج التي تُقدَّم للطلاب داخل مدارسهم أحدهما رسمي (formal) يتم تحديده وتفصيله بشكل واضح ومكتوب كالمقررات الدراسية والسياسة التعليمية ، والآخر مخفي أو غير رسمي (hidden) يتعلمه الطلاب من خلال ما ينفلت من المنهج الرسمي، وقد يكون هذا الخروج عن النص مدمِّراً بحيث قد يتناقض معه تماماً وينسفه من حيث لا يدري المعلم أو الطالب أو حتى الجهة المسؤولة عن التعليم. هذا هو المنهج الخفي في الجانب التعليمي، لكن هل من أحد سمع قبل ذلك بالمنهج الخفي (hidden curriculum) للنص الأدبي؟

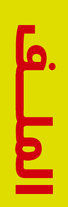
لا أحد، ضمن حدود معرفة كاتب هذه الكلمات المتواضعة، استخدم هذا المصطلح في النص الأدبي، إلا أنه يمثِّل حقيقة واقعة لا تقبل الشك. فكثيراً ما يتفاجأ المؤلفون برواج كتاب معين لهم كانوا يعتقدون بعدم أهميته، والعكس صحيح، والسبب في ذلك يعود إلى أن المنهج الخفي للنص الأدبي يتفاعل مع القارئ، فيجد أرضاً مختلفة عن تلك التي كان يقصدها المؤلف، فتنتج علاقة جديدة بين القارئ والنص بعيدة عن المؤلف الذي كان دوره فقط مهيئاً للظروف، والأمر شبيه تماماً بدور المعلم في العصر الحديث الذي يهيئ ظروف التعلّم للمتعلم.

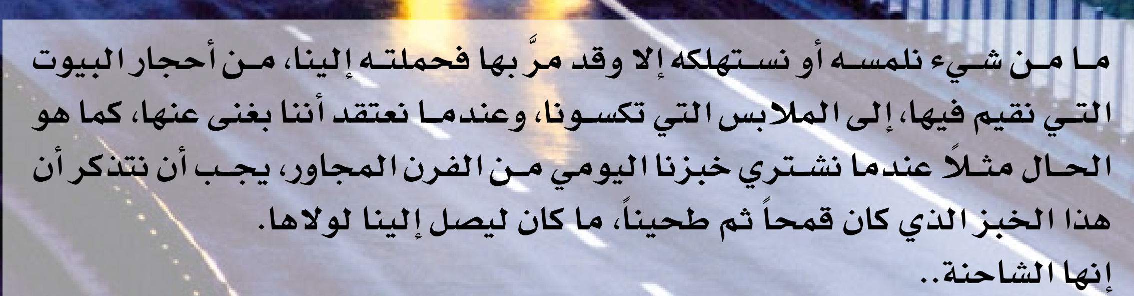
ورغم أن البنيويين تحدثوا عن اغتيال المؤلف أو بمعنى آخر غياب دوره في السيطرة على نصه، إلاَّ أن الأمر لم يتحوَّل كما هو الأمر هنا في المنهج الخفي للنص الأدبي إلى اغتيال جديد للقارئ ، وليس فقط مؤلِّفه! كيف يمكن ترجمة وقبول مثل هذه النتيجة التي تعصف بالقارئ بعد أن عصفت بالمؤلف؟

الأمر بسيط جداً. القارئ الذي يتناول نصَّاً معيناً، ولنقل على سبيل المثال لا الحصر رواية لإيرنست هيمنجوي أو جابريل جارسيا ماركيز، هو فقط يستنتج قراءة خاصة به نتجت عن التفاعلات التي عاشها في حياته، ويختلف تماماً عن آلاف القرَّاء الآخرين الذين يتناولون نفس النص. أي أن هناك آلاف القراءات للنص الواحد الذي كتبه هيمنجوي أو ماركيز. أي أن اللغة التي استخدمها هيمنجوي قد أدَّت ليس فقط إلى اغتياله هو، بل اغتالت قارئه معه وذلك بتهميش دور قراءته للنص لأن هناك آلاف القراءات لنفس النص، الأمر الذي يعني عدم الاعتراف بهذه القراءة كحقيقة مطلقة وبالتالي موتها أو نهايتها.

هذه الصورة السوداء للنص الجديد في هذا العصر الميتافيزيقي الجديد ناتجة عن انفلات النص وعدم قدرة مخترعه على السيطرة عليه. ولكي تكون الصورة واضحة، لنأخذ مثلاً مشهد إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين على أنه نص أدبي. كيف يمكن تطبيق المنهج الخفي أو هذا المفهوم الجديد للنص الأدبي عليه؟ يمكن اعتبار المنهج الخفي في هذه الحالة أنه الطبيعة الغامضة وغير المتبلورة لتلك القراءة الخفية التي غابت عن المؤلف والذي كان يقصد شيئاً مغايراً لما كان يعتقد أنه قراءة رسمية لنفس المشهد أو النص. لك، عزيزي القارئ، أن تتخيل القراءات العديدة والتي تصل إلى التضاد الكامل لنفس المشهد عندما تتخيل قرَّاءً من أستراليا، اليابان، بنجلاديش، إندونيسيا، الأردن، مصر، إيران، عُمان، أمريكا، روسيا، والعراق نفسها. لقد انفلت النص من المؤلف كما انفلت من القارئ على نحو لم يكن متوقعاً ولم يحسب له المؤلف أي حساب، وهذا هو المنهج الخفي الجديد للنص الأدبي في القرن الحادي والعشرين!

* كاتب ومترجم سعودي





ما من شيء نلمسه أو نستهلكه إلا وقد مرَّ بها فحملته إلينا، من أحجار البيوت التي نقيم فيها، إلى الملابس التي تكسونا، وعندما نعتقد أننا بغنى عنها، كما هو الحال مثلاً عندما نشتري خبزنا اليومي من الفرن المجاور، يجب أن نتذكر أن هذا الخبز الذي كان قمحاً ثم طحيناً، ما كان ليصل إلينا لولاها.

إنها الشاحنة..

الشاحنة التي يعتاش منها ويعيش معها الملايين أينما كانوا في العالم.. كما أن العالم بأسره مدين بما هو عليه اليوم إلى الشاحنة التي تحتل مكاناً بارزاً في لائحة الاختراعات الأكثر تأثيراً على الحضارة والتطور، إلى جانب الأبجدية والكهرباء والكمبيوتر.. رغم أن الذين أوفوها حقها من التقدير لم يكونوا بتلك الكثرة.

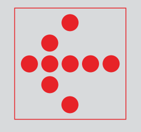
رجب سعد السيد*، وبمساهمة محدودة من فريق التحرير، يجول بنا في هذا الملف على طرقات العالم، مستطلعاً عالم الشاحنة اختراعاً وتطوراً، وثقافةً وخدمات.

الشاحنة

آلة لا تنفصل عن الحياة

* كاتب مصري

getty



في البدء كانت العضلات للتنقُّل والنقل. وانتظر الإنسان طويلاً ليغيِّر مصادر قدرته على الانتقال بذاته ومنقولاته، من عضلات جسمه المجرَّدة، إلى المحرِّك البخاري، الذي كانت له السيادة في القرن 19، حين أصبح تسخير البخار أكثر مكتسبات البشرية جسارةً. واستولت فكرة قوة البخار على خيال الفنانين والشعراء، وبدا المزاج العام للرأي السائد في ذلك الوقت، على نطاق الحضارة الغربية، متفائلاً بما سوف يحققه المحرِّك البخاري من آمال.

حلم عمره آلاف السنين يتحقق

لقد أدرك الإنسان، منذ فجر التاريخ، أهمية النقل ووسائله، فكان سعيه الدائم والدائب إلى تطوير اختراعاته في هذا المجال، فعرف الصينيون عربة اليد كوسيلة نقل في القرن الأول ق.م.، وينسب اختراعها إلى رجل ذي شخصية شبه أسطورية، يدعى جوو يو. وقد تم العثور على أقدم وصف لطريقة بناء تلك (الشاحنات) البدائية في لوحة بالنقش البارز، وكانت صياغة الوصف مبهمة، حتى (لا يستفيد منها الأعداء)!.. لقد كانت عربة اليد الصينية من آليات الحرب المهمة التي أحاطها الصينيون بالتكتم الشديد، وكان بعض أنواعها يستخدم في نقل القوات والإمدادات، كما كانت تستخدم في إنشاء الحواجز الدفاعية المتنقلة لصدِّ هجمات الخيَّالة. وكانت تجري على عجلات مختلفة الأشكال والأحجام. كما زوَّدها الصينيون بالأشرعة، وكانت سرعة عربات اليد ذات الشراع تقترب من 60 كم/ساعة!



شاحنة زمان... لم تزل اليوم

الأساس: العجلة والطريق

ولقد كانت العجلة أحد الاختراعات العبقرية ذات التأثير الهائل على حياة الإنسان في كل العصور، فبها أصبحت عملية نقل البضائع أسهل وأسرع؛ وقد ترتب على ذلك خروج الإنسان من القرى الصغيرة -مراكز إنتاج الغذاء- إلى المدن، حيث استقر وقد اطمأن إلى أن احتياجاته من المواد الغذائية ستصله على (العجلات)، التي كانت من أهم عوامل تكوين المجتمعات المتحضرة. وظلت العجلة محل اهتمام الإنسان، يحرص على تطويرها وتحسين كفاءة أدائها، ليتحقق للمركبات التي تنقله وبضائعه من موقع إلى آخر عنصرا الأمان والسرعة. وبالرغم من ذلك، فإن الإطارات التي تنفخ بالهواء المضغوط لم تظهر إلاَّ في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، لتستخدم مع العجلات الخشبية، ثم مع العجلات ذات الأسلاك في الدراجات، ثم مع عجلات السيارات المصبوبة من الحديد، وأخيراً، ظهرت عجلات سيارات مصنوعة من الصلب بطريقة الكبس، وتميزت بخفة الوزن وقوة التحمل.

وليس من اليسير تخيُّل عجز غالبية البشر عن الحركة والتنقل قبل مجيء شبكات النقل الحديثة. فحتى أواخر القرن الثامن عشر، كان الناس في كل بقاع العالم يميلون إلى الاستقرار، وكانت الدائرة التي يقضي فيها الإنسان كل عمره غير قادر على أن يتعدى محيطها، لا يزيد قطرها -في المتوسط- على كيلومتر تعد على أصابع اليد الواحدة. وكانت الحياة في أوروبا شبه جامدة لعدم وجود وسائل نقل موثوق بها. فقد كان النقل البري معتمداً كلِّيَّةً على الحيوانات، ولم يكن متاحاً إلاَّ للميسورين الذين يملكون القوة المحرِّكة: الخيول. ومن جهة أخرى، بقيت الطرق مهملة منذ عصر الإمبراطورية الرومانية؛ وكان نقل البضائع يجري باستخدام سلال مربوطة بالحبال

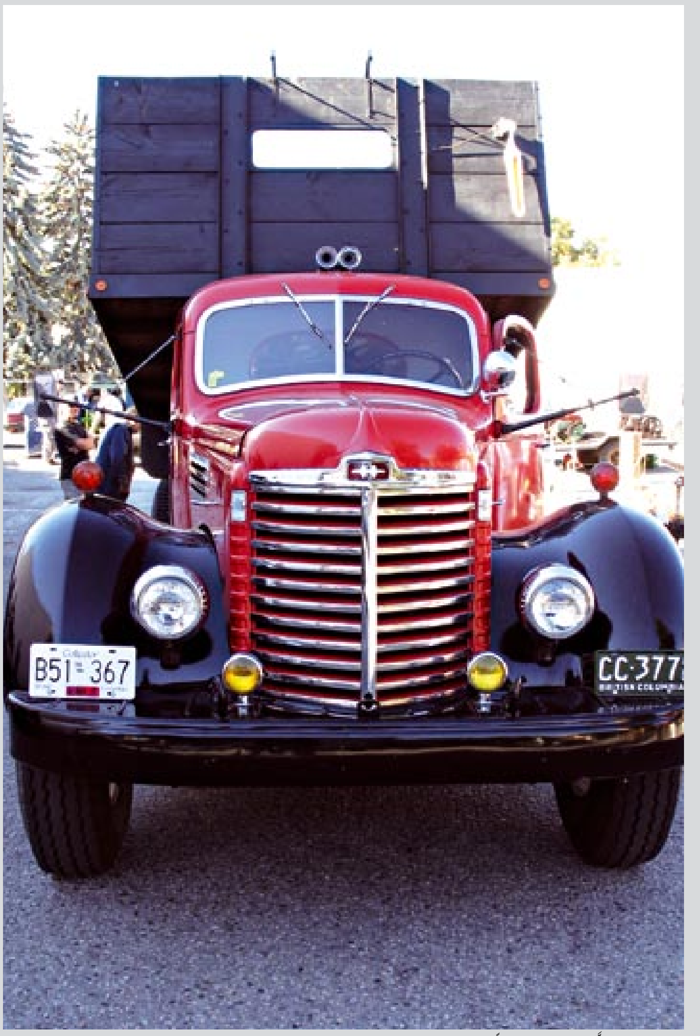

البدعة التي صمدت

فـوق ظهور الخيـل، وكان ذلك يعني أن نقـل كميات كبيرة من السـلع (النقل التجـاري) أمر باهظ التكلفة، بل شـبه مستحيل.

وقبـل العـام 1860م، لـم تكـن الطـرق تعرف غيـر النقل بالمركبات التي تجرها الجياد. وحتى بعد أن عرف الإنسان آلة الاحتراق الداخلي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القـرن العشـرين، لم تختـفِ الجيادُ، وبقيت كوسـيلة جرٍّ اعتيادية، ومرَّ على الحضـارة البشرية زمن ليس بالقصير كانت تسـتخدمُ خلالـه خليطاً من وسـائل النقل: مركبات الجياد، مركبات المحـركات البخارية، محركات الاحتراق الداخلـي، وغير ذلك. ويبـدو أن نفراً ممن عاصـروا ذلك الزمـن لـم يكونوا يأملون فـي تطور وسـائل النقل، فها هو رئيـس أحـد البنـوك الأمريكية يقف ضـد تمويل مشـروع لشركة فورد، في عام 1903م، ويتشكك في قيمة المركبات الآلية المسـتحدثة، فيقول: « لقد وُجِدَ الحصانُ ليبقى، أمَّا السيارات، فهي مجرد بدعة»!.

أسـقط الزمـن ظنـون المتشـككين، الذيـن لم يدركـوا أن «المركبة التي تسـير آلياً على عجلات» كانت أكثر من بدعة محكوم عليها بالزوال. فقد كانت حلماً دفعت الحاجة البشر إلـى تحقيقـه، فوُجِدت السـيارةُ - الآلة والأسـطورة، التي تحولـت إلى رمز من رموز المجتمع الحديث، تعزز إيقاعات الحياة فيه، وتفرض مجالاً فسيحاً من القواعد والممارسات والسـلوكيات الفردية والجماعية الآخذة في الترسُّخِ، حتى وقتنا هذا. لقد أصبحت السيارة، في بضعة عقود، المحرِّك الأسـاس لاقتصـاديات السـوق، لأنهـا تشـبع مجموعة من الحاجـات والرغبات والمقتضـيات والخيالات التي تجسِّدُ تطلعات الإنسان العصري، والتي يمكن تلخيصها في كلمات قليلة: تحقيق حرية حركته الشخصـية، تحكمه في المحرِّك الآلي، إحلال القدرة الحصانية محل الحصان.

إن جولـة بيـن محطـات تاريخ النقـل تملي عليك إحساسـاً بـأن معظـم الطاقـة التـي توافرت للبشـر، على مـر تاريخ حضـارتهم، قد استهلك في نقل الأشياء من موقع إلى آخر، وكان النقـل يتم -طيلة آلاف السـنين- بسـرعة منخفضـة جـداً، لـم تزد على 2 - 3 ميل/سـاعة. ولما دجَّن الإنسـان الحصـان واسـتخدمه للحمل والجر، لم تزد هذه السـرعة زيادة محسوسـة، فمع أن حصان السـباق يمكنه أن يتجاوز سـرعة 40 ميلاً في السـاعة، لفترات زمنية قصيـرة جداً،



الشاحنة القلَّابة... اختصاراً للجهد والوقت



إلاَّ أن حركته بطيئة وهو يجرُّ العربات المحملة بالناس ومنقولاتهم؛ وأسرع هذه العربات -تلك التي رأيناها في «قصة مدينتين»، وغيرها من روائع تشارلز ديكنز- لم تكن تتجاوز سرعتها عشرة أميال بالساعة، على الطرق التي كانت موجودة قبل القرن التاسع عشر. وظل البشر لا يعرفون سرعة تتعدى ما بين الميل الواحد والعشرة أميال لكل ساعة. وفجأةً، حدث انقلابٌ في منتصف القرن العشرين، فتضاعفت سرعة النقل عشرات، بل مئات المرات.

الشاحنات الحديثة الأولى

كان هنري فورد هو من صنع أول سيارة في عام 1896م، وفي العام نفسه نجح في إلغاء قانون غريب، هو «قانون الراية الحمراء»، الذي كان يفرض عقوبة على جميع أشكال الدفع الميكانيكي للحركة على الطرق!. ثم شهدت ثلاثينيات القرن العشرين تطوراً ملحوظاً في تصميم السيارات عموماً، ومن بينها الشاحنات. وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى، كانت الشاحنات تُبْنَى على محورين، واستدعت ظروف الحرب زيادة حمولة الشاحنة الواحدة، اقتصاداً للوقت والوقود. ولكي يتوافر في الشاحنة حيِّزٌ أكبر لهذه الزيادة في الحمولة، كان أمام مصانع الشاحنات ثلاثة خيارات: إضافة مزيد من المحاور إلى هيكل الشاحنة، أو إلحاق مقطورة بها، أو تمديد حيز الشحن بأجزاء إضافية متمفصلة مع جسم الشاحنة. واختارت المصانع الخيار الأول، وظهرت في العام 1930م شاحنات ذات محور إضافي خلفي، ثم شاحنات ذات محاور توجيه أمامية مزدوجة، مع محورين خلفيين.

ومن التطورات التي لحقت بشاحنات الثلاثينيات أيضاً، ظهور محركات الديزل التي نافست محركات البنزين في الناحية الاقتصادية، وإن كانت أقل سلاسة في التسيير. وشهدت السنوات القليلة الأخيرة من عقد الثلاثينيات أفول نجم شاحنات القوة البخارية، وانخفاض أسهم مركبات النقل التجارية التي تعمل بغير محركات الديزل. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، أوقف معظم منتجي الشاحنات خطوط إنتاج المركبات التجارية غير العسكرية، وصاحب ذلك -بطبيعة الحال- توقف محاولات تطويرها، ودام ذلك الحال حتى العام 1945م.

الشاحنة تفرض نفسها

شهدت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية اهتماماً واضحاً بالطرق السريعة في انجلترا. وكان ذلك لصالح الشاحنات وعلى حساب السكك الحديدية. إذ كان المطلوب -قبل ذلك- أن تفرغ قطارات البضائع حمولاتها ليعاد التحميل على شاحنات تصل بالبضائع إلى مخازن التجار أو مراكز التوزيع. وكان في ذلك مشقة وزيادة في القوى العاملة، ويترجم ذلك في زيادة في تكلفة النقل.. فلماذا لا تختصر العمليات، فتحمل الشاحنات المنتجات من المصانع إلى السوق، مباشرةً؟. وقد تزامن هذا التساؤل مع تحسن في نوعية الطرق السريعة، كما أسلفنا، فزادت سرعة عمليات النقل، وترتب على ذلك تحسن في اقتصاديات شركات الشاحنات، والاقتصاد الإنجليزي على وجه العموم.

إذن، نجحت الشاحنة في أن تفرض وجودها على حياة الناس، وأصبح اسمها من مفردات الحياة اليومية، يتردد في وسائل الإعلام، وفي الأسواق، وفي لغة الأحاديث الاعتيادية للناس. لقد جاء اسمها في الإنجليزية «truck» من الكلمة اليونانية «trochos»، ومعناها «العجلة»، وتنوعت أسماؤها، جغرافياً، وحسب ثقل حمولتها، فيستخدم الأمريكيون أسماء «فان»، و «بيك أب»، و «سوف» لأنواع مختلفة من الشاحنات. وفي أستراليا يطلقون اسم «سيارة خدمات» على الشاحنات الصغيرة مفتوحة السطح، بينما يختص اسم «truck» بالشاحنات الثقيلة. وللشاحنة اسم إنجليزي آخر هو الـ «لوري»، ويطلق على الشاحنات المتوسطة والثقيلة؛ ويشيع هذا الاسم بمنطوقه الإنجليزي في بعض اللهجات العامية العربية، وكان يستخدم قديماً للدلالة على مركبة تجرها الجياد، خفيفة الحمولة، كانت تستخدم بالمقام الأول لنقل المركبات الأخرى من وإلى ورش الصنع والصيانة والإصلاح؛ لذلك كان سطحها متسعاً، وكانت نسخة خشبية من الشاحنة الناقلة للسيارات المعروفة حالياً. وبمرور الزمن، وكما هو الحال في أمور كثيرة أخرى، «ذهب الجسم وبقي الاسم»؛ فظلت كلمة «لوري» مستخدمة لتدل على شاحنة يسيرها محرك حديث.

corbis


76483PR

الشاحنة والطريق.. اثنان لا ينفصلان

منذ أن تخرج الشاحنة من مصنعها، تصبح جزءاً لصيقاً من الطريق حتى آخر يوم من عمرها. والتصاق الشاحنة بالطريق ليس مجرد تحصيل حاصل بفعل مواصفاتها التي تستلزم بقاءها وسيرها على الطريق المؤهل وحده لاستقبالها ومشاركتها في أداء مهمتها. فتاريخ الشاحنة ارتبط بتاريخ الطريق، وأسهم تطور كل منهما في تطور الآخر.

لقد كان الرومان هم أول من اهتم بإنشاء الطرق على نطاق واسع، لتسهيل تحركات فيالقهم العسكرية. ولما انهارت الإمبراطورية الرومانية، واستقل نبلاء العصور الوسطى بحكوماتهم الصغيرة (الدول/المدن)، أهملوا الطرق التي كانت تربط بين هذه المدن، كإجراء وقائي ضد احتمالات الغزو وأطماع المدن المجاورة. وفي القرن الرابع عشر، ضعفت سلطة النبلاء، وعادت الممالك الكبيرة إلى الظهور. واقتضت ممارسة السلطة من الملوك أن يداوموا الترحال عبر ممالكهم، تعزيزاً للسلطة، فعاد الاهتمام بالطرق الرئيسة. وكانت الملكة إليزابيث الأولى أول من أنشأ هيئة حكومية لصيانة الطرق وتحصيل الرسوم المفروضة على المسافرين. وفي العام 1716م، اضطلع ملك فرنسا بنفسه بمسؤولية المحافظة على الطرق في مملكته؛ كما شجع نابليون بونابرت عمليات إنشاء الطرق في فرنسا وأوروبا، ليضمن توافر محاور مباشرة جيدة، تتحرك عليها جيوشه، ولأجل هذا الهدف الاستراتيجي، أنشأ عدداً من الطرق تخترق جبال الألب.



الشاحنة والطريق.. صار تاريخهما واحد

corbis

بلا حدود للسرعة

حققت هذه الاهتمامات الواضحة بالطرق حركة كبيرة لعمليات النقل بالعربات التي تجرها الجياد، بلغت أوجها في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، حين ظهرت السكك الحديدية، وبدأت العربات ذات الجياد تفقد أهميتها، فتراجع الاهتمام بإنشاء الطرق، وتحول إلى مد خطوط السكك الحديدية. وفي مستهل القرن العشرين، عاد الاهتمام بالطرق بعد التطورات الكبيرة التي دخلت إلى عالم النقل بالسيارات ذات المحرك، وسعى مهندسو الطرق إلى تحسين حالة سطح الطريق، وعرفوا استخدام الحصباء المخلوطة بالقطران. ثم نشبت الحرب العالمية الأولى، فتوقف الاهتمام بتطوير الطرق، إلى أن جاءت الفترة بين الحربين فشهدت نهضة واضحة في إنشاء الطرق الكبيرة، وكان ذلك -بالدرجة الأولى- استجابة للنمو الهائل في صناعة السيارات الأمريكية، وفي الوقت نفسه، ظهرت الطرق الألمانية العريضة، التي كانت توصف بالطرق التي (تنطلق عبرها السيارات بلا حدود للسرعة)!.

منذ ذلك الوقت، أصبحت المعايير التي يتأسس عليها التصميم الهندسي للطرق تتحدَّد على أساس العلاقة التفاعلية التي ستنشأ بين الطريق والمركبة الثقيلة التي ستجري عليه، وأهمها المركبات التجارية الثقيلة، أو الشاحنات، بتصميماتها المتعددة، فهي المركبات الأثقل والأكثر تردداً على سطح الطريق. إن هذه المركبات، على سبيل المثال، تمثل أكثر من ثلث حركة المرور على الطرق التي تربط بين الولايات الأمريكية. وتتعدد أنواع الشاحنات، فمنها الشاحنة المفردة، والشاحنة المركَّبة



corbis

اوزانٌ على شاحنة.. على جسر

من أكثر من وحدة (قد يصل عدد الوحدات المقطورة إلى ثلاث وحدات)؛ ولكل نوع خصائصه التي يجب أن تكون واضحة أمام القائمين على إدارة وتشغيل الطرق السريعة، لتتكون لديهم صورة واضحة عن تأثير الشاحنات على حالة الطريق، بهدف تحقيق عنصر الأمان للحركة على هذه الطرق.

عصر المعايير للطرق والشاحنات

وبالإضافة إلى وزن الشاحنة وحمولتها الذي يرخي بظله على تصميم أساسات الطرق، ونعومة أو خشونة سطحها الأسفلتي لما له من تأثير على قدرة الشاحنة على الفرملة، هناك معايير عديدة يصعب حصرها، بعضها تم وضعه لإنشاء الطرق بعد أخذ الشاحنة بعين الاعتبار، وبعضه الآخر وضع للشاحنات لتتكيف مع معطيات الطرق. فثمة معيار على سبيل المثال يحدد ارتفاع مستوى الرؤية لكل من سائق سيارة الركوب العادية وقائد الشاحنة، ويبلغ الارتفاع للأول متراً واحداً وثمانية سنتيمترات، وللثاني مترين وأربعة سنتيمترات؛ وذلك يتيح لقائد الشاحنة أن يرى أبعد من مدى رؤية سائق السيارة العادية عند اجتياز طرق منحدرة. ويترتب على ذلك أن الأول قد يبادر بالاستجابة لمشكلة مرورية يراها هو قبل أن يلحظها الثاني. وقد تأتي الاستجابة في صورة توقف اضطراري، تفادياً للاصطدام مثلاً. وهذه ميزة نسبية لصالح الشاحنة. وفي كل الأحوال، فعلى من يسير خلف شاحنة في مثل هذه الظروف أن يحتفظ بكامل يقظته، توخياً للسلامة.

كما أن ارتفاع الشاحنة يمكن أن يحجب علامات الطريق عن السيارات الصغيرة التي تسير مجاورة لها، وقد يتسبب ذلك في مشكلات، وربما حوادث خطرة لهذه السيارات وركابها. وينجح بعض إدارات المرور في التغلب على هذه المشكلة باستخدام علامات علوية بعرض الطريق، وبتوفير إشارات للتنبيه على كل من جانبي الطريق. وحرصاً منها على تحسين حركة المرور، وتوخياً للسلامة على الطرق السريعة، تخصص بعض إدارات المرور (حارات) أو مسارات محددة للشاحنات الثقيلة، غالباً ما تكون على الجهة اليمنى من الطريق. وعندما تكون الطرقات السريعة تفتقر إلى عدد المسارب الملائم لكثافة السير عليها، تلجأ بعض الأنظمة إلى ضبط سير الشاحنات في أوقات محددة، وأحياناً ضمن قوافل تواكبها سيارات الشرطة منعاً للمخالفات.

توأم السيارة.. الذي لايشبهها في شيء

الشاحنات ثلاثة أنواع، حسب الحجم أو الوزن:

1 - **الشاحنة الخفيفة:** لا يتعدى وزنها في الولايات المتحدة الأمريكية 6300 كجم، وفي إنجلترا 3500 كجم؛ ولها حجم عربة الركوب العادية، تقريباً، ويستخدمها الأفراد وشركات النقل، على حد سواء.

2 - **الشاحنة المتوسطة:** ويحدد الأمريكيون وزنها ما بين 6300 و 15 ألف كجم، أما أقصى حد لوزنها في إنجلترا فهو 7500 كجم، وتستخدم في نشاطات النقل الداخلي، كما أنها تعد لتقوم ببعض الخدمات المحلية (شاحنات خزانات الصرف، شاحنات نقل مياه الشرب، شاحنات نقل المخلفات.. الخ).

3 - **الشاحنة الثقيلة:** هي أضخم شاحنات يسمح لها بالعمل على الطرق السريعة، وأغلب خدمتها في الرحلات الطويلة، و يصل أقصى وزن لها إلى 50 طناً.

بعض أوجه اختلافها عن السيارة

ولا ينبغي لنا أن نفكر في الشاحنة على أنها مجرد سيارة كبيرة. فالمؤكد أنها أكثر من ذلك، إذ ثمة اختلافات جوهرية معقدة، لا مجال للخوض بها الآن. وإذا اكتفينا بالفوارق البسيطة، فنجد أن سائق الشاحنة يحتاج إلى رخصة خاصة لقيادتها، نظراً للاختلافات الكبيرة بين قيادة سيارة صغيرة وشاحنة. فالسيارة الصغيرة، على سبيل المثال، تحتاج إلى 133 قدماً لإبطاء السرعة والتوقف إذا كانت تسير بسرعة 55 ميلاً في الساعة. أما شاحنة تجر مقطورة محملة وتسير بالسرعة نفسها فتحتاج إلى 196 قدماً للتوقف. ناهيك عن المهارات الخاصة المطلوبة في سائق الشاحنة على صعيد تجاوز السيارات، والانعطاف خاصة في الطرق الضيقة نسبياً.

إلى ذلك، تختلف الشاحنة عن السيارة في تفاصيل بنيتها المختلفة تماماً عن بنية السيارة. فالهيكل وهو الإطار الأساس للشاحنة، يتركب من حزمتين رئيستين على شكل حرف (U)، وعدة عوارض وماسكات، ويصنع من الصلب، وفي بعض أنواع الشاحنات من سبائك الألومنيوم، جزئيا أو كلياً؛ وهو المكون الرئيس للشاحنة، وتُثَبَّتُ عليه كل أجزائها. ومقصورة السائق هي مكان مقفل يخصص للسائق، يجلس فيه أثناء قيادته للشاحنة، ويلحق به (مخدع) صغير، يستريح فيه السائق في فترات توقف الشاحنة.

Google

وقد تبنى المقصورة فوق محرك الشاحنة التي تسمى في هذه الحالة (مسطَّحة الأنف)، وهي شائعة جداً في أوروبا، لأنها تختصر طول الشاحنة، وهو عنصر تراعيه قوانين ولوائح النقل والمرور الأوروبية على نحو خاص. وبالطبع، فإن مقصورة الشاحنة من النوع مسطح الأنف هي من الصنف القلاَّب، أي يتحرك إلى الأمام ليكشف المحرك في حالات الصيانة وعند الإصلاح. والأكثر شيوعاً في أمريكا الشمالية هي الشاحنات التقليدية ذات المقصورات التي تتقدمها المحركات، وتسمى (طويلة الأنف)؛ ومن شأن هذا التصميم توليد مقاومة كبيرة للريح، ويترجم ذلك إلى استهلاك أكبر للوقود. كما أن الشاحنة طويلة الأنف تحد من قدرة السائق على الرؤية، على العكس من مسطحة الأنف.

وتسير الشاحنات بأنواع متعددة من المحركات، فالغالب الأعم من الشاحنات الأمريكية الصغيرة والمتوسطة يعمل بمحركات البنزين، أما الأثقل وزناً فيناسبها محركات الديزل التوربينية ذات السرعات الأربع.



stockXchange

السلم الى مقصورة السائق.. خلف الدولاب الامامي!


corbis

يتفقد إحدى العجلات

إطاراتها.. قضية بحد ذاتها

ولعجلات الشاحنات مواصفات خاصة، تختلف باختلاف نوع الشاحنة وما تقوم به من مهام، وهي تحتاج إلى رعاية خاصة. فغالبية الذين يقودون السيارات العادية لا يلتفتون إلى أحوال الإطارات في سياراتهم إلا عندما يفاجأون بأن أحدها قد أُفرغ من الهواء. أما سائقو الشاحنات العاملة في صناعة التعدين، وهي شاحنات عملاقة يصل قطر عجلاتها إلى 12 قدماً، ووزنها 7500 رطل، فإنهم يولون عظيم اهتمامهم بهذه العجلات وإطاراتها، ويعلمون جيداً أن هذا المطاط الذي يلتف على محيط كل عجلة يساوي وزنه ذهباً. إن تغيير إطارات شاحنة واحدة من شاحنات نقل الخامات التعدينية الثقيلة التي يصل طولها إلى أربعين قدماً، يكلف نحو عشرين ألف دولار، وذلك يتم بصفة دورية، كل سنة. كما أن عملية تغيير الإطارات ليست بالسهلة. فأنت يمكنك تغيير إطارات سيارتك الخاصة بنفسك، على الطريق، وخلال ربع ساعة، بينما تغيير إطارات شاحنة عملاقة لا يقدر عليه غير فريق من العمال، ويستغرق حوالي نصف يوم.

الجدير بالذكر، أن ما تنتجه المصانع من هذه الإطارات العملاقة لا يكفي احتياجات السوق. ونتيجة لهذا النقص، تلجأ شركات التعدين مالكة الشاحنات إلى التقليل من تأثير العوامل المهلكة للإطارات، وذلك بتنعيم أسطح الطرق، وتخفيف الحمولة قدر الإمكان، وخفض السرعة.

وقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية في زمن الحرب العالمية الثانية نقصاً شديداً في إنتاج المطاط، وبات نصف عدد الشاحنات التي تعمل في الطرق السريعة، وكان يقترب من خمسة ملايين شاحنة، مهدداً بالتوقف في عام 1944م لعدم توافر الإطارات. وقد هزَّت هذه الأزمة الاقتصاد الأمريكي بشدة، حيث كان هناك 50 ألف موقع إنتاج يعتمد اعتماداً كلياً على الشاحنات. وكلها مواقع بعيدة جداً عن مسارات السكك الحديدية. فأصبحت الشاحنات الأمريكية تعمل وفق سياسة عامة تستهدف تشغيلها في المهام الأساسية فقط، مع الحرص على إطاراتها وصيانتها والتعامل معها بوصفها مخزوناً استراتيجياً فائق الأهمية.

دولاب اكبر من سيارة..
وتبديله اغلى من سيارة!



corbis

أمريكا والشاحنة.. أيهما يصنع الآخر؟

تبلغ مساحة الولايات المتحدة الأمريكية 9,628,382 كيلومتراً مربعاً، ويبلغ إجمالي طول الطرقات فيها حوالي 6,291,200 كيلومتر.. وإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه الدولة العملاقة هي الدولة الصناعية الأولى في العالم والمورد الأكبر والمستورد الأكبر، وأن شعبها يعتبر من أكثر شعوب الأرض استهلاكاً للسلع على اختلاف أنواعها، يصبح بإمكاننا أن نتصور المكانة التي تحتلها الشاحنة فيها.

فمع انتهاء الحرب الباردة والانتعاش الاقتصادي الذي عرفته الولايات المتحدة خلال العقد الماضي، تضاعف عدد الشاحنات فيها من 459000 إلى 820000 شاحنة. أما عمليات النقل التي أنجزها هذا العدد من الشاحنات فقد تزايد بمعدلات أكبر، لأن الزيادة لم تكن في عدد الآليات فقط، بل أيضاً في أحجامها وحمولتها. فقفز حجم النقل من 51 بليون طن / ميلي إلى 115 بليوناً. وقد نتج عن هذا التفاعل الحيوي بين شبكات الطرق السريعة والشاحنات الضخمة الحديثة سوق للخدمات اللوجستية تقدر قيمتها بنحو 104 مليارات دولار. وثمة شركة واحدة من شركات الدعم اللوجستي في أمريكا تتحكم في شبكة للطرق السريعة، وتضم نحو 5300 شركة فرعية للنقل البري بالشاحنات، ونحو 20,000 شاحنة ومقطورة...

في بلاد كهذه، لا بد من أن تصبح الشاحنة جزءاً من الحياة اليومية لمئات الآلاف والملايين، وأن تحدد أنماط عيش الملايين ممن يعتاشون منها مباشرة أو بشكل غير مباشر. ولذا، ليس غريباً أن نرى كل هذا الكم من الشاحنات في الأعمال الأدبية والسينمائية الأمريكية، حتى ولو لم تكن الشاحنة أو قائدها الموضوع الرئيس لهذا العمل أو ذاك.

مطاعم خاصة بسائقي الشاحنات في الصحاري والسهول الشاسعة، ومحطات وقود أيضاً، استراحات وفنادق، وحتى إذاعات خاصة بهم وبشؤونهم وشجونهم تبث ليلاً لمواكبتهم على الطرقات... حكايات عن مغامراتهم وحوادثهم، وحتى سباقات خاصة بالشاحنات.. بعبارة أخرى، لقد نقلت الشاحنات، مع ما نقلته، الحياة إلى أماكن كانت خالية من الحياة، وهي في حركتها الدائمة تربط أطراف البلاد ببعضها، فتلبي احتياجات الجميع، وتتولد عنها احتياجات أخرى تشكل تلبيتها مجال عمل ومورد رزق للآلاف.

فأمريكا المصنِّع الأول للشاحنات، تدين بما هي عليه اليوم من تقدم ورخاء للشاحنات نفسها.. الشاحنات التي عادت بدورها لتعيد صناعة أمريكا.

التزامها بالطريق فرض نفسه على هندسة هذه الأخيرة

Corbis

وجهها المكدِّر..



للشاحنة وجه مكدِّر واحد، لا يراه إلا في حالات معينة بعض العابرين بجوارها على الطرق السريعة. فبالرغم من مردوداتها الإيجابية اقتصادياً واجتماعياً، فإن ارتباط الشاحنات الضخمة بالطرق السريعة الحديثة بات يحسب له حسابه الخاص من قبل سائقي السيارات الذين يجاورونها، نظراً لبشاعة الصورة المرسومة في أذهان الجميع عن الاصطدام بشاحنة. والإحصاءات تؤكد أن لهذه الصورة ما يبررها. ففي دراسة أجريت على حوادث الطرق السريعة بأستراليا، في الفترة الممتدة من 1992 إلى 1997م، أوضحت النتائج أن 60% من الحوادث كانت شاحنة أو أكثر طرفاً فيها. وفي 54% حدث التصادم بين أكثر من سيارة وشاحنة. وأن الأسباب الأكثر شيوعاً لهذه الحوادث كان الإجهاد وتناول الكحول. كذلك، ثبت أن قلة نوم سائقي الشاحنات الأمريكية تتسبب في مقتل 5600 مواطن أمريكي كل عام في حوادث تصادم شاحناتهم بمركبات أخرى على الطرق السريعة. وجاء ذلك في دراسة أجراها باحثون بمدرسة الطب في جامعة بنسيلفانيا، أثبتوا فيها أن سائق الشاحنة الذي يحصل على أقل من 5 ساعات من النوم في الليلة الواحدة يفقد كامل أهليته لقيادة الشاحنة، ويكون حاله أقرب إلى حال الإنسان المخمور.

وأثبتت دراسة أمريكية أخرى أن سائقي الشاحنات وغيرها من المركبات الآلية يتسببون في حوادث الطرق أكثر بمقدار عشر مرات من عوامل أخرى، مثل أحوال الجو والطريق والمركبة. وقد لوحظ أن عدداً من حوادث التصادم يرجع إلى أن سائق السيارة العادية يدخل في نطاق منطقة يسميها الأمريكيون (no-zone)، أي المنطقة التي يجب ألا تتواجد فيها سيارات أخرى إلى اليسار وإلى اليمين وإلى الخلف من الشاحنة الكبيرة، لأن سائق الشاحنة لا يستطيع تبين وجود سيارات صغيرة تسير إلى جانبه في هذه النطاقات. إن وزن شاحنة كبيرة من ذوات الـ 18 عجلة قد يتعدى 80 ألف رطل، بينما لا يزيد متوسط وزن سيارة الركوب العادية على 3 آلاف رطل، وبحسب قوانين الفيزياء، فإن أي تصادم بين هذين الجسمين يؤدي حتماً لعواقب وخيمة. أما في جنوب إفريقيا، فقد تبين أن عدداً كبيراً من السائقين العاملين على الطرق السريعة يغلبهم النعاس وهم خلف عجلة القيادة، وأن ذلك يتسبب في ربع عدد حوادث التصادم التي تكون الشاحنة طرفاً بها. وجاء ذلك في دراسة أجراها فريق من علماء مختبر النوم في جامعة ويتس، حيث تبين أن ثلاثة أرباع



Reuters

بين جولتين

سائقي الشاحنات الذين يقومون برحلات طويلة ينامون وهم يقودون شاحناتهم الضخمة. وقد تقصت الدراسة أسباب هذه الظاهرة، فتبين أن متوسط عدد ساعات العمل لسائق الشاحنة هو 93 ساعة، بزيادة 30% عن الحد الأقصى الذي تحدده لوائح العمل الخاصة بهذه المهنة. ويقول السائقون إنهم مضطرون لتحمل ضغط ساعات العمل استجابةً لطلبات السوق والمستهلكين، التي ترغم إدارات شركات الشاحنات على تمديد نوبات العمل للسائقين، الذين يهمهم -بالوقت ذاته- تحصيل دخل أعلى يواجهون به متطلبات العيش. وبالإضافة إلى هذه الضغوط، يفتقد سائقو الشاحنات في جنوب إفريقيا مرافق الطرق التي يمكن اللجوء إليها طلباً للراحة، كما أنهم لا يجرؤون على التزام جانب الطريق والتوقف ليحصلوا على دقائق آمنة من النوم، خوفاً من عصابات قطاع الطرق!.



Reuters

.. وبين شاحنتين



الشاحنة وفن الرسم من باكستان إلى هاييتي

في أحد الأفلام الوثائقية التي بثتها واحدة من القنوات الفضائية قبل مدة حول التجارة البرية ما بين باكستان والصين، توقف المستطلع أمام شاحنة لنقل البضائع بدت كحديقة ألوان مثقلة بالمجوهرات. وبالاقتراب من الشاحنة تبين أن صاحبها زينها (عند رسام محترف لهذا الفن) بمجموعة هائلة من الرسوم التي تمثِّل حدائق وشخصيات من تاريخ الأدب وموضوعات مستوحاة من حكايات شعبية، ناهيك عن أبيات الشعر والحكَم والأمثال. وأكثر من ذلك، فقد تدلت من فوقَ إطاراتها حبال من حبيبات الزجاج لتغطي الإطارات بما يشبه الستائر الملونة وفق أشكال تجريدية رائعة.

يقول صاحب هذه الشاحنة إن عملية تزيينها كلفته نحو 700 دولار أمريكي علماً بأنه اشترى الشاحنة بعشرة آلاف. ولما سأله المستطلع عن السبب الذي دفعه إلى ذلك، أجاب: لأن أصحاب البضائع قد لا يقبلون بشاحنتي لنقلها إذا لم تكن جميلة!

والواقع أن سائقي الشاحنات في معظم دول العالم يسعون إلى تزيين شاحناتهم ببعض الرسوم أو الملصقات. غير أن هذا الفن يبلغ ذروته في الهند وباكستان وباقي الدول المجاورة لهما. ومن هذه الدول الآسيوية وصل هذا الفن جزئياً إلى بلادنا. وإن بقي في معظم الأحيان مقتصراً على مساحات محدودة من هيكلها الخارجي. فترى في

شاحنات.. أم معارض متنقلة لفن الرسم والزخرفة؟

pBase



Saudi Aramco World

google

معظم الأحيان لوحة خطية مثل «راجعة بإذن الله»، أو صورة زهرة هنا، أو أخرى هناك. ولعل الغالب في اللوحات الخطية بعد الأدعية بالسلامة، كلمات الحب المستوحاة من عناوين أغنيات أم كلثوم، مثل «أنساك ده كلام» أو «أغداً ألقاك»..

والواقع أن كون الشاحنة كبيرة الحجم وتنتقل بصاحبها لوقت طويل بعيداً عن بيته، تشجعه على أن يحمل معه، أو يحملها، شيئاً من شخصيته وثقافته. وهذا ما يفسِّر شيوع فن زخرفة الشاحنات بالطرق نفسها تقريباً في أماكن متباعدة من العالم. ففي كولومبيا هناك شاحنات «الشيفا» التي تنقل الفلاحين إلى أسواق المدن القريبة ليبيعوا منتجاتهم. والشيفا عبارة عن شاحنة من إنتاج فورد أو جنرال موتورز، تخضع لتعديلات محلية لتستحق اسم (الشيفا)؛ وتبدأ التعديلات بإزالة المسطح الخلفي ليحل محله تركيبة خاصة نصف مغلقة، تصف بها مقاعد قابلة للنقل؛ وعندما تكون الحمولة ثقيلة (بقرتان أو أكياسُ بُنٍّ كثيرة، مثلاً)، ترفع كل المقاعد أو جزء منها، لإخلاء المكان للحمولة. ثم تزخرف الشاحنة حسب أعراف مرعية، بخطوط ودوائر ومثلثات، ويركز المصوِّرُ كل طاقته الإبداعية على الباب الخلفي للشاحنة.

ونظير لشاحنة الشيفا في (هايتي) هي شاحنة (تاب - تاب)؛ وهي في الأصل، كما هو الحال في الشيفا، شاحنات فورد أو شيفروليه، وبها مكان مخصص للحمولة، ويسمح لها بالعمل داخل المدن وخارجها، سواء كانت تحمل أو لا تحمل أثقالاً كبيرة؛ وتملأ النقوش كل الأجزاء الظاهرة من الـ (تاب - تاب)، فتجد على الدرَّاءة (الواقية من الريح)، والسقف، والمصدات، وأيضاً على (الرفارف) نقوشاً أثرية وشعارات ورموزاً، وأسماء لأقارب وأصدقاء السائق أو المالك، ولبعض المشاهير، مثل لاعب الكرة مارادونا!.

pBase

الشاحنة على شاشة السينما

وسيلة نقل، أداة انتقام وقوة ميتافيزيقية جبارة...

إبراهيم العريس

حين سُئل السينمائي الأمريكي ستانلي كوبريك عن المشهد الذي أثاره أكثر من أي مشهد آخر في تاريخ الفن السابع قال من دون تردد إنه المشهد الأخير في فِلم «مبارزة» لزميله ومواطنه ستيفن سبيلبرغ. وأوضح كوبريك أنه لم يرَ في حياته ما هو أكثر إثارة ومدعاة للراحة بعد توتر يطاول المشاهد طوال الفلم أكثر من منظر الشاحنة العملاقة وهي تتجاوز الطريق في هجومها الساحق على السيارة الصغيرة، لتقع من أعلى المرتفع في ذلك السقوط الذي بدا في تلك اللحظة أسطورياً.

كثر يمكنهم أن يوافقوا كوبريك على هذا الرأي.. ذلك أن المشهد في حد ذاته، من ناحية تصويره الفني أتى رائعاً.. لكنه في الوقت نفسه أتى ممتعاً من ناحية المضمون. وبكل بساطة لأنه رمز إلى هزيمة القوي والمفتري، أمام عناد الإنسان.. أو عناد السائق الضعيف الذي يجد نفسه عرضة للأذى والخطر من دون أن يفهم سبباً لهذا، فلا يجد أمامه إلا أن يقاوم.

هي المعركة الأبدية بين القوة والضعف. لكنها أيضاً، وفي الوقت نفسه، المعركة بين الجسد والعقل. بين الخير والشر، بين الحق والقوة. وفي ذلك الفلم الذي كان أول فِلم لسبيلبرغ يعرض على الشاشة الكبيرة، مع أنه كان مصنوعاً أصلاً للشاشة الصغيرة.. استخدم المخرج - وكاتب السيناريو ريتشارد ماتيسون- معه، الشاحنة رمزاً للقوة والطغيان وبالتالي... الشر. يومها احتجت نقابات سائقي وأصحاب الشاحنات في الولايات المتحدة على هذا الاستخدام الذي رأته مسيئاً إلى سمعة مهنة بأسرها. ورداً على ذلك الاحتجاج لم يفت سبيلبرغ أن يقول إن المسألة رمزية، وإن ما يعنيه ليس أن كل الشاحنات مفترية، بل تلك الشاحنة بالذات، بل أشار أيضاً -في معرض تخفيفه من حدة الأمور- إلى أن جزءاً من الصراع قد يتحمل سائق السيارة الصغيرة تبعته.

نعرف اليوم أن حكاية «مبارزة» تتحدث عن مواطن عادي ينطلق صباحاً على متن سيارته الخاصة ليقطع المسافة بين مدينتين. لكنه خلال الطريق الخالية الخاوية، يلاحظ شاحنة عملاقة تبدأ بمطاردته و «اللعب» معه في تصعيد يزداد خطراً. يحاول تفاديها، لكنها تصر على مطاردته، حتى لحظة النهاية حين ينتصر عليها بالحيلة لا بالقوة. ويلفت في هذا الفلم المرعب، والذي يدق جرس الإنذار، أننا، نحن المتفرجين، لا نرى السائق أبداً. يبدو بالأحرى غير موجود إلى درجة أن الشاحنة تبدو وكأنها تقود نفسها بنفسها، ما أضفى على الموضوع كله بعداً ميتافيزيقياً، خاصة أن سبيلبرغ اختار اسم «إنسان» لسائق السيارة الصغيرة.

شاحنة للعدالة

كل هذا، يجعل، إذاً، من شاحنة «مبارزة»، رمزاً لكل القوى المادية أو المعنوية، التي يجد الإنسان نفسه مضطراً لمجابهتها. سواء أكان الخطأ خطأه أم لا.. والحقيقة أن تلك لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة التي تستخدم فيها السينما الشاحنة لترميز من هذا النوع. فالشاحنة تحضر في أفلام كثيرة، وهي غالباً ما تعتبر كناية عن القوة والشر أيضاً، حيث يمثل الانتصار عليها، في معظم الأحيان، انتصاراً للإنسان وللحق. فمثلاً تصل حكاية «تيلما ولويز» إلى ذروتها في فلم ردلي سكوت الشهير والذي يحمل اسم بطلتيه، حين تتمكن المرأتان الهاربتان من الانتصار على شاحنة عملاقة كان سائقها قد ضايقهما طوال طريق هربهما. وليس نموذج هذا الفِلم سوى تأكيد لمنطق فلم «مبارزة».

ولكن في المقابل، قد يكون لافتاً في فِلم فرنسي عنوانه «التهديد» وكان من آخر الأفلام التي مثلها إيف مونتان قبل رحيله أن تكون الشاحنات وسيلة لفرض العدالة. إذ هنا لدينا رجل ارتكب جريمة ألصقها بصاحبته في فرنسا، ثم هرب إلى كويبك في كندا حيث عاش متخفياً في مأمن من عدالة عجزت عن الوصول إليه. لكن الشاحنات، وبشكل غامض، محملة بأكوام من جذوع الأشجار المقطوعة تحيط بسيارته من كل جانب فيما يشبه رقصة باليه عنيفة لتوصله إلى التهلكة وكأنها آلت على نفسها أن تعاقبه على فعلته التي لم يعاقبه عليها القانون. في هذا الفلم انعكس الدور، ما يوضح أن السينما، لم تعتبر الشاحنة فاعل شر ذاتي القرار والتحرّك، بل أداة للعدالة، كما كانت في «مبارزة» أداة للظلم.

غير أن السينما، بين شخصيتي الشاحنة هاتين، لم يفتها أن تستخدمها مرات كثيرة ضمن إطار مهمتها الأصلية:

على شاشة السينما: رعب وكوميديا وجزء من الحياة اليومية المعاصرة



عربة للنقل والتحميل. وبهذه الشاكلة حضرت الشاحنة في آلاف الأفلام، غير أن حضورها لم يكن دائماً بالبراءة التي يمكن تصوّرها، ناهيك بأن هذا الحضور نبع في معظم الأحيان من السحر الذي تمارسه هواتها على شاشة تبدو، على رغم عرضها، عاجزة عن استيعاب كل جسدها. ونلاحظ دائماً كيف أن الكاميرا تبدي أقصى درجات التفنن في تصويرها للشاحنة ومن كل زواياها، مع تفضيل خاص، من أجل جرعة إثارة زائدة، للقطات بكاميرا منخفضة تستعرض الشاحنة من جزئها الأسفل.

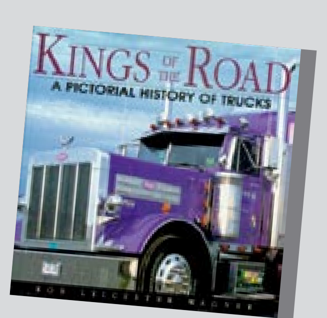
جاذبيتها لن تزول

في مجال الدلالة، ولأننا لا نجد هنا مساحة تكفي للحديث عن كل الشاحنات في كل الأفلام، لطالما أننا أشرنا إلى حضور الشاحنة الطاغي في مئات إن لم يكن في آلاف الأفلام، قد يكون ملائماً أن نذكر هنا الشاحنة الأشهر في تاريخ السينما العربية: إنها شاحنة فلم «المخدوعون» للمصري توفيق صالح، وهو فلم مأخوذ عن قصة الكاتب الراحل غسان كنفاني «رجال في الشمس». هنا، في هذا الفلم الذي يرمز إلى القضية الفلسطينية وأهلها، تقوم الشاحنة-الصهريج، بدور «البطولة». فهي أداة النقل التي يتولّى سائقها تهريب رجال فلسطينيين إلى بلدان خليجية ليعثروا على عمل وحياة كريمه لهم. السائق يضع المهربين داخل الصهريج ويعبر بهم الحدود في ممارسه كانت تبدو عاديه في ذلك الحين. ولكن في القصة -وفي الفلم بالتالي- إذ تستغرق الإجراءات الجمركيه وقتاً أكثر من اللازم بسبب الثرثره، يقع الرجال الموجودون داخل الصهريج فريسة الحرارة والاختناق ويموتون من دون أن ينتبه السائق إلى ما حدث لهم. هنا صارت الشاحنه قبراً متنقلاً، ما أعطاها دلالة رمزية إضافية وبالتالي بعداً سياسياً قابلاً للنقاش.

والنقاش كان، على أية حال، جزءاً أساساً من العلاقه بين السينما والشاحنة، خصوصاً أن ولادة هاتين الأداتين تزامنت لتجعل منهما معاً، من نتاجات القرن العشرين. وهنا إذا كانت السينما قد حلت محل الحكاية والملحمة، فإن الشاحنة بدورها قد حلت محل السفينة والجمل والقافلة. وهذا بدوره أضفى جاذبية خاصة على شخصية سائق الشاحنة نفسها، في كل مكان وزمان.. إذ نجد هنا هذه الشخصية وقد أسبغت السينما عليها دائماً ملامح شديدة الخصوصية تتراوح بين العنف والبطش من ناحية، وبين التجوال والبحث الدائم عن المجهول من ناحية أخرى.

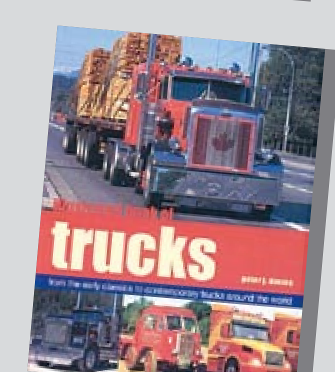
ومن جديد لا بد من الإشارة إلى أن سائقي الشاحنات تمردوا طويلاً على هذه الصور وأبدوا احتجاجاتهم الهادئة مرات والعنيفة مرات أخرى. ولكن من دون جدوى. فالسينما لم تقبل أبداً بأن تخسر عنصر إثارة، في الشكل والمضمون تمثله الشاحنة من حيث قوتها وشكلها وقدرتها على الحركة الاندفاعية وسط الدروب؛ وعنصر تنويع يمثله استخدام الشاحنة كوسيلة للنقل وبيت متنقّل، بل أحياناً كمكتب مراقبة للمهربين (كما في فلم «التهريب» لستيفن سودربرغ مثلاً)، أو حتى كمنطلق لبعد عاطفي درامي (كما في الفلم السوري الشهير «سائق الشاحنة») أو مكان لقاء لشخصيات، يُصنَعُ الحدث الدرامي من لقائها هذا (كما في «مشوار عمر» للمصري محمد خان) أو كمجرد وسيلة نقل -وتواصل ذي دلالة على أية حال- (كما في الفلم المغربي «عابر سبيل» لمحمد عبدالرحمن التازي، أو الفلم المصري «ثلاثة على الطريق» لمحمد كامل القليوبي).

مهما يكن، وسواء، أكانت الشاحنة ودورها في الفلم، هذا أو ذاك، فإنها تمارس دائماً على المتفرجين جاذبية وإثارة لا يشيران أبداً بأن دورها على الشاشة قد ينتهي عما قريب. بل ستبقى جزءاً من فتنة الصورة، وعمق الفن. ما بقيت السينما مهما كانت شكوى السائقين واحتجاجاتهم.



ملوك الطريق:
المجلة المصورة عن تاريخ الشاحنات

يستعرض المؤلف روب وانجر في هذا الكتاب تاريخ الشاحنات منذ القدم وحتى عصرنا الحالي. فيتناول جميع أنواع الشاحنات أشكالها، مميزاتها، واستخداماتها. ويتسم هذا العمل بطابع موسوعي شامل، ويتوجه إلى كل من يريد التعرف على الشاحنات.



كتاب الشاحنات المصور

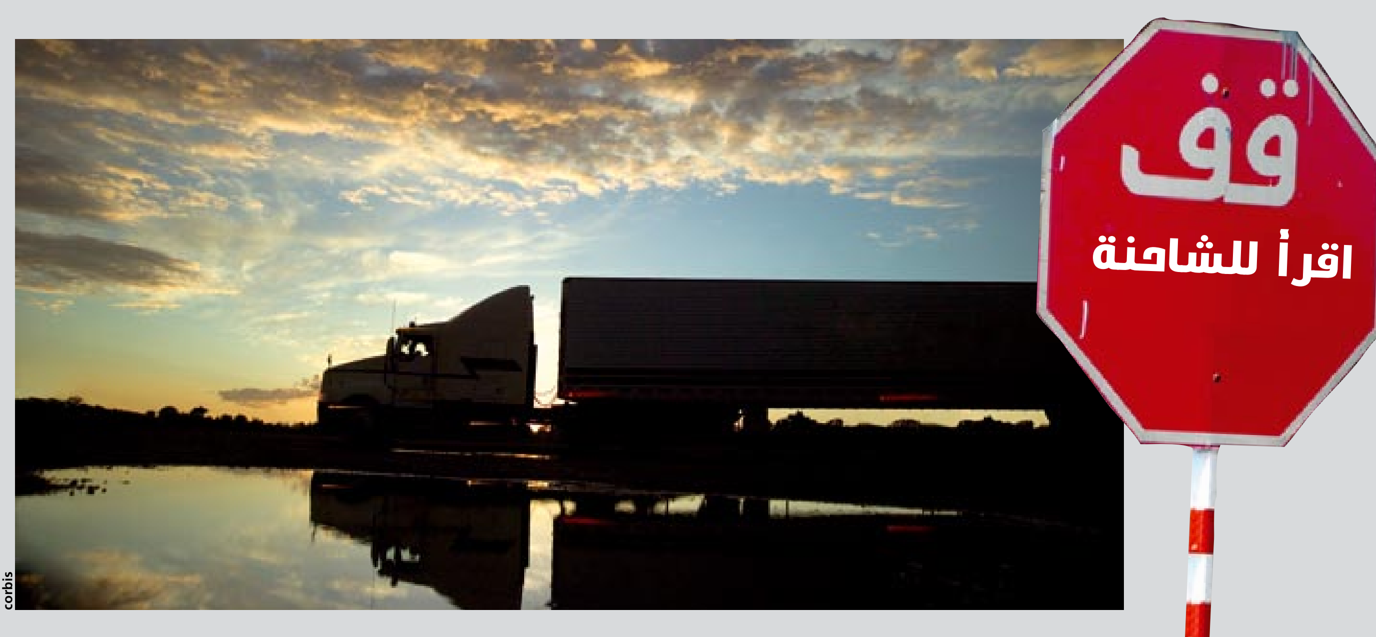
يقع هذا الكتاب، للمؤلف بيتر ج. دافيز، في 264 صفحة. بداية يعرِّفنا الكاتب على تاريخ الشاحنات مع تغطية شاملة لجذورها، مخترعيها وروادها. ثم ينتقل إلى مراحل تطورها من ناحية الشكل، التصميم، والهندسة بشكل تفصيلي. وكل هذا مصحوب بصور تعريفية عن كل شاحنة.

وللصغار أيضاً: يوجد الكثير من الكتب عن الشاحنات للصغار منها:



«لم أكن أعلم أن الشاحنة قد تكون بحجم المنزل، وحقائق أخرى مذهلة عن الشاحنات»

يقع هذا الكتاب في 32 صفحة وهو من تأليف ويليم بيتي وتمت ترجمته إلى العربية..يجمع هذا الكتاب الكثير من الحقائق المدهشة عن الشاحنات بشتى أنواعها، من الشاحنات البخارية الأولى إلى الطراز العالي التقنية الحديث. كما يحتوي على بعض التجارب المسلية والأسئلة الممتعة التي تحفِّز الصغار على قراءة الكتاب لجمع أكبر معلومات ممكنة عن الشاحنة.



corbis



طاقة للعالم.. للوطن طاقات

طريق الأمان..
حزام الأمان

في انتباهك السلامة
Your Attention Means Safety

www.saudiaramco.com

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مارس - أبريل 2007
المجلد 56 العدد 2

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com